تراثنا

المجلد الثانى
من

لطائف الإشارات

تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيرى

قدم له وحققه وعلق عليه
الدكتور ابراهيم بسيونى

صدر له
الأستاذ حسن عباس زكى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

al-Qushayri

"Laṭā'if".



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ يَسِّرْ

السورة التي يذكر فيها النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلفوا فى الاسم عن ماذا اشْتُقَّ ؛ فنهم من قال إنه مشتق من السموّ وهو العلوّ . ومنهم من قال إنه مشتق من السِّمَة وهى الـكَيَّة .

وكلاهما فى الإشارة : فَمَنْ قال إنه مشتق من السمو فهو اسمُ مَنْ ذكَرَه سَمَتْ رتبتُه ، ومَن عرَفَه سَمَتْ حالتُه ، ومن صَحِبَه سَمَتْ هِمَّتُه ؛ فسمو الرتبة يوجب وفور المثوبات والمَبَارِّ ، وسمو الحالة يوجب ظهور الأنوار فى الأسرار ، وسمو الهمة يوجب التحرز عن رِقِّ الأغيار .

ومن قال أصله من السِّمَة فهو اسمُ مَنْ قصَدَه وُسِمَ بِسِمَةِ العبادة[1] ، ومن صحبه وسِمَ بسمة الإرادة ، ومن أحبَّه وسم بسمة الخواص ، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص . فسِمَةُ العبادة توجب هيبة النار أن ترمى صاحبها بشررها ، وسمة الإرادة توجب حشمة الجِنان أن تطمع فى استرقاق صاحبها — مع شرف خطرها ، وسمة الخواص توجب سقوط العُجْبِ من استحقاق القربة للماء والطينة على الجملة[2] ، وسمة الاختصاص توجب امتحاء الحكم عند استيلاء سلطان الحقيقة .

ويقال اسمُ مَنْ واصله سما عنده (عن) الأوهام قَدْرُه (سبحانه)[3] . ومن فاصله وُسِمَ بِكَيِّ الفُرقة قلبُه .

---

(١) هنا حدث اضطراب من الناسخ فاخطأ فى النقل وقد رتبنا الـكلام فى النصف الأول من الفقرة حسب الترتيب الوارد فى النصف الثانى منها والذى يبدأ « فسمة العبادة توجب .... الخ » . ذلك الترتيب الذى يتمشى مع المذهب العام للقشيرى فى كل مصنفاته .

(٢) يقصد تشريف الانسان على جملة المخلوقات ، فالانسان وحده — دون سائر الـكائنات — هو الذى خوطب بتبادل الذكر والمحبة مع الحق جل شأنه .

(٣) وضعنا (عن) و (سبحانه) ليمتنع اللبس ، وهما غير موجودين فى النص (يقول القشيرى فى رسالته : ما يصوره وهمك فالله بخلاف ذلك) .

وعلى هذه الجملة يدل اسمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ اتقو ربكم الذى خلقكم
مِنْ نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها
وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ، ونساءً ،
واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام
إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

الناس اسم جنس ، والاشتقاق فيه غير قوى . وقيل سمى الإنس إنساً لظهوره[1] فعلى هذه الإشارة : يامَنْ ظهرتم عن كتم العَدَم بحكم تكليفى ، ثم خصصتُ مَنْ شئتُ منكم بتشريفى، وحرمتُ من شئت منكم هدايتى وتعريفى ، ونقلتكم إلى ماشئتُ بل أوصلتكم إلى ماشئت بحكم تصريفى .

ويقال لم أُظْهِرْ منَ العَدَمِ أمثالكم ، ولم أُظْهِرْ على أحدٍ ماأظْهرْتُ عليكم من أحوالكم .

ويقال سمِّيتَ إنساناً لنسيانك ، فإن نسيتنى فلا شىء أخَسُّ[2] منك،وإنْ نسيت ذكرى فلا أحد أحَطُّ[3] منك .

ويقال من نَسِىَ الحق فلا غاية لمحنته ، ومن نسى الخَلْقَ فلا نهاية لعلوِّ حالته .

ويقال يقول للمُذْنبين : يامَنْ أُنسيتَ عهدى ، ورفضتَ ودى ، وتجاوزت حدِّى حانَ لك أن ترجع إلى بابى ، لتستحقَّ لطفى وإيجابى . ويقول للعارفين ، يامَنْ نسيت فينا حظَّكَ ، وصُنتَ عن غيرنا لَحْظَكَ ولَفْظَكَ — لقد عظُم علينا حقُّك ، وَوَجَبَ لدينا نصرُك[4] ، وجلَّ عندنا قدْرُك .

---

(١) حتى يقابل (الجن) لاختفائه . ربما كان قصد القشيرى إلى ذلك .

(٢) وردت (أخص) بالصاد ، وربما نقبلها على أساس أن الله يعاتب عبده : إن نسيتنى فأنت رغم ذلك (اخص الكائنات بمحبتى) .

(٣) وردت (أحض) بالضاد وربما كانت أحصن .

(٤) وجب واستوجب والايجاب عند القشيرى ترد بمعنى الاستحقاق ، وعلينا ان نتأمل الدقة فى استعمال (لدينا) ولم يقل (علينا) فلا وجوب على الله — بخلاف المعتزلة .

ويقال يامن أنستَ(١) بنسيم قربي ، واستروحتَ إلى شهود وجهي ، واعتززت بجلال قدْري — فأنت أجلُّ عبادي عندي .

قوله : «اتقوا ربكم» : التقوى جماع الطاعات ، وأوله ترك الشِّرْكِ وآخره اتقاء كل غير ، وأولُ الأغيار لك نفسُكَ ، ومَنْ اتَّقَى نفسه وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ، و (وقف) لله . . لا لشهود حظٍّ فى الدنيا والعقبى .

قوله : « الذى خلقكم من نفس واحدة » : وهو آدم عليه السلام ، وإذا كنا مخلوقين منه وهو مخلوق باليد فنحن أيضا كذلك ، لمَّا ظهرت مزية آدم عليه السلام به على جميع المخلوقين والمخلوقات فكذلك وصفُنا ، قال تعالى : « أولئك هم خير البرِّية » .

ولفظ «النفس» للعموم والعموم يوجب الاستغراق .

قوله : « وخلق منها زوجها » : حكَمَ الحقُّ — سبحانه — بمساكنة الخلْق مع الخلْق لبقاء النسل ، ولردِّ المِثْل إلى المِثْل فربطَ الشكلَ بالشكلِ .

قوله . « وبثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء » : تعرَّف إلى العقلاء على كمال القدرة بما ألاح من براهين الربوبية ودلالات الحكمة ؛ حيث خلَق جميع هذا الخلْق من نَسلِ شخصٍ واحدٍ ، على اختلاف هيئتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم ، وإن اثنين منهم لا يتشابهان ، فلكلٍ وجه فى الصورة والخلْق ، والهمة والحالة، فسبحان من لاحدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته .

ثم قال : « واتقوا الله » تكرير الأمر بالتقوى يدلُّ على تأكيد حكمه .

وقوله : « تساءلون به والأرحام » : أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فمَنْ قَطَعَ الرحمَ قُطِع ، ومَنْ وَصَلَها وَصَل .

« إنَّ الله كان عليكم رقيباً » : مطلعا شهيداً ، يعُد عليك أنفاسَك ، ويرى حواسَك ، وهو متَوَلٍّ خطراتِك ، ومنشئ حركاتِك وسكناتِك . ومَنْ عَلِمَ أنه رقيب عليه فبالحرِيِّ أن يستحيَ منه .

---

(١) لاحظ كيف يربط القشيرى بين الناس (والأُنْس) بعد أن ربطها (بالإنْس) فمدار الكلام كله على لفظة (الناس) التى وردت فى الآية الكريمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا
الخبيث بالطيِّب ولا تأكلوا أموالهم
إلى أموالكم إنَّه كان حُوْباً كبيراً ﴾

مَنْ أُقيم بمحلِّ الرعاية فجاء على رعيَّتِهِ فَخَصْمُهُ ربُّه ؛ فإنه — سبحانه — ينتقم لعباده مالا ينتقم لنفسه . فوَلِيُّ اليتيم إنْ أنصفَ وأحسَنَ فحقُّه على الله ، وإنْ أساء وتعدَّى فخَصْمُهُ اللهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن خفتم ألا تُقسِطوا فى اليتامى
فانكحوا ما طاب لكم مِنَ النساءِ
مثنى وثُلاثَ ورُباع ، فإنْ خِفْتُم
ألاَّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت
أَيْمانكم ذلك أدنى ألاَّ تَعُولُوا *
وآتوا النِّساء صَدُقاتِهِنَّ نِحْلةً ﴾

أباح الله للرجال الأحرار التزوج بأربعٍ فى حالة واحدة ، وأوجب العدل بينهن ، فيجب على العبد أن يراعىَ الواجبَ فإنْ عَلِمَ أنه يقوم بحق هذا الواجب آثر هذا المُباح ، وإنْ عَلِم أنه يقصِّر فى الواجب فلا يتعرَّض لهذا المباح ، فإنَّ الواجبَ مسئولٌ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ طِبْنَ لكم عن شىء منه نَفْساً
فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾

دلَّ هذا على أن طعامَ الفتيان[1] والأسخياء مرىء لأنهم لا يُطعِمون إلا عن طيب نَفْسٍ ، وطعام البخلاء ردىء[2] لأنهم يرون أنفسهم ، وإنما يُطعِمون عن تكلُّف لا عن طيب نَفْس . قال صلى الله عليه وسلم : « طعامُ السخىِّ دواء وطعام البخيل داء » .

---

(١) الفتيان جمع فتى . والفتوة أصل من أصول الصوفية عماده الإيثار والبذل والصفح والعفو ، والأنفة عما فى الكونين إلى غير ذلك من محاسن السلوك التى ينبغى للنفس أن ترتاضها ، وأن تتحلى بها حتى يتهيأ العبد لما هو اجل وأعظم ، أن يكون إيثاره لله وبذله لله وروحه لله ، لأن من يؤمر بالتزام ذلك بالنسبة للمخلوق لا يضن بأضعافه بالنسبة إلى الحق .

(٢) مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (ردىء) وقد وضعناها مع التحفظ ، والمعنى يتقبلها .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

السفيه من يمنعك عن الحق ، ويشغلك عن الرب .

والسفيه من العيال والأولاد من تؤثر حظوظهم على حقوق الله تعالى .

قوله : « التى جعل الله لكم قياماً » : حفظ التجمل فى الحال أجدى عليكم من التعرض للتبذل والسؤال ، والكدية والاحتيال . وإنما يكون البذل خيراً من الإمساك عند تجرُّدِ القلب والثقةِ بالصبر . فأمّا على نية الكدية وأن تجعل نفسك وعيالك كَلاًّ على الناس فَحِفْظُك ما جعله الله كفايةً لنفسك أَوْلى ، ثم الجود بفاضل كفايتك .

قوله : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً » : إذا كان ذات يدك يتسع لكفاية يومهم ويَفْضُلُ[1] فلا تدّخره عمّا تدعو إليه حاجتهم معلومك خشيةَ فقرٍ فى الغد ، فإنْ ضاقت يدُك عن الإنفاق فلا يَتَّسِعَنّ[2] لسانك بالقبيح من المقال .

ويقال إذا دَعَتْكَ نَفْسُك إلى الإنفاق فى الباطل فأنت أسفه السفهاء فلا تُطِعْ نَفْسَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإنْ آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾

(١) يفضل وفاضل هنا بمعنى يزيد وزيادة .

(٢) لاحظ المقابلة الجميلة فى تعبير القشيرى بين (ضاقت يدك) و (ويتسع لسانك)

إيناس الرشد العفة والديانة ، والسخاء والصيانة ، وصحبة الشيوخ ، والحرص على مشاهدة الخير ، وأداء العبادات على قضية الأمر .

ويقال الرشيد من اهتدى إلى ربِّه ، وعندما تسنح له (حاجة) من حوائجه لا يتّكل على حَوْله وقُوَّتِهِ ، وتدبيره واختياره .

قوله جل ذكره : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان
والأقربون وللنساء نصيب مما ترك
الوالدان والأقربون مما قلَّ منه
أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً ﴾

حكم الميراث لا يختلف بالفضل والمنقبة ، ولا يتفاوت بالعيب والنقص والذنب ؛ فلو مات رجلٌ وخلف ابنين تساويا فى الاستحقاق وإنْ كان أحدهما براً تقياً والآخر فاجراً عَصِيّاً ، فلا للتقى زيادةٌ لتقواه ، ولا للفاجر بخس لفجوره ، والمعنى فيه أن الميراث ابتداء عطيّةٍ من قِبَل الله ، فيتساوى فيه البر والفاجر . كذلك حكم الإيمان ابتداء عطيةٍ للمسلمين : قال الله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ، ثم قال : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم . . . » الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولو القُرْبى
واليتامى والمساكين فارزقوهم منه
وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾

يريد إذا حضر قسمة الميراث ذوو السهمان[1] والمستحقون ، وحضَرَ من لا نصيب لهم فى الميراث من المساكين فلا تحرموهم من ذلك . فإن كان المستحقُ مُوَلًّى عليه ، فَعِدوهم وعداً جميلاً وقولوا : « إذا بلغ الصبى قلنا له حتى يعطيك شيئاً » وهذا معنى قوله : « وقولوا لهم قولاً معروفا » . وفى هذا إشارة لطيفة للمذنبين إذا حضروا لعرصته غداً ، والحق سبحانه يغفر للمطيعين ويعطيهم ثواب أعمالهم ، فمن كان منكم من فقراء المسلمين لا يحرمهم الغفران

---

(١) السهمان ج سهم .

إن شاء الله بعدما كانوا من أهل الإيمان ، وكذلك يوم القسمة لم تكن حاضراً ، ولا لك استحقاق سابق فبفضله ملأهلك لمعرفته مع علمه بما يحصل منك فى مستأنف أحوالك من زلتك.

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا مِنْ
خلفهم ذرية ضِعافا خافوا عليهم
فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً ﴾

بَيَّنَ فى هذه الآية أن الذى ينبغى للمسلم أن يدخره لعياله[1] التقوى والصلاح لا المال ، لأنه لم يقل فليجمعوا المال وليكثروا لهم العقار وليخلفوا الأثاث بل قال : « فليتقوا الله » فانه يتولى الصالحين .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى
ظلماً إنَّما يأكلون فى بطونهم ناراً
وسيصلون سعيراً ﴾

إنما تولىَّ الحق سبحانه خصمية اليتيم ، لأنه لا أحدَ لليتيم غيرُه ، وكلُّ من وَكَلَ أمره إليه فتبرَّأ من حوله وقوته فالحق سبحانه ينتقم له بما لا ينتقم لنفسه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل
حَظِّ الأنثيين فإنْ كُنَّ نساء فوق
اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت
واحدة فلها النصف ولأبويه لكل
واحدٍ منهما السُدُسُ مما ترك إن كان
له ولد ، فإن لم يكن له ولد وَوَرِثَهُ
أبوَاهُ فلأُمِّه الثلث فإن كان له إخوة
فلأمه السدس من بعد وصيةٍ يُوصِى
بها أو دَيْن ﴾

---

(١) وردت (العبارة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هذه إشارة موجهة إلى الأولياء ، فهم لا سند لهم من جاه أو سلطان أو مخلوق فإذا تعرضوا للأذى تولى الله عنهم خصومة المؤذى .

الوصية هاهنا بمعنى الأمر ، فإنه سبحانه جعل الميراث بين الورثة مستحقاً بوجهين :

١ — الفرض ٢ — التعصيب ، والتعصيب أقوى من الفرض لأن العَصَبَة قد تستغرق جميع المال أما أكثر الفروض فلا يزيد على الثلثين ، ثم إن القسمة تبدأ بأصحاب الفروض وهم أضعف استحقاقاً ، ثم العَصَبة وهم أقوى استحقاقاً . قال صلى الله عليه وسلم :

« ما أبقَتْ الفرائض فلِأَوْلَى عَصَبَةٍ ذَكَر »[1] كذلك أبداً سنته ، كما فى قوله تعالى :

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » أعطاهم الكتاب بلفظ الميراث ثم قدَّم الظالم على السابق ، وهو أضعف استحقاقاً إظهاراً للكرم مع الظالم لأنه مُنْكسِر القلب ولا يحتمل وقته طول المدافعة .

وقوله « للذكر مثل حظ الانثيين » . لوكان الأمر بالقياس لكانت الأنثى بالتفضيل أَوْلَى لضعفها ، ولعجزها عن الحراك ، ولكنَّ حُكْمَه — سبحانه — غيرُ معلَّل[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعاً فريضةً مِنَ الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً ﴾

الأبناء ينفعونكم بالخدمة ، والآباء بالرحمة ، الآباء فى حال ضعفك فى بداية عمرك ، والأبناء فى حال ضعفك فى نهاية عمرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بعد وَصِيَّةٍ يوصِين بها أو دَيْنٍ ، ولهن الربع

---

(١) صحيح البخارى ح ٨ ص ٢٦٩ « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »

(٢) تحتاج هذه العبارة إلى بعض توضيح . وربما كان أفضل تحديد لها ما يذكره ذو النون المصرى : « علة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه » ثم ما يوضحه أبو نصر السراج فى اللمع حيث يقول : « معنى هذا القول — والله أعلم — أن وجود النقصان فى كل شىء مصنوع كائن ، لأنه لم يكن فكان ، وليس فى صنع الصانع لمصنوعاته علة ، وقال بعضهم :

يا شفائى من السَّقا م وإن كنتَ علَّتى (اللمع ص ٤٤٠)

مما تركتم إنْ لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثُّمُنُ مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دَيْن. وإن كان رجل يورَثُ كلالةً أو امرأةٌ وله أخٌ أو أخت فلكل واحد منهما السُّدسُ فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصيةٍ يوصَى بها أو دَيْنٍ غَيْرَ مُضارٍّ ، وصيةً من الله والله عليم حليم ﴾

الإشارة في ثبوت الميراث للأقربين من الورثة بالنَّسب، والسبب أنَّ الميت إذا مات تحمَّل القريبُ أحزانَه فعوَّضَ اللهُ الوارثَ على ما يقاسيه ويخامر قلبه من التوجُّع مالَ الموروث . . وكذا سُنَّتُه — سبحانه — التعويضُ على مقاساة الأذى — جوداً منه لا وجوباً عليه[1] — كما توهَّم قوم . وكلُّ مَنْ كان أقربَ نسباً أو أقوى سبباً من الميت كان أكثر استحقاقاً لميراثه ، وفي معناه أنشدوا :

وما بات مطوياً على أريحية (. . . .

. . .) عقب النوى * موت الفتى ظل مغرما[2]

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدودُ الله ومَنْ يُطِعْ اللهَ ورسولَه يُدْخِلْه جنَّاتٍ تجرى من

(١) يلح القشيري دائماً فى نفى كل وجوب على الله ، كما لاحظنا ذلك في مواضع شتى بينما لا يمنع المعتزلة من وجوب المثوبة للمطيع — عليه ، ووجوب العقوبة للعاصي — عليه .

(٢) توجد فى البيت كلمات فارسية (انــكه شاد شود در عطاء ادن) = أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء . ومعنى البيت غير واضح .

تحتها الأنهـارُ خالدين فيها وذلك
الفوزُ العظيمُ ﴾ .

حدوده : أوامره و نواهيه ، وما تعبَّد به عباده .

وأصل العبودية حفظ الحدود ، وصون العهود ، ومَنْ حفظَ حَدَّه لم يُصِبْه مكروهٌ ولا آفة ، وأصلُ كلٍّ بلاء مجاوزة الحدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدَّ
حدودَه يدخله ناراً خالداً فيهـا وله
عذاب مُهِينٌ ﴾

وإنما هاعقوبتان: معجلة ومؤجلة، ويقترن بهما جميعاً الذُّلُّ ، فلو اجتهد الخلائق على إذلال المعاصى بمثل الذل الذى يلحقهم بارتـكاب المعصية لم يقدموا[1] عليها : لذلك قال قائلهم : من بات[2] مُلِما[3] بذنب أصبح وعليه مذلته ، فقلت ومن أصبح مُبِرَّاً ببِرٍ ظلَّ وعليه مهابته .

قوله جل ذكره : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة مِنْ نسائـكم
فاستشهدوا عليهن أربعة منـكم
فإن شهدوا فأمسِكوهن فى البيوت
حتى يتوفاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ
لَهُنَّ سبيلا ﴾ .

إنما اعتبر فى ثبوت الفاحشة — التى هى الزنا — زيادة الشهود إسبالاً لِستْرِ الـكَرمِ

(١) وردت (لم يقدروا) والملائم للمعنى أن تـكون (لم يقدموا) مما يرجح أن الناسخ قد أخطأ .
(٢) وردت (من مات) والسياق يقتضى (بات) ، (وأصبح) ، وظلَّ . .
(٣) وردت (مسلما) وهى خطأ من الناسخ .

على إجرام العِباد ، فإنَّ إقامة الشهود — على الوجه الذى فى الشرع لإثبات تلك الحالة — كالمُتَعَذِّر[1] .

وفى قوله — صلى الله عليه وسلم — لماَ عِز لما قال له : يارسول الله ـ صلوات الله عليك ـ إنِّى زنيتُ فَطَهِّرْنى . فقال : لعلَّك قَبَّلْتَ .. ثم قال فى بعض المرات : « استنكهوه »[2] .

فى هذا أقوى دليل لمــا ذكرت من إسباله الستر على الأعمال القبيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ واللذان يأتيانهــا منكم فآذوهما
فإنّ تابا وأصلحا فأعرِضوا عنهما
إنّ الله كان توّاباً رحيماً ﴾

الأمر بفنون العقوبات لهم على فعل ذلك أبلغ[3] شىء فى الردع والمنع منه بالرفع ، لعلّ العبد يحذر ذلك فلا يستحق التعذيب الأعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما التوبة على الله للذين يعملون
السوء بجهالة ثم يتوبون مِنْ قريب
فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله
عليماً حكيماً ﴾ .[4]

لا استغفار مع الإصرار[5] ؛ فإن التوبة مع غير إقلاع سِمَةُ الـكذَّابين .

وقوله : « السوء بجهالة » : يعنى عَمِلَ عَمَلَ الجُهّال .

---

(١) يدل هذا الرأى ــ فى نظرنا ــ أولا على فهم صائب لما وراء الحدود الشرعية من مرام بعيدة ، ويدل ثانياً على سعة صدر الصوفية فى الصفح عن أرباب الخطايا ، وستر معايب الخلائق ، ولقد أحسن الحسن البصرى حين قال : النصيحة على الملأ فضيحة .

(٢) وفى صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٩٨ عن ابن عباس : لما أتى ماعز بن مالك النبى (ص) قال له لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت...الخ قال نعم فعند ذلك أمر برجمه (ومعنى استنكهوه : أى ابحثوا فى فمه عن نكهة الخمر فربما يكون ثملا) .

(٣) وردت (بلغ) وهى خطأ فى النسخ

(٤) أخطأ الناسخ فى كتابة الآية فجاءت (من قريبة) ، (السوء بجهالة) .

(٥) أخطأ الناسخ فكتبها (الاسرار) بالسين والمعنى يرفضها .

وذنب كل أحدٍ يليق بحاله ، فالخواص ذنوبهم حسبانهم أنهم بطاعاتهم يستوجبون محلاً وكرامة ، وهذا وَهَنٌ فى المكانة ؛ إذلاوسيلة إليه إلا به .

قوله « ثم يتوبون من قريب » : على لسان أهل العلم : قبل الموت ، وعلى لسان المعاملة : قبل أن تتعود النفس ذلك فيصير لها عادة ، قال قائلهم :

قلتُ للنَّفْسِ إنْ أردتِ رجوعاً   فارجعى قبل أنْ يُسدَّ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئاتِ حتَّى إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال إنِّى تُبْتُ الآن ، ولا الذين يموتون وهم كُفَّار أولئك أَعْتَدْنا لَهُم عذاباً أليماً ﴾

يعنى إذا كُشِف الغطاء وصارت المعارف ضروريه[1] أُغْلِقَ بابُ التوبة ، فإن مِنْ شرط التكليف أن يكون الإيمان غيبياً . ثم إن فى هذه الطريقة إذا عُرِفَ بالخيانة لا يشم بعده حقيقة الصدق . قال داوود — عليه السلام — فى آخر بكائه لما قال الله تعالى لِمَ تبكى يا داوود ، وقد غفرت لك وأرضيت خصمك[2] وقبلت توبتك ؟

فقال : إلهى ، الوقتُ الذى كان بى رُدَّه إلىَّ

فقال : هيهات يا داوود ، ذاك وُدٌّ قد مضى !!

وفى معناه أنشدوا :

فَخَلِّ سبيلَ العين بعدك للبكا   فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يَحِلُّ لكم

(١) المعرفة الضرورية — عند القشيرى — هى التى تنال فى الانتهاء أما فى الابتداء فهى معرفة كسبية والأولى تشبه الشمس والثانية تشبه السراج ، فإذا طلعت الشمس انبسط شعاعها على السراج . (الرسالة ص ١٤٩) .

(٢) وردت (حضك) ولكن الإرضاء حسبما نعلم من قصة داود كان لخصمه ، لذلك رجحنا أن تكون (خصمك) فإرضاء الخصم ملائم لقبول التوبة والغفران .

أنْ تَرِثوا النِّساءَ كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهُنَّ
لتذهبوا ببعض ما آتيتموهُنَّ إلاَّ
أنْ يَأْتِينَ بفاحِشةٍ مُبَيِّنة ،
وعاشِروهن بالمعروف فإن كَرِهتموهن
فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل اللهُ
فيه خيراً كثيراً ﴾

التلبيسُ على المستضعفين ، والتدليسُ على أهل السلامة والوداعة من المسلمين — غيرُ محمودينَ عند الله . فمن تعاطَ ذلك انتقم الله منه ، ولم يبارِك له فيما يختزل من أموال الناس بالباطل والاحتيال . ومن استصغر خصمه فى الله فأهون ما يعاقبه الله به أنْ يَحرِمَه الوصولَ إلى ما يأمل من محبوبه .

وقوله : « وعاشروهن بالمعروف » : أي بتعاليم الدين والتأدب بأخلاق المسلمين وحُسْنِ الصحبة على كراهة النفس ، وأن تحتمل أذاهن ولا تحملهن كلف خدمتك ، وتتعامى عن مواضع خجلتهن .

قوله : « فإن كَرِهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً . . . » كل ما كان على نفسك أشقّ كانت عاقبتُه أهْنأ وأمْرأ .

واعلم أن الحقَّ سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على غَيْبِه ، فأكثر ما يعافه الإنسان قد تكون الخيرة فيه أتم . وقد حكم الله — سبحانه — بأن مخالفة النفس توصل صاحبها إلى أعلى المنازل ، وبعكس ذلك موافقتها ، كما أن مخالفة القلوب توجب عمى البصيرة ، وبعكس ذلك موافقتها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكانَ
زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً ،
فلا تأخذوا منه شيئاً * أتأخذونه
بهتانا وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه

وقد أفضى بعضكم إلى بعضٍ
وأخَذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً ﴾

يعلمهم حسنَ العهد ونعتَ الكرم فى العِشْرة ، فيقول لا تجمعْ الفرقةَ واستردادَ المال عليها ، فإن ذلك تَرْكُ الكرم ؛ فإنْ خوَّلْتَ واحدة مالاً كثيراً ثم جفوتها بالفراق فما آتيتها يسيرٌ فى جنب ماأَذَقْتَها من الفراق .

قوله : « وكيف تأخذونه . . . . » : يعنى أن للصحبة السالفة حرمة أكيدة ، فقفوا عند مراعاة الذمام ، وأوفوا بموجب الميثاق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤكم
مِنَ النساء إلا ما قد سَلَفَ ، إنه
كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ .

تشير الآية إلى حفظ الذمام ، والوقوف على حد الاحترام ، فإن السَّجيَّةَ تتداخلها الأَنَفَةُ من أن ينكح فِراشَه غيرُه ، فنهى الأبناء عن تخطى حقوق الآباء فى استفراش منكوحة الأب .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم
وأخواتكم وعمَّاتكم وخالاتكم ،
وبنات الأخ وبنات الأخت ،
وأمهاتكم اللَّاتى أرضعنكم وأخواتكم
من الرضاعة ، وأمهات نسائكم
وربائبكم اللاتى فى حُجوركم من
نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن
لم تكونوا دخلتم بهن فلا جُناحَ
عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين
من أصلابكم ، وأن تجمعوا بين

الأختين إلا ما قد سَلَفَ إن الله
كان غفوراً رحيماً ﴾

تـكلُّفُ انتزاع المعانى التى لأجلها حصل هذا التحريم محالٌ من الأمر ؛ لأن الشرعَ غيرُ مُعَلَّلٍ[1] ، بل الحق تعالى حرَّم ما شاء على من شاء ، وكذلك الإباحة ، ولا عِلَّةَ للشرائع بحال ، ولو كانت المحرَّمَاتُ من هؤلاء محلَّلاتٍ [محرمات][2] لـكان ذلك سائغاً .

قوله جل ذكره : ﴿ والمحْصَنَاتُ مِنَ النساءِ إلا ماملَكَتْ
أَيْمانُـكم كتابَ اللهِ عليكم ، وأُحِلَّ
لـكم ما وراء ذلـكم أن تبتغـوا
بأموالـكم مُحْصِنِين غيرَ مُسَافحين
فما استمتعتم به منهن فـآتُوهُنَّ
أُجورَهُنَّ فريضةً ولا جُنَاحَ عليكم
فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ،
إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

إذا حافظت الحدود ، وراعيت العهود ، وحصل التراضى بين النساء بحكم الشرع فما لا يكون فيه للخلق خصيمة ، ولا من الحق سبحانه منه تبعة ، فذلك مباحٌ طلقٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن لم يستطِعْ منـكم طَوْلاً أن
يَنـكِحَ المحْصَنَاتِ المؤمنات فمِنْ
مَا مَلَـكَتْ أيمانـكم من فتياتـكم
المؤمنات ، واللهُ أعـلمُ بإيمانـكم
بعضكم من بعض فانـكحوهن بإذن
أَهْلِهن ، وآتوهنَّ أجورهُنَّ بالمعروف
مُحْصَنَاتٍ غيرَ مسافحاتٍ ولا متخذاتِ

(١) نظن أن هذه النظرة التى يأخذ بها القشيرى أمور التشريع قابلة للمناقشة .
(٢) هذه كلمة زائدة ولم ينبه الناسخ إلى زيادتها ، وربما كانت فى الأصل : « والمحللات محرمات » وحدث سقوط .

أخـدان فإذا أُحْصِنَّ فإن أَتيْنَ
بفاحشــةٍ فعليهن نصف ما على
المحصَنات من العذاب ذلك لِمَنْ خَشِيَ
العنَتَ منكم وإنْ تصبروا خير لـكم
والله غفور رحيم ﴾ .

الرخص جعلت للمستضعفين ، فأما الأقوياء فأمرهم الجِدّ ، والأخذ بالاحتياط والتضييق ؛ إذ لاشغل لهم سوى القيام بحق الحق ، فإن كان أمر الظاهر يشغلهم عن مراعاة القلوب فالأخذ فى الأمور الظاهرة بالسهولة والأخف أوْلى من الاستقصاء فيما يمنع من مراعاة السر ، لأنه ترك بعض الأمور لما هو الأهم والأجلّ ، فمن نزلت درجته عن الأخذ بالأوثق والأحوط فمباح له الانحدار إلى وصف الترخص[1] .

ثم قال فى آخر الآية : « وإن تصبروا خير لـكم » : يعنى على مقاساة ما فيه الشدة ، وفى هذا نوع استمالة للعبيد حيث لم يقل اصبروا بل قال : « وإن تصبروا خير لـكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله ليبيِّنَ لـكم ويهديكم سُنَنَ
الذين مِنْ قبلِـكم ويتوبَ عليـكم
والله عليم حكيم ﴾

لما عرَّف النبي — صلى الله عليه وسلم — وأمَّته أخبارَ مَنْ مضى من الأمم ، وما عملوا ، وما عاملهم به انتظروا ما الذى يفعل بهم ؛ فإن فيهم أيضاً من ارتـكب ما لا يجوز ، فقالوا : ليت شِعْرنا بأىِّ نوع يعاملنا ... أبالخسف أو بالمسخ أو بالعذاب أو بماذا ؟

فقال تعالى : « ويهديكم سنن الذين من قبلـكم » نعرِّفـكم ما الذى عملنا بهم .

---

(١) القاعدة « أن الله يحب أن تؤتى رُخَصُه كما تؤتى عزائمه » ولـكن القشيرى يرى بالنسبة لأرباب الأحوال أن (الرخصة فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال ، وهؤلاء الطائفة (= الصوفية) ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل إذا انحطّ الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى ، ونقض عهده فيما بينه وبينه سبحانه) الرسالة ص ١٩٩ .

« ويتوب عليكم » أمّا أنتم فأتوب عليكم ، أمّا من تقدّم فلقد دمّرتُ عليهم .

ويقال « يريد الله ليبيِّن لكم » : أي يكاشفكم بأسراره فيظهر لكم ماخفى على غيركم .

ويقال يريد الله ليبيِّن لكم انفرادَه — سبحانه — بالإيجاد والإبداع ، وأنه ليس لأحد شيء .

« ويهديكم سنن الذين من قبلكم » طريقة الأنبياء والأولياء وهو التفويض والرضاء ، والاستسلام للحكم والقضاء .

وقيل « ويتوب عليكم » أى يتقبَّلُ توبتكم بعدماخلَقَ توبتكم ، ثم يُثيبُكم على ما خلق لكم من توبتكم [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد اللهُ أن يخفِّفَ عنكم وخُلِق الإنسان ضعيفاً ﴾.

عزل بهذا الحديث حديث الأولين والآخرين .

ومن أراد اللهُ توبتَه فلا يُشمِتُ به عدوًّا ، ولا يناله فى الدارين سوء .

« ويريد الذين يتّبعون الشهواتِ . . » : إرادتهم منكوسة ، وهى عند إرادة الحق — سبحانه — ضائعة مردودة .

« ويريد الله أن يُخفِّف عنكم » : يعنى ثقل الأوزار بمواترة الأوراد إلى قلوبكم ، ويقال يريد الله أن يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يلج لقلوبكم من أنوار المشاهدات .

ويقال يريد الله أن يخفف عنكم أتعاب الخدمة بحلاوة الطاعات .

ويقال يخفف عنكم كلف الأمانة بحملها عنكم .

---

(١) واضح من هذا الكلام أن الفضل كله لله ؛ هو الذى يخلق توبة العبد وهو الذى يثيبه على توبته ، وقد ربطنا بين هذا وبين ما ذكره القشيرى عند (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) التى جاء ذكرها فيما سبق (المجلد الأول من هذا الكتاب ص ٢٢٨) .

ويقال يخفف عنكم أتعاب الطلب بروْح الوصول .

« وخلق الإنسان ضعيفاً » : وُصف بهذا فقرهم وضُرّهم ، و (. . .)[1] بها عذرهم .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسَكم إنَّ الله كان بكم رحيماً * وَمَنْ يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فَسوف نُصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

كل نفقة كانت لغير الله فهى أكل مالٍ بالباطل .

ويقال القبض إذا كان على غفلةٍ ، والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة[2] ، فكل ذلك باطل ، « ولا تقتلوا أنفسكم » : يعنى بارتكاب الذنوب ، ويقال تعريضها لمساخطته سبحانه . ويقال بنظركم إليها وملاحظتكم إياها .

ويقال باستحسانكم شيئاً منها بإيثارها دون رضاء الحق .

ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فإنَّا لانُخليه من عقوبة شديدة ، وهو أن نَكِلَها إلى صاحبها ، ونلقى حبْلَها على غاربها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تَجتَنِبُوا كبائر ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّر عنكم سيئاتِكم ونُدْخِلْكم مدخلا كريماً﴾ .

الكبائر — على لسان العلم — ها هنا الشِّرْكُ بالله ، وعلى بيان الإشارة أيضاً الشِّرْكُ

---

(١) مشتبهة .

(٢) والبذل إذا لم يكن بمشهد الحقيقة ، أى لو كان ما تبذله وأنت تشهد نفسك دون أن تشهد الحق ، فهو عمل ضائع ، لأنك حينئذ ستحسب قدْراً لنفسك .

الخفيّ . ومن جملة ذلك ملاحظة الخلْق ، واستحلاء قبولهم ، والتودد إليهم ، والإغماض على حق الله بسببهم[1] .

ويقال إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة[2] الحد فهو بعيد عن التكفير .

ويقال أكبر الكبائر إثباتُك نَفْسَكَ فإذا شاهدت نَفْيَها[3] تَخَلَّصْتَ[4] من أسْر المحن . « وندخلكم » فى أموركم « مدخلا كريماً » إدخالاً حسناً لا تروْن منكم دخولكم ولا خروجكم وإنما تروْن المُصَرِّفَ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَتَمَنَّوْا ما فضَّلَ اللهُ به بعضكم على بعضٍ ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبْن ، واسألوا الله من فضلِه ، إنَّ اللهَ كان بكلِّ شىءٍ عليماً ﴾ .

لسان المعاملة أن الأمر بالتعنى لا بالتمنى ، ولسان التوحيد أن الأمر بالحُكْم والقضاء لا بالإرادة والمنى . ويقال اسلكوا سبيل من تقدَّمكم فى قيامكم بحق الله ، ولا تتعرضوا لنَيْلِ ما خُصُّوا به من فضل الله . قوموا بحقِّ مولاكم ولا تقوموا بمتابعة هواكم واختيار مناكم .

ويقال لا تتمنوا[5] مقام السادة دون أن تسلكوا سُبُلَهُم ، وتلازموا سيرهم ، وتعملوا عملهم .. فإن ذلك جَوْرٌ من الظن .

ويقال كن طالب حقوقه لا طالب نصيبك على أى وجه شئت : دنيا وآخرة (وإلاَّ)[6] أشركتَ فى توحيدك من حيث لم تشعر .

---

(١) ربما يشترك كثير من الباحثين فى هذا الرأى مع القشيرى ولكنه عند أهل الملامة عنصر أساسى وخطير فى تعاليمهم ، حيث يزيد إلى درجة استجلاب سخط الناس ولومهم للعبد .

(٢) وردت (بالراء) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى إن الله يغفر مجاوزة الحد على شرط سلامة العهد وعدم الشرك .

(٣) وردت (ففيها) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت بالتاء المربوطة لا المفتوحة وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت بالهاء لا بالميم والصحيح أنها بالميم ويتأيد ذلك بقوله بعد قليل (لا تتمنّ مقامات الرجال) .

(٦) إضافة منا ليستقيم المعنى ، إذ واضح أنها سقطت من الناسخ .

ويقال لا تتمنَّ مقامات الرجال فإنَّ لكل مقام أهلاً عند الله ، وهم معدودون ؛ فما لم يمت واحد منهم لا يورَّث مكانه غيرُه ؛ قال تعالى : « جعلكم خلائف » والخليفة من يخلف من تقدَّمه ، فإذا تَمَنَّيْتَ مقام وليٍّ من الأولياء فكأنَّكَ استعجلتَ وفاتَه ؛ على الجملة تمنيت أو على التفصيل ، وذلك غير مُسَلَّم .

ويقال خمودُك تحت جريان حكمه — على ما سبق به اختياره — أَحْظَى لكَ من تعرضك لوجود مناك ، إذ قد يكون حتفك فى مُنيتك .

ويقال مَنْ لم يؤدِّب ظاهرهُ بفنون المعاملات ، ولم يهذِّب باطنه بوجوه[1] المنازلات فلا ينبغى أن يتصدَّى لنيْل المواصلات ، وهيهات هيهات متى يكون ذلك !

« واسألوا الله من فضله » : الفرق[2] بين التمنى وبين السؤال من فضله من وجوه : يكون التمنى للشيء مع غفلتك عن ربك ؛ فتتمنى بقلبك وجود ذلك الشيء من غير توقعه من الله ، فإذا سألتَ الله فلا محالةَ تذكره ، والآخر أن السائل لا يرى استحقاق نفسه فيَحْمِلُه صِدْقُ الإرادة على التملُّق والتضرع ، والمتمنى يخلو عن هذه الجملة .

والآخر أن الله نهى عن تمنى ما فضل الله به غيرك إذ معناه أن يسلب صاحبَك ما أعطاه ويعطيك إياه ، وأباح السؤال من فضله بأن يعطيك مثل ما أعطى صاحبك .

ويقال لاتتمنَّ العطاء وسَلْ الله أن يعطيك من فضله الرضا بِفَقْدِ العطاء وذلك أتمُّ من العطاء ، فإنَّ التَّحرُّرَ من رِقِّ الأشياء أتمُّ مِنْ تَمَلُّكِها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوالِدان والأقربون والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُم فآتوهم نصيبَهم إنَّ اللهَ كان على كُلِّ شيءٍ شهيداً ﴾ .

جعل المعاقدة فى ابتداء الإسلام نظيرةَ النَّسَبِ فى ثبوت الميراث بها فَنَسَخَ حكم الميراث

(١) وردت (برجوده) والصواب أن الدال زائدة ليتلاءم المعنى مع (فنون) كذلك فإن (بوجوده المنازلات) غير مستقيمة .

(٢) لاحظ كيف تثرى بحوث القشيرى التى من هذا القبيل علوم اللغة والبلاغة .

وبقى حكم الاحترام ، فإذا كانت المعاقدة بين الناس بهذه المثابة فما ظنك بالمعاهدة مع الله ؟ . قال الله تعالى : « رجالٌ صدَقُوا ما عاهدوا الله عليه » وأنشدوا :

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيَّةَ منهلاً معسولاً

قوله جل ذكره : ﴿ الرجال قَوَّامُون على النِّساءِ بما فَضَّلَ الله بعضهم على بعضٍ ، وبما أنفقوا مِنْ أمْوَالِهِم ، فالصَّالحات قانِتَاتٌ حافِظاتٌ للغَيْبِ بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعِظُوهُنَّ واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إنَّ الله كان عَليًّا كبيراً ﴾ .

خصَّ[1] الرجال بالقوة فزيد بالحِمْل عليهم ؛ فالحِمْل على حسب القوة . والعبرة بالقلوب والهمم لا بالنفوس والجثث .

قوله : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهنَّ » : أى ارتقوا فى تهذيبهن بالتدريج والرفق ، وإنْ صَلُحَ الأمر بالوعظ فلا تستعمل العصا بالضرب ، فالآية تتضمن آداب العِشْرة .

ثم قال : « فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » : يعنى إن وَقَفَتْ فى الحال عن سوء العشرة (. . . . .)[2] ورجعتْ إلى الطاعة فلا تَنْتَقِمْ منها عمَّا سَلَفَ ، ولا تمتنع من قبول عذرها والتأبى عليها .

يقال : « فلا تبغوا عليهن سبيلاً » بمجاوزتك عن مقدار ما تستوجب[3] من تقمنك .

---

(١) جاءت (حضَّ) أى أخطأ الناسخ فنقل نقطة الخاء إلى الضاد .
(٢) هنا ثلاث كلمات زائدة وضع الناسخ علامة مميزة للتنبيه على ضرورة حذفها لتكرارها بدون داع .
(٣) أى تستحق المرأة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ خِفْتُم شِقاقَ بَيْنِهما فابعثوا حَكَماً مِنْ أهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أهْلِها إنْ يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إنَّ اللهَ كان عليماً خبيراً ﴾ .

يقال لَكَ عليها الطاعة بالبدن ، فأمَّا المحبة والميل إليك بالقلب فذلك إلى الله ، فلا تكلِّفها مالا يرزقك الله منها ؛ فإن القلوب بقدرة الله ، يُحبِّبُ إليها من يشاء ، ويُبَغِّضُ إليها من يشاء .

ويقال « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » أي لا تنْسَ وفاءها في الماضي ببادر[1] جفاءٍ يبدو في الحال فربما يعود الأمر إلى الجميل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعبدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا به شيئاً وبالوالدين إحْساناً وبذِي القُربى واليتامَى والمساكينِ والجارِ ذي القربى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحبِ بالجَنْبِ وابنِ السبيل وما مَلَكَتْ أيْمانُكم . إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كان مُخْتالاً فخوراً * الذين يبخلون ويأمُرون النَّاسَ بالبُخْلِ ويكتُمون ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضْلِه وأعْتَدْنا للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾

قوله « واعبدوا الله » : العبودية معانقة الأمر ومفارقة الزجر[2] .

« ولا تشركوا » الشِّركُ جَلِيُّه اعتقادُ معبودٍ سواه ، وخَفِيُّه : ملاحظةُ موجودٍ سواه ،

---

(١) لا نستبعد أنها ربما كانت في الأصل (ببادر) والمعنى يتقبل (نادر) و (بادر) فكلاهما يدل على قدر من الجفاء لا يستحق الاهتمام ويستوجب العفو .
(٢) أي طاعة ما أمرك به وترك ما نهاك عنه .

والتوحيد أن تعرف أنَّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ بالله ، قائمةٌ به ؛ فهو مجريها ومنشيها ومبقيها ، وليس لأحدٍ ذرة ولا شظية ولا شينة ولا شمة من الإيجاد والإبداع .

ودقائق الرياء وخفايا المصانعات وكوامن الإعجاب والعمل على رؤية الخلْق ، واستحلاء مدحهم والذبول تحت ردّهم وذمِّهم — كلُّ ذلك من الشِّرْكِ الخفِّى .

قوله : « وبالوالدين » الإحسان إلى الوالدين على وجه التدريج إلى صحبة فإنك أُمِرْتَ أولاً بحقوقهما لأنهما من جِنْسِك ومنهما تربيتك ، ومنهما تصل إلى استحقاق زيادتك وتتحقق بمعرفتك . وإذا صَلُحْتَ للصحبة والعِشْرة مع ذوى القربى والفقراء والمساكين واليتامى ومن فى طبقتهم — رُقِّيتَ عن ذلك إلى استيجاب صحبته — سبحانه .

قوله : « والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب . . . الآية » من جيرانك (. . . .)[1] فلا تؤذها بعصيانك ، وراعِ حقهما بما تُولِي عليهما من إحسانك .

فإذا كان جار دارك مستوجباً للإحسان إليه ومراعاة حقه فجارُ نفسِك — وهو قلبك — أَوْلى بألا تضيِّعه ولا تغفُلَ عنه ، ولا تُمكِّنَ حلول الخواطر الرديئة به .

وإذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك — وهو روحك — أَوْلى أن تحامىَ على حقِّها ، ولا تُمكِّن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها . وجار روحك — وهو سِرُّك — أَوْلى أن ترعى حقّه ، فلا تُمكِّنه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

قوله : « وهو معكم أينما كنتم » الإشارة منه غير ملتبسة على قلوب ذوى التحقيق .

قوله : « الذين يبخلون . . . الآية » : البخل على لسان العلم منع الواجب ، وعلى بيان الإشارة ترك الإيثار فى زمان الاضطرار . وأمرُ الناسِ بالبخل معناه مَنْعُهم عن مطالبات الحقائق فى معرض الشفقة عليهم بموجب الشرع ، وبيان هذا أن يقع بلسانك الانسلاخ عن العلائق وحذف فضولات الحالة فمَن نصحه بأن يقول : «ربما لا تقوَى على هذا ، ولأن تكون مع معلومك الحلال أولى بأن تصير مكدياً ، وربما تخرج إلى سؤال الناس وأن تكون كَلَّاً على

(١) مشتبهة .

المسلمين — ويَرْوِى له فى هذا الباب الأخبار والآثار أمثالَ هذا . . . . . » فلولا بُخْلُه[1] المستكن فى قلبه لأعانه بهمته فيما يسنح لقلبه[2] بَدَلَ أن يمنع عنه ما(يجب أن) يقول فى معرض النصح . ومن كانت هذه صفته أدركه عاجل المقت حيث أطفأ شرر إرادة ذلك المُسْتَضْعَف بما هو عند نفسه أنه نصيحة وشفقة فى الشرع .

وقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » : إن كان الله أغناهم عن طلب الفضيلة بما خوَّلهم وآتاهم كتموا ذلك طمعاً فى الزيادة على غير وجه الإذن .

ويقال يكتمون ما آتاهم الله من فضله إذا سألهم مريدٌ شيئاً عندهم فيه نجاته ، وضنّوا عليه بإرشاده .

ويقال بخل الأغنياء بمنع النعمة ، وبُخْلُ الفقراء بمنع الهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس
ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِرِ
ومَنْ يكُنْ الشيطانُ له قريناً فَسَاَء
قرينا ﴾

أدخل هؤلاء أيضاً تحت قوله : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » فعقوبتهم فى العاجل أنهم ليسوا من جملة مُحِبِّيه ، وكفى بذلك محنة .

والمختال الذى ينظر إلى نفسه والمرائى الذى ينظر إلى أبناء جنسه ، وكلاهما مُسَوَّمان بالشرك الخفىّ والله لا يحب المشركين . والفخور من الإبل كالمصراة من الغنم وهو الذى سُدَّت أخلافه ليجتمع فيها الدَّرّ[3] فيتوهم المشترى أن جميع ذلك معتاد لها وليس كذلك ، فكذلك الذى يرى من نفسه حالاً ورتبة وهو فى ذلك مدعٍ وهو الفخور ، والله لا يحبه ، وكذلك المرائى الذى ينفق ماله رئاء الناس .

---

(١) حاول بعضهم أن يصححها فى الهامش فظن أن صوابها (نجمله) والصحيح أنها (بخله) .
(٢) يستعمل القشيرى الفعل (يسنح) للدلالة على ما يرد القلب من خواطر قد تصبح هواجس فتشده نحو العلائق والخلائق ، وقد تكون إلهاماً من قبل الحق سبحانه فتهديه السبيل .
(٣) الدَّرّ = اللبن الغزير .

قوله جل ذكره : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخرِ وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً ﴾

ليس فى إيمانهم بالله عليهم مشقة ، بل لو آمنوا لوصلوا إلى عِزِّ الدنيا والآخرة ، ولا يحملهم على الإعراض عنه إلا قلة الوفاء والحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يَظْلِمُ مثقال ذرة وإنْ تَكُ حسنة يضاعفها ويُؤْتِ مِنْ لَدُنه أجراً عظيماً ﴾

لا ينقص من ثوابهم شيئاً بل يبتدئهم — من غير استحقاقهم — بفضله ، ويضاعف أجورَهم على أعمالهم ، فأمَّا الظلم فمحالٌ تقديره فى وصفه لأن الخلقَ خلْقُه ، والمُلْكَ ملْكه . والظالم من يعتدى حداً رُسِمَ له — وهو فى وصفه مُحال لِعزِّه فى جلال قدره .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ وجِئْنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوا الرسولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الأرضُ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾

إذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — الشهيد على أمته ، وهو الشفيع لهم ، فإنما يشهد بما يُبْقى للشفاعة موضعها .

قوله تعالى : « يومئذ يود الذين كفروا . . . . » الآية : يحصلون على ندمٍ ثم لا ينفعهم ، ويعضون على أناملهم ثم لا يسكن عنهم جزعهم ، فيتقنعون بِخِمار الذُّل ، وينقلبون إلى أوطان المحن[1] والضر .

---

(١) وردت (المحسن) والسين زيادة من الناسخ والصواب (المحن) .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة
وأنتم سُكَارى حتى تعلموا ما تقولون
ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل حتى
تغتسلوا ، وإنْ كنتم مرضى أو على
سَفَرٍ أو جاء أحَدٌ منكم مِنَ الغائط
أَوْ لامستُم النِّساء فلَمْ تجدوا ماءً
فَتَيَمَّمُوا صعيداً طيباً فامسحوا
بوجوهكم وأيديكم إنَّ اللهَ كان عفُواً
غفوراً ﴾

النَّهيُ عن موجب السكر من الشراب لا من الصلاة ، أي لا تصادفنكم الصلاة وأنتم بصفة السُّكْر ، أي امتنعوا عن شُرْبِ ما يُسْكِر فإنكم إن شربتم سكرتم ، ثم إذا صادفكم الصلاة على تلك الحالة لا تُقْبَل منكم صلاتكم .

والسُّكْر ذهاب العقل والاستشعار ، ولا تَصحُّ معه المناجاة مع الحق .

المُصَلِّى يناجى ربَّه ؛ فكلٌّ ما أوجب للقلب الذهول عن الله فهو ملحق بهذا من حيث الإشارة ؛ ولأجل هذه الجملة حَصَلَ ، والسُكْرُ على أقسام :

فسُكْرٌ من الخمر وسُكْرٌ من الغفلة لاستيلاء حب الدنيا .

وأصعب السكر سكرك من نفسك فهو الذى يلقيك فى الفرقة عنه ، فإنَّ مَنْ سَكِرَ من الخمر فقصاراه الحرقة — إن لم يغفَرْ له . ومن سكر من نفسه فحاله الفرقة — فى الوقت — عن الحقيقة .

فأمَّا السُكْر الذى يشير إليه القوم[1] فصاحبه محفوظٌ عليه وقته حتى يصلي والأمر مخفف عليه : (فإذا خرج عن الصلاة هجم عليه غالبُه فاختطفه عنه ومن لم يكن محفوظا)[2] عليه أحكام الشرع (فمشوبٌ بحظٍّ)[3] .

---

(١) أى السكر عند الصوفية .

(٢) هذا الذى بين قوسين مستدرك فى هامش الصفحة وضعناه فى موضعه من النص .

(٣) (فمشوب بحظ) وضعنا هاتين اللفظتين هنا مستفيدين من أقوال القشيرى فى مواضع مناظرة =

وقوله تعالى : « ولا جُنُباً إلا عابرى سبيل . . . الآية » : أذن للمضطر أن يترخَّص فى عبور المسجد وهو على وصف الجنابة ، فإذا عرج زائداً على قدر الضرورة فمُعَاتَبٌ غيرُ معذور ، وكذلك فيما يحصل من معاذير الوقت فى القيام بشرائط الوقت فمرفوعةٌ عن صاحبه المطالبة به .

ثم إنه — سبحانه — بفضله جعل التيمم بدلاً من الطهارة بالماء عند عَوَزِ الماء كذلك النزولُ إلى ساحات الفَرْقِ عن ارتقاء ذرة[1] الجمع — بِقَدْر ما يحصل من الضعف — بَدَلٌ لأهل الحقائق .

ثم إن التيمم — الذى هو بَدَلُ الماء — أعمُّ وجوداً من الماء ، وأقلُّ استعمالاً من الأصل ، فإن كل من كان أقرب كانت المطالبات عليه أصعب .

ثم فى الظاهر أمَرْنا باستعمال التراب وفى الباطن باستشعار الخضوع واستدامة الذبول[2] .

وردَّ التيمم إلى التقليل ، وراعى فيه صيانةً لرأسك عن التُّراب ولقدَمِك ؛ فإنَّ العزَّ بالمؤمن — ومولاه باستحقاق الجلال — أوْلى من الذل لِمَا هو مفلس فيه من الحال ، ولئن كان إفلاسه عن أعماله يوجب له التذلُّل فعرفانُه بجلال سيِّده يوجب كل تَعزُّزٍ وتَجمُّل .

قوله جل ذكره ﴿ ألم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أنْ تضلوا السبيل * واللهُ أعلمُ بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيرا * مِنَ الذين هادوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سَمِعْناَ وعَصَيْنا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ ورَاعنا لَيّاً بألسنتهم

═ فى مصنفاته الأخرى ، وذلك نظراً لانبهام الكلمتين هنا لرداءة خط الناسخ (انظر حديث القشيرى عن السكر فى الرسالة ص ٤١) .

(١) نرجح أنها فى الأصل (ذروة الجمع) وأن الواو قد سقطت من الناسخ .

(٢) لأن فيه تذكيراً للانسان بأصله .

وطَعْناً فى الدِّين ، ولو أنَّهم قالوا
سَمِعْناَ وأَطَعْنا واسْمَعْ وانظُرْنا
لـكان خيراً لهم وأقْوَمَ ولـكِن
لَعَنَهُم اللهُ بكُفرِهم فلا يؤمنون
إلا قليلاً ﴾

ومكروا مكراً ولم يشعروا وجهة مكرهم أن أُعطُوا الـكتابَ ثم حُرِمُوا بركاتِ الفهم حتى حرَّفوا وأصَرُّوا .

قوله : « من الذين هادوا . . . » الآية : تركوا حشمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورفضوا حرمته ، فعوقبوا بالشك فى أمره ، ولذلك لم يترك أحد حشمته (محتشم)[1] إلا حيل بينه وبين نيل بركات صحبته وزوائد خدمته . ولو أنهم عاجلوا فى نفى ما دَاخَلهَم من الحسد وقابلوا حاله بالتبجيل والإعظام لوجدوا بركات متابعته ، فأُسْعِدوا به فى الدارين ، وكيف لم يكونوا كذلك وقد أقصتهم السوابق فأقعدتهم القسمة عن بساط الخدمة ؟ وإنَّ مَنْ قعدت به الأقدار لم ينهض به الاحتيال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين أوتوا الـكتابَ آمنوا
بما نَزَّلنا مُصَدِّقـاً لِماَ معكم مِنْ قبل
أن نَطْمِسَ وجوهاً فَنَرُدَّها على
أدبارها أو نلعنهم كما لَعَنَّا أصحابَ
السَّبْتِ وكان أمرُ الله مفعولا ﴾

صرف القلوب عن الإرادة إلى أحوال أهل العادة حتى كانت دواعيه يتوفر فى رفض الدنيا فعاد لا يصبر عن جمعها[2] ومنعها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويغفر

---

(١) نرجح أن هذه الـكلمة زائدة من الناسخ ، أو ربما كان الأصل (حشمةَ مُحْتَشِمٍ) .
(٢) وردت (جيمها) وهى خطأ فى النسخ .

ما دون ذلك لِمَنْ يشاء ، وَمَنْ يشرِكْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾

العوام طولبوا بترك الشِرْكِ الجلىّ ، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفىّ ، فمن توسَّل إليه بعمله ويظنه منه ، أو توَّهم أن أحكامه — سبحانه — معلولة بحركاته وسكناته ، أو راعى خَلْقاً أو لاحظ نَفْساً فوطنه الشرك عند أهل الحقائق[1] .

والله لا يغفر أن يُشرَكَ به وكذلك من توَّهم أن مخالفته حصلت من غير تقديره فهو ملتحق بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أنْفُسَهم بل اللهُ يُزَكِّى من يشاء ولا يُظلمون فتيلا * أُنظرْ كيف يَفْتَرون على الله الكَذِبَ ، وكَفَى به إثماً مُبيناً ﴾

مَنْ ركن إلى تزكية الناس له ، واستحلى قبول الخواص له — فضلاً عن العوام — فهو من زكَّى نفْسه ، ورؤية النَّفْس أعظم حجاب ، ومن توَّهم أنه بتَكَلُّفِه يزكِّى نفسه : بأوراده أو اجتهاده ، بحركاته أو سكناته — فهو فى غطاء جهله .

قوله : « انظر كيف يفترون . . . . » الآية : الإشارة إلى من أطلق لسان الدعوى من غير تحقيق ، والمُفْتَرِى — فى قالته فى هـذا الأمر — لا ينطق بشىءٍ إلا أجبَّته الآذان وانزجرت له القلوب ، فإذا سكت عاد إلى قلب خراب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا

---

(١) يقول زكريا الأنصارى شارح الرسالة : « من كانت أفعاله لله تعالى وشاهدها طاعة له تعالى فهو فى التفرقة ومن شاهدها جارية عليه فضلا من الله فقد شاهدها بالله فهو فى الجمع (هامش ٣٩) .

سبيلا * أولئك الذين لعنَهم اللهُ ، ومَنْ يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً ﴾

طاغوتُ كلِّ أحدٍ نَفْسُه وهواه وجِبْتُه و (. . . . .)[1] مقصوده من الأغيار ، فمن لاحظ شخصاً أو طالع سبباً أو عرَّجَ على عِلَّةٍ أو أطاع هوىً ، فذلك جبته وطاغوته . وأصحاب الجبت والطاغوت يستوجبون اللعن ؛ وهو الطرد عن بساط العبودية ، والحجاب عن شهود الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لهم نصيب من المُلْكِ فإذاً لا يُؤْتونَ الناسَ نقيراً * أَمْ يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم الله مِنْ فضلِه فقد آتينا آل إبراهيمَ الكتابَ والحِكمةَ وآتيناهم مُلْكاً عظيماً * فمنهم مَنْ آمن به ومنهم مَنْ صدَّ عنه وكفى بجهنَّمَ سعيراً ﴾

مَنْ جُبِلَ على الشُّحِّ لا يزداد بسعة يده إلا تأسفاً على راحةٍ ينالها الخلْق، كأنَّ مَنْ شَرِبَ قطرةَ ماءٍ قد تحسَّى بل رَشَفَ من ماء حياته !

قوله : « أم يحسدون الناس . . . . » : بل ينكرون تخصيص الحق سبحانه لأوليائه بما يشاء حسداً من عند أنفسهم فلا يقابلونهم بالإجلال ، وسُنَّةُ الله سبحانه مع أوليائه مضت بالتعزيز والتوقير لهم . ودأبُ الكافرين جرى بالارتياب فى القدرة ؛ فمنهم من آمن بهم ، ومنهم من ردَّ ذلك وجحد ، وكفى بعقوبة الله منتقماً عنهم .

قوله : « وآتيناهُمْ ملكا عظيماً » : المُلْك العظيم معرفة المَلِك ، ويقال هو المُلْكُ على النَّفس .

---

(1) مشتبهة .

ويقال الإشراف على أسرار المملكة حتى لا يخفى عليه شىء .
ويقال الاطلاع على أسرار الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بَدَّلْناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العذاب * إنَّ اللهَ كان عزيزاً حكيماً ﴾

الإشارة منه إلى الجاحدين لآيات الأولياء ، يُقيمهم بوصف الصغار ويبقيهم فى وحشة الإنكار[1] ، كلَّما لاح لقلوبهم شىء من هذه القصة[2] جَرَّهم إنكارُهم إلى ترك الإيمان بها والإزراء بأهلها على وجه الاستبعاد ، فهم مؤبدة عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات سندخلهم جنَّاتٍ تجرى مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواجٌ مُطَهرة ونُدْخِلُهم ظِلاًّ ظليلاً ﴾

هم اليوم فى ظل الرعاية ، وغداً فى ظل الحماية والكفاية ، بل هم فى الدنيا والعقبى فى ظل العناية .

والناس فى هذه الدنيا متفاوتون : فمنهم من هو فى ظل رحمته ، ومنهم من هو فى ظل رعايته ، ومنهم من هو فى ظل كرامته ، ومنهم من هو فى ظل عنايته ، ومنهم من هو فى ظل قربته .

---

(١) وردت (الأفكار) بالفاء والصواب — حسب المعنى والسياق — وكما جاء بعد قليل فى (وجرهم إنكارهم) أن تكون (الإنكار) .

(٢) يقصد من (القصة) : التصوف وأهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يأمركم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناسِ أنْ تحكُمُوا بالعدلِ * إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظكم به إنَّ اللهَ كان سميعاً بصيراً ﴾

ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال[1] الخلْق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم .

ويقال لله — سبحانه وتعالى — أماناتٌ وَضَعَها عِنْدكَ ، فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله — سبحانه — سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها ؛ فالخيانة فى أمانة القلب ادعاؤك فيها ، والخيانة فى أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها .

والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب والبعيد فى العطاءوالبذل، وألا تحملَك مخامرةُ حقدٍ على انتقامٍ لنفسٍ .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولِي الأمْرِ منكم فإنْ تنازَعْتم فى شىءٍ فَرُدُّوه إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخِرِ ذلك خيرٌ وأحْسَنُ تأويلا ﴾ .

قَرَنَ طاعته بطاعة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تفخيماً لشأنه ورفعاً لِقَدْرِه .

وأمَّا أولو الأمر — فعلى لسان العلم — السلطان ، وعلى بيان المعرفة العارفُ ذو الأمر على المستأنف ، والشيخُ أولو الأمر على المريد ، وإمامُ كل طائفة ذو الأمر عليهم .

---

(١) وردت (أحوال) والصواب أنها (أموال) لأن الأحوال لا تكون ودائع للناس عندك بل أموالهم

ويقال الولى أولى بالمريد (من المريد)[1] للمريد.

قوله: «فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله» على لسان العلم — إلى الكتاب والسُّنَّة، وعلى بيان التوحيد فوَّض ذلك ووَكَلَ علمَهُ إلى الله سبحانه، وإذا اختلف الخاطران فى قلب المؤمن فإن كان له اجتهاد العلماء تأمل ما يسنح لخاطره بإشارة فهمه، ومن كان صاحب قلب وَكَلَ ذلك إلى الحق — سبحانه — وراعى ما خوطب به فى سرائره، وأُلْقِيَ — بلا واسطة[2] — فى قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعُمُون أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليْكَ وما أُنْزِلَ من قبلِك يريدون أن يَتَحاكَموا إلى الطَّاغوتِ وقد أُمِرُوا أنْ يكفروا به ويريدُ الشيطانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بعيداً ﴾.

أظهروا الإخلاص، ونافقوا فى السِّر، ففضحهم — سبحانه — على لسان جبريل عليه السلام بقوله: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به» أى يرفضوه. فمن حاد عن طريقه ورجع إلى غير أستاذه استوجب الحرمان والذم.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذا قِيلَ لهم تعالَوْا إلى ما أنزل اللهُ وإلى الرسولِ رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدوداً ﴾.

كل شىء سوى كلمة الحق فهو خفيف على المنافقين، فأمّا التوحيد فلا يسمع كلمته إلا مخلص، وأهل الفترة فى الله وأصحاب النفرة لا يسمعون ما هو الحق؛ لأن خلافَ الهوى يَشُقُّ على غير الصديقين. وكما أن ناظرَ الخلْق[3] لا يقوى على مقابلة الشمس فكذلك

(١) هذا استدراك موجود فى هامش الصفحة أثبتناه فى موضعه من النص.

(٢) تامل جيدا (بلا واسطة) فهذا وصف هام للمعرفة عند الصوفية، يميزها ويكشف جوهرها.

(٣) أى العين.

المنافقون لم يطيقوا الثبات له — صلى الله عليه وسلم — فلذلك كان صدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ .

تضرعُ غير المخلص عند هجوم الضُّر[1] لا أصل له ، فلا ينبغي أن يكون به اعتبار لأن بقاءه إلى زوال المحنة ، والمصيبة العظمى ترك المبالاة (بما يحصل من التقصير)[2] .

ويقال من المصيبة أن يمحقك وقتك فيما لا يجدى عليك[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ .

أبسُطْ لهم لسانَ الوعظِ بمقتضى الشفقة عليهم ، ولكن انقبِضْ بقلبك عن المبالاة بهم والسكون إليهم ، واعلم[4] أن من لا نكون نحن له لا يغنى عنه أنْ تعينه[5] شيئاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليُطَاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

ما أمَرْنا الرسلَ إلاَّ بدعوة الخلْقِ إلينا .

---

(١) وردت (الضرورة) والصواب (الضر) فالمعنى يقتضى ذلك ويؤيد أن الخطأ في النسخ .

(٢) ما بين قوسين تكملة وجدناها ضرورية لتوضيح المعنى فاستفدنا مما جاء فى موقف مشابه فى الرسالة ص ٣٤ حيث يقول (وترك المبالاة بما يحصل منك من التقصير خروج عن الدين) .

(٣) من أقوالهم فى الوقت : الوقت مبرد يسحقك ولا يمحقك ، والوقت سيف فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب .

(٤) وردت (ما علم) وهى خطأ فى النسخ ، وربما كانت (فاعلم) فى الأصل واشتبهت على الناسخ .

(٥) (أن تعينه) المصدر المؤول من ان والفعل (أى عونك له) يقع فاعلا للفعل (يغنى) .

وقوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » . لو جعلوك ذريعتهم لوصلوا إلينا ، ويقال لو لازموا التذلل والافتقار وركبوا مطية الاستغفار لأناخوا بعقوة المبار .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك
فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا فى
أنفسهم حرجاً مما قضيت ،
ويُسَلِّمُوا تسليماً ﴾ .

سَدَّ الطريق — إلى نفسه — على الكافة إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فمَنْ لم يمشِ تحت رايته فليس له من الله نفس .

ثم جعلَ مَن شرط الإيمان زوال المعارضات بالكلية بقلبك .

قوله : « ثم لا يجدوا . . . » : فلابُدَّ لك من (. . .)[1] تلك المهالك بوجه ضاحك ، كما قال بعضهم :

وحبيبٍ إنْ لم يكن منصفاً كنتُ منصفا ... أتحسّى له الأَمَرَّ وأسقيه ماصفا
إن يقل لى اِنشقَّ اختَرتُ رضاً لا تَكلُّفا

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّا كتبنا عليهم أنْ اقتلوا أنْفُسَكُم
أو اخرجوا مِنْ دياركم ما فعلوه
إلا قليلٌ منهم ، ولو أنَّهم فعلوا
مايُوعَظُون به لكان خيراً لهم وأشدَّ
تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم مِنْ لَدُنَّا أجراً
عظيماً * ولهديناهم صِراطاً مستقيما ﴾

أخبر عن سُقْم إخلاصهم وقوة إفلاسهم ، ثم أخبر الله بعلمه بتقصيرهم .

خلاهم عن كثير من الامتحانات ثم قال ولو أنهم جنحوا إلى الخدمة، وشدُّوا نطاق الطاعة

---

(١) هنا كلمة ناقصة ربما كانت (مواجهة) أو (مقابلة) تلك المهالك بوجه ضاحك .

لكان ذلك خيراً لهم من إصرارهم على كفرهم واستكبارهم . ولو أنهم فعلوا ذلك لآتيناهم من عندنا ثواباً عظيماً ، ولأرشدناهم صراطاً مستقيماً ولأوليناهم عطاء مقيماً .

والأمر — على بيان الإشارة — يرجع إلى مخالفة الهوى وذبح النفوس بمنعها عن المألوفات ، والخروج من ديار (تقبل النفس)(١) ، ومفارقة أوطان (إرادة)(٢) الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُطِعْ اللهَ والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِدّيقين والشُهداءِ والصَّالحين وحَسُنَ أُولئك رفيقاً * ذلك الفضلُ من الله وكفى بالله عليماً ﴾

جعل طاعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — مفتاحَ الوصول إلى مقامات النبيين والصديقين والشهداء على الوجه الذى يصحُّ للأُمة وكفى له عليه السلام بذلك شرفاً .

ثم قال : « ذلك الفضل من الله » : جرَّد عليهم محلّهم عن كل علة واستحقاق وسبب ؛ فإن مالاح لهم وأصابهم صرفُ فضله وابتداء كرمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حِذْرَكُم فانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جميعاً * وإنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فانْ أصابتكم مصيبةٌ قال قد أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيداً * وَلَئِنْ أصابكم فَضلٌ مِنَ اللهِ ليقولَنَّ كأن لَمْ تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كُنْتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيما ﴾ .

---

(١) وضع الناسخ (تقبل النفس) فى مكان خاطىء يبهم المعنى إذ وضعها قبل (على بيان الإشارة) والصواب أن تكون في مكانها الذى اخترناه حتى يستقيم السياق .

(٢) وردت (اراد) بدون همز للألف وبدون تاء مربوطة فاخترنا (إرادة) لملاءمتها للسياق .

الفرار إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين؛ فلا يجد القرار مع الله إلا من صدق فى الفرار إلى الله. والفرارُ من كل غَيْرٍ شأنُ كل مُوَحِّد.

قوله تعالى: «وإنَّ منكم لمن ليبطِّئن...» الآية: أى لم تستقر عقائدهم على وصفٍ واحد، فكانوا مرتبطين بالحظوظ؛ فإذا رأوا مكروهاً يَظَلُّ المسلمين شكروا وقالوا: الحمد الله الذى حفظنا من متابعتهم فكان يصيبنا ما أصابهم، وإنْ كانت لكم نعمة وخير سكنوا إليكم، وتمنوا أنْ لو كانوا معكم، خسروا فى الدنيا والآخرة: فَهُمْ لا كافرٌ قبيحٌ ولا مؤمنٌ مخلِصٌ.

قوله: «كأن لم تكن بينكم وبينه مودة»: يعنى طرحوا حشمة الحياة فلم يراعوا حرمتكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فى سبيل الله الذين يَشْرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة، وَمَنْ يُقَاتِلْ فى سبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نؤتيه أجْرَاً عظيما﴾.

مَنْ لم يَقْتُلْ نَفْسَه فى نَفْسِهِ لا يصحُّ جهادُه بنفسِهِ؛ فأولا (إخراج خطر الروح)[1] من القلب ثم تسليم النفس للقتل.

وقوله «فسوف نؤتيه أجراً عظيماً» يعنى بقاؤنا بعده خيرٌ له من حياته بنفسه لنفسه، قال قائلهم:

ألست لى عِوَضا منى؟ كفى شَرَفاً فما وراءك لى قصدٌ ومطلوب

قوله جل ذكره: ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجال والنِّساءِ والوِلدانِ الذين يقولون رَبَّنَا أَخْرِجنا مِنْ هذه القرية الظَّالِمِ أَهْلُها واجعل لنا مِنْ لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾

(١) هكذا فى النسخة (ص) وربما كان المقصود أنك لا تستطيع أن تبذل نفسك إلا إذا قويت على قهرها والتهوين من خطرها.

أى شىء يمنعكم عن القتال فى سبيل الله ؟ وما الذى لا يُرَغِّبُكُم فى بذل المهجة[1] لله ؟ وماذا عليكم لو بذلتم أرواحكم فى الله ولله ؟ أتخافون أن تخسِرُوا على الله ؟ أم لا تعلمون أنكم تُحشَرُون إلى الله ؟ فلِمَ لا تكتفون ببقائه بعد فنائكم فى الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آمنوا يقاتِلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطانِ إنَّ كَيْدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾

المخلصون لله لا يؤثِرُون شيئاً على الله ، ولا يضنون بشىء عن الله ، فهم أبداً على نفوسهم لأجل الله ، والذين كفروا على العكس من أحوال المؤمنين . ثم قوَّاهم وشجَّعهم بقوله : « فقاتلوا أولياء الشيطان » أى لا تُضمِرُوا لهم مخافة ، فأنى متوليكم وكافيكم على أعدائكم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيدِيَكم وأَقِيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ فلمَّا كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ خَشْيَةً وقالوا ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ علينا القِتالَ لولا أَخَّرْتَنا إلى أجلٍ قريب ﴾

أَخرِجُوا أيدِيَكُم عن أمورِكم ، وكِلُوها إلى معبودكم .

ويقال اقصروها عن أخذ الحرام والتصرف فيه .

ويقال امتَنِعُوا عن الشهوات .

ويقال « كفُّوا أيديكم » إلا عن رَفْعِها إلى الله فى السؤال بوصف الابتهال .

---

(١) وردت (المحجة) بالحاء وهذا خطأ فى النسخ وصوابها (المهجة) لملاءمتها للسياق .

فلمَّا كُتب عليهم القتال استثقلوا أمرَه ، واستعجلوا لطفَه . والعبودية فى تَرْكِ الاستثقال ، ونفى الاستعجال ، والتباعد عن التبرم والاستثقال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِمَنْ اتّقَ ولا تُظْلَمُون فتيلاً ﴾

مَكَّنَكَ من الدنيا ثم قال : « قل متاع الدنيا قليل » ، فلم يَعُدَّها شيئاً لك ثم لو تَصدَّقْتَ منها بِشقٍّ تمرةٍ لَتَخلَّصْتَ من النار ، وحظيت بالجنة ، وهذا غاية الكرم .

واستقلالُ الكثير من نفسك — لأجل حبيبك — أقوى أمارات صُحْبتك .

ويقال لما زَهَّدَهم فى الدنيا قلَّلَها فى أعينهم ليهون (عليها[1]) تركها .

ويقال قل متاعُ الدنيا بجملتها قليلٌ ، والذى هو نصيبك منها أقلُّ من القليل ، فمتى يناقشك لأجلها (بالتخلبل)[2] ، لو سَلِمَ عهدك من التبديل ؟

وإذا كانت قيمة الدنيا قليلة فأَخَسُّ من الخسيس مَنْ رَضِيَ بالخسيس بدلاً عن النفيس .

وقد اخْتَلَعَ المؤمن من الكون بالتدريج . فقال أولاً : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير » (فأحفظهم)[3] عن الدنيا بالعقبى ، ثم سلبهم عن الكونين بقوله : « والله خيرٌ وأبقى » .

قوله جل ذكره : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم فى بروج مُشَيَّدةٍ ، وإن تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه مِنْ عندِ اللهِ وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا هذه مِنْ عِندِك قُلْ كُلٌّ مِنْ عندِ الله فَماَ لِهؤلاءِ القومِ لا يكادون يَفْقَهُون حَدِيثاً ﴾

---

(١) الضمير فى (عليها) يعود على أعينهم ، وربما كانت فى الأصل (عليهم) فيعود الضمير على الزهاد .

(٢) نرجح أنها فى الأصل (التحليل) إشارة إلى قوله (ص) حلالها حساب وحرامها عقاب .

(٣) نرجح أنها فى الأصل (فاختطفهم) عن الدنيا بالعقبى ثم سلبهم . . . فهذا أقرب إلى مراحل تدرج الفناء الصوفى .

الموت فرح للمؤمن ، فالخبرُ عن قُرْبه بِشارةٌ له ، لأنه سببٌ يوصله إلى الحق ، ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه .

ويقال إذا كان الموت لا بد منه فالاستسلام لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرها .

ثم أخبر أنهم — لضَعْفِ بصائرهم ومرض عقائدهم — إذا أصابتهم حَسَنَةٌ فَرِحُوا بها ، وأظهروا الشكر، وإنْ أصابتهم سيئة لم يهتدوا إلى الله فجرى فيهم العِرْقُ المجوسىُّ[1] فأضافوه[2] إلى المخلوق ، فَرَدَّ عليهم وقال : قل لهم يا محمد كلٌّ من عند الله خلقاً وإبداعاً ، وانشاءً واختراعاً ، وتقديراً وتيسيراً .

قوله جل ذكره : ﴿ ما أصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ
وما أصابك من سيئةٍ فَمِنْ نفسكِ
وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله
شهيدا ﴾

ما أصابك من حسنة فمن الله فضلاً ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كسباً وكلاهما من الله سبحانه خَلْقاً[3]

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُطِعْ الرسولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ
ومَنْ تَوَلَّى فما أرسلناك عليهم
حفيظاً ﴾

هذه الآية تشير إلى الجَمْع لحال الرسول — صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه طاعته طاعتنا ، فمن تقرَّبَ منه تقرَّبَ منا ، ومقبولُه مقبولُنا ، ومردودُه مردودنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا مِنْ

---

(١) لعل القشيرى يقصد بذلك إلى أنهم بنسبتهم شيئاً لغير الله يشركون ، وينأون عن التوحيد .
(٢) أخطأ الناسخ فنقلها (فأذاقوه) فصوبناها بما يلائم السياق .
(٣) هذا تلخيص دقيق لرأى القشيرى فيما يصيب العباد .

عندِك بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذى
تقولُ ، والله يكتب ما يُبَيِّتون ،
فأَعْرِض عنهم ، وتوَكَّلْ على اللهِ ،
وكفى بالله وكيلًا ﴾

يعنى إذا حضروك[1] استسلموا فى مشاهدتك ، فإذا خرجوا انقطع عنهم نور إقبالك ، فعادوا إلى ظلمات ، كما قالوا :

إذا ارعوى عاد إلى جهله   كذى الضنى عاد إلى نكسة

قوله جل ذكره : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرون القُرآن ولو كان مِنْ
عِنْدِ غيرِ اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً * وإذا جاءهم أمْرٌ مِنَ الأمنِ
أو الخوفِ أذاعوا به ولو ردُّوه
إلى الرسولِ وإلى أولى الأمرِ منهم
لَعلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم ،
ولولا فَضْلُ الله عليكم ورحمتُه
لاتَّبَعْتُم الشيطانَ إلا قليلاً ﴾

تدبرُ إشارة المعانى بغوص الأفكار ، واستخراجُ جواهر المعانى بدقائق الاستنباط .

قوله : « وإذا جاءهم أمر . . . » : لمَّا كانوا غافلين عن الحق لم يكن لهم من ينقل إليه أسرارهم فأظهروا السرَّ بعضُهم لبعض . فأمَّا المؤمنون فعالِمُ أسرارِهم مولاهم ، وما يسنح لهم خاطِبُوه فيه فلم يحتاجوا إلى إذاعة السِّر لمخلوق ؛ فسامِعُ نجواهم اللهُ ، وعالِم خطابهم الله .

قوله تعالى : « ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم . . . . » أى لو بثُّوا[2]

---

(١) أخطأ الناسخ فنقلها (حفروك) فصوبناها بما يلائم السياق .

(٢) كتبها الناسخ (ثبوا) فصوبناها بما يلائم السياق : (بثوا أسرارهم) .

أسرارهم عند من هو (. . . .)[1] ومَنْ هو من أهل القصد لأزالوا عنهم الإشكالَ ، وأمدوهم بنور الهداية والإرشاد[2] .

« ولولا فضل الله » مع أوليائه لهاموا فى كل وادٍ من التفرقة كأشكالهم فى الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَاتِلْ فى سبيل اللهِ ، لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ المؤمنين ، عسى اللهُ أنْ يَكُفَّ بَأْسَ الذين كفروا واللهُ أشدُّ بَأْسًا وَأشَدُّ تنكيلاً ﴾

اِسْتَقِمْ معنا بتسليم الكُلِّ مِنْكَ إلى أمرنا ؛ فإنَّك — كما لا يقارنُكَ أحَدٌ فى رتبتك لعلوِّك على الكل — فنحن لا نكلِّف غيرَك بمثل ما تكلفت ، ولا نُحَمِّلُ غيرَك ما تحملتَ لانفرادك عن أشكالك فى القدوة[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نصيبٌ منها ، ومنْ يشفعْ شفاعةً سيئةً يكن له كِفلٌ منها ، وكان اللهُ على كل شىء مُقِيتاً ﴾

الشفيع يخلِّص للمشفوع له حالَه . ويستوجب الشفيعُ — من الله سبحانه على شفاعته — عظيمَ الرتبة ، ومَنْ سعى فى أمرنا بالفساد تحمَّلَ الوِزْرَ واحتقب الاثم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فحيوا بأحْسَنَ

---

(١) مشتبهة ، وما بعدها قد يكنى عنها .

(٢) فى هذا الخصوص يحث القشيرى فى إحدى وصاياه على ألا يفضى المريد بذات نفسه إلا لأرباب الطريقة من الشيوخ ؛ إذ يقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب غير هذه الطريقة . فحجج اهلها — فى مسائلهم — أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والذى للناس غيب فهو لهم ظهور فهم من أهل الوصال ، والناس أهل استدلال الرسالة ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) لا نستبعد أيضاً أنها فى الأصل (القدرة) لتلاؤم التكليف والتحمل ؛ وللمعنى يتقبل (القدوة) و (القدرة) .

منها أو ردُّوها إنَّ اللهَ كان على كلِّ
شيءٍ حسيباً ﴾

تعليمٌ لهم حُسْنَ العِشْرة وآداب الصحبة . وإن من حمَّلَكَ فضلاً صار ذلك — فى ذمتك — له قرضاً ، فإمَّا زِدْتَ على فعله وإلاَّ فلا تنقص عن مثله .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم
القيامة لا ريب فيه وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ اللهِ حديثاً ﴾

هذا الخطاب يتضمن نفياً وإثباتا ؛ فالنفى يعود إلى الأغيار ويستحيل لغيره ما نفاه ، والإثبات له بالإلهية ويستحيل له النفى فيما أثبته .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَا لَكُم فى المنافقين فِئَتَين واللهُ
أرْكَسَهُم بِما كَسَبُوا أتُرِيدون
أنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، ومَنْ
يُضْلِلْ اللهُ فلَنْ تجِدَ له سَبِيلاً ﴾

(. . . .)[1] العهد فيهم أنهم أعدائى ، لا ينالون مِنِّى فى الدنيا والعقبى رضائى ، وإنكم لا تُنْقِذون بهممكم من أقمته بقسمتى[2] فإن المدار على القِّسَم دون (. . . .)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا
فتكونون سَوَاءً فلا تتخذوا منهم
أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله
فإنْ تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث
وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا
ولا نصيراً * إلا الذين يَصِلُون

(١) مشتبهة .
(٢) أى ما قسمته له فى سابق الآزال لا قدرة لمخلوق على تغييره .
(٣) سقطت كلمة من الناسخ ربما كانت (الاحتيال) وربما كانت (الهمم) فكلاهما يفيد أنه لا منجاة لإنسان بعمله وحده بل المدار على القسمة .

إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاق
أو جاءوكم حَصِرتْ صُدُورُهم أنْ
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء
اللهُ لَسَلَّطَهُم عليكم فَلَقَاتَلُوكم فإنْ
اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوْا إليكم
السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم
سبيلاً ﴾

الإشارة إلى أرباب التخليط والأحوال السقيمة يتمنون أن يكون الصديقون منهم ، وهيهات أن يكون لمناهم تحقيق ! وما دام المخالفون لكم غير موافقين فبائنوهم وخالفوهم ولا تطابقوهم بحال ، ولا تعاشروهم ، ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيراً ؛ وموافقٌ لك فى قصدك خيرٌ لك من مخالفٍ على الكره تعاشره .

قوله : « إلا الذين يصلون إلى قوم . . . . » الإشارة من هذه الآية أن عند الاعذار أذِن فى معاشرة فى الظاهر[1] رفقاً بالمستضعفين .

« فإن اعتزلوكم . . » الإشارة منه أنه إذا عاشركم من ليس من أهل القصة معرجين فى أوطان نصيبهم فلا تدعوهم إلى طريقتكم وسلِّموا لهم أحوالهم . فإن أمكنكم أن تلاحظوهم بعين الرحمة بحيث تؤثر فيهم همتكم[2] وإلا فسلِّموا لهم أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ستجدون آخَرين يريدون أنْ
يأمَنوكم ويأمَنُوا قومَهم كلَّما رُدُّوا
إلى الفِتْنةِ أُرْكِسُوا فيها فإنْ لم
يَعْتَزِلوكم ويُلْقُوا إليكم السَّلَمَ ويكفوا
أيْدِيَهم فَخُذُوهم واقتلوهم حيثُ

---

(١) أى أن الصحبة والمعاشرة ينبغى ألا يصل أمرها الى حد المساكنة ، لأن صحبة الحق أوْلى من كل غير . . . وهذا مبدأ نادى به القشيرى وطبقه على نفسه إبان محنته الأليمة .

(٢) وردت (همتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن المعنى يتطلب (همتكم)

ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم
عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ .

إن من رام الجمع بين الضدين خاب سعيُه ، ولم يرتفع عزمُه ، فكما لا يكون شخص واحد منافقاً ومسلماً لا يكون شخص واحد مريداً للحق ومقيما على أحكام أهل العادة . فإن الإرادة والعادة ضدان[1] ، والواجب مباينة الأضداد ، ومجانبة الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لمؤمنٍ أن يَقْتُلَ مُؤمناً
إلا خطأً ومن قَتَلَ مؤمناً خطأً
فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيَةٌ مُسلّمَةٌ
إلى أهله إلاَّ أنْ يصدَّقوا فإنْ كان
مِنْ قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مؤمن
فتحرير رقبة مؤمنة وإنْ كان من
قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فديَةٌ
مسلَّمَةٌ إلى أهله وتحرير رقبةٍ مؤمنة
فمن لم يجِدْ فصيامُ شهرين متتابعين
توبةً منَ اللهِ وكانَ اللهُ عليما حكيما﴾.

خفَّف أمْرَ الخطأ على فاعله حتى حَمَّلَ موجب قتل الخطأ على العاقلة ؛ فالخواص عاقلة المستضعفين من الأمة ، وأهل المعرفة عاقلة المريدين ، والشيوخ عاقلة الفقراء ؛ فسبيلُهم أن يحْملوا أثقال المستضعفين فيما ينوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقتُل مؤمناً مُتعمِّداً فجزاؤه
جهنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليه
ولَعَنَه وأعَدَّ له عذاباً عظيما ﴾.

كما يُحرَّم قتلُ غيرك عليك يحرَّمُ قتلُ نفسك عليك ، ومن اتّبعَ هواه سعى فى دَمِ نفسه ، ومن لم ينصح مريداً بحسنِ وعظِه ولم يُعِنْهُ بهمته فقد سعى فى دمِه ، وهو مأخوذ بحاله

(١) الناس — عند القشيري — إما أهل العادة أو أهل الإرادة .

وخليق[1] بأن تكون له عقوبة الأذية بألا يتمتع بما ضنّ به على المريدين من أحواله : ولقد قال — سبحانه — : ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له (خادماً)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا[3] إذا ضَرَبْتُمْ فى سبيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ولا تقولوا لِمَنْ أَلْقَى إليكم السَّلَامَ لستَ مؤمِنًا تبتغون عَرَضَ الحياةِ الدنيا فَعِندَ اللهِ مغانمُ كثيرة ، كذلك كنتم مِنْ قبل فَمَنَّ اللهُ عليكم فتَبَيَّنُوا إنَّ اللهَ كان بِمَا تعملون خبيراً ﴾ .

عَاشِرُوا الناسَ على ما يُظْهِرُون من أحوالهم ، ولا تَتَفَرَّسوا فيهم بالبطلان ؛ فإنَّ مُتَوَلِّىَ الأسرار اللهُ[4] . هذا إذا كان غرضٌ فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النَّفْس ، فأمَّا من كان نظرُه بالله ولم يَنْسَتِرْ عليه شئ فَلْيَحْفَظْ سِرَّ اللهِ فيما كُوشِفَ به ، ولا يَظْهِر لصاحبه ما أراد الله فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لايستوى القاعِدون مِنَ المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهِدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسِهِمْ فضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنْفُسِهِمْ على القاعدين درجة ، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ، وفَضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴿ درجاتٍ

(١) وردت (وحقيقة بأن) وصوابها وحقيق بأن ولكننا آثرنا (وخليق بأن) حتى يمتنع اللبس .

(٢) مشتبهة هنا ولكنها واضحة فى موضع سبق (انظر تفسير آية وأنبتها نباتاً حسناً ص ٢٤٩ من المجلد الأول)

(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها .

(٤) تدل هذه النظرة على سماحة الصوفية واتساع صدورهم ، فالأصل عندهم أن كل الناس طيبون ، ويجب أن نحسن الظن بهم جميعاً ، ونتقبل ظواهرهم تاركين أسرارهم للمولى سبحانه .

منه ومَغْفِرَةً ورحمةً وكان اللهُ
غفوراً رحيماً ﴾ .

الحقُّ سبحانه جمع جميع أوليائه فى أفضاله لـكنه غَايَرَ بينهم فى الدرجات ، فَمِنْ غنيٍّ ومن عبدٍ هو أغنى منه[1] ، ومِنْ كبيرٍ ومن هو أكبر منه ، هذه الـكواكب دُرِّيَّة ولـكن القمرَ فوقها ، وإذا طلعت الشمسُ بهرت الجميع بنورها !

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين توفَّاهم الملائـكةُ ظالمى أنفسِهِمْ قالوا فيم كنتم قالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأرضِ قالوا ألم تَـكُنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتُهاجِروا فيها فأولئك مأواهم جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مصيراً ﴾ .

الإشارة منه إلى من أدركه الأجلُ وهو فى أَسْرِ نَفْسِهِ وفى رِقِّ شهواته — ليس له عذر حيث لم يهاجر إلى ظِلِّ قُربته ليتخلَّصَ مِنْ هوى نفسِه[2] إذ لا حجابَ بينك وبين هذا الحديث إلا هواك .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا المُسْتَضْعَفِين مِنَ الرجال والنِّساءِ والوِلدانِ لا يَستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً * فأولئك عَسَى اللهُ أنْ يعفوَ عنهم وكان اللهُ عفُوّاً غفوراً ﴾

الإشارة منه إلى الذين مَلَـكَتْهُم المعانى فأفنتهم عنهم ، فَبَقُوا مُصَرَّفِين له ، لا لهم حَوْلٌ ولا قوة ، يبدو عليهم ما يُجْرِيه — سبحانه — عليهم ، فهم بعد عود نفوسهم بحق الحقّ محوٌ عنهم ، فلا يهتدون إلى غيره سبيلاً ، ولا يتنفَّسُون لغيره نَفَساً .

---

(١) واضح أن القشيرى يقصد الغنى فى الأحوال لا الغنى فى الأموال فليس لهذه كبير قيمة .
(٢) وردت هـكذا (هو انفسه) فصوبناها .

ويقال على موجب ظاهر الآية إن الذين أقعدتهم الأعذار عن الاختيار فعسى أن يتفضَّل الحقُّ — سبحانه — عليهم بالعفو .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سبيلِ الله يَجِدْ فى الأرض مُرَاغَمًا كثيراً وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بيْتِهِ مُهاجِراً إلى الله ورسولهِ ثم يُدْرِكْه الموتُ فقَدْ وَقَعَ أَجْرُه عَلَى اللهِ وكان اللهُ غفوراً رحيماً﴾

مَنْ هَاجَرَ فى الله عما سوى الله ، وصحح قَصَدَه إلى الله وَجَد فسحة فى عقوة الكَرَم ، ومقيلاً فى ذرى القبول ، وحياة وَسَعَةً فى كنف القرب .

والمهاجر — فى الحقيقة — من هجر نَفْسَه وهواه ، ولا يصحُّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته ، ومَنْ قَصَدَه ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله ، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه .

قوله جل ذكره : ﴿وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُناحٌ أنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصلاةِ إنْ خِفْتُمْ أنْ يَفْتِنَكُم الذين كفروا إنَّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مُبيناً﴾

القَصْرُ فى الصلاة سُنَّةٌ فى السفر ، وكان فى ابتداء الشرع عند الخوف[1] ، فأقرَّ ذلك مع زوال الخوف رفقاً بالعباد ، فلما دخل الفرضَ القَصرُ لأجل السفر عوضوا بإباحة النَّفْل فى السفر على الراحلة أينما توجهت به دابته من غير استقبال ، فكذلك الماشى ؛ ليُعْلَم أنَّ الإذنَ

---

(١) لأن فى مبدا الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، او فى سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله . . . ويرى ابن عمر أن هناك فرقاً بين صلاة السفر وصلاة الخوف ، وهو يحتج على قصر الصلاة فى السفر ويراه فى صلاة الخوف .

(تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٥٤٦) لابن كثير .

فى المناجاة مستديمٌ فى كل وقت ؛ فإنْ أردْتَ الدخول فمتى شئت ، وإن أردت التباعد مترخصاً فلك ما شئت ، وهذا غاية الكرم ، وحفظ سُنَّة الوفاء ، وتحقق معنى الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا كنتَ فيهم فأقمت لهم الصلاةَ فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك وَليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فَلْيَكُونُوا مِنْ ورائِكم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يُصلُّوا فَلْيُصَلُّوا معك وليأخذوا حِذْرَهم وأسلِحَتَهم ، ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلُون عَنْ أسلِحَتِكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدةً ، ولا جُناحَ عليكم إنْ كان بكم أذَىً مِنْ مَطَرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذْرَكم إنَّ اللهَ أعَدَّ للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾

تدل هذه الآية على أن الصلاة لا ترتفع عن العبد ما دام فيه نَفَسٌ من الاختيار لا فى الخوف ولا فى الأَمْن ، ولا عند غلبات أحكام الشرع إذا كنت بوصف التفرقة ، ولا عند استيلاء سلطان الحقيقة إذا كنتَ بعين الجمع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فإذا قضيْتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم فإذا اطمأنَنْتُمْ فأقيموا الصلاة إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾

الوظائف الظاهرة مؤَقته[1] ، وحضور القلب بالذكر مسرمد غير منقطع ؛ أمَّا بالرسوم

---

(١) أى حسب ميقات .

فوقتاً دون وقت ، وأمَّا بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظة كيفما اختلفت بكم الأحوال .. الذكرُ كيفما كنتم وكما كنتم ، وأما الصلاةُ فإذا اطمأننتم .

قوله جل ذكره : « ولا تهنُوا في ابتغاء القومِ إنْ تكونوا تألمون فإنَّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » :

قوموا بالله وليكن[1] استنادكم في جهادكم إلى الله .

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون » : القومُ شاركوكم في إحساس الألم ، ولكن خالفوكم في شهود القلب ، وأنتم تشهدون مالا يشهدون ، وتجدون لقلوبكم ما لا يجدون ، فلا ينبغي أن تستأخروا عنهم في الجد والجهد .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لتحكمَ بين الناسِ بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا * واستغفر[2] الله إن الله كان غفوراً رحيمًا » .

لم يأمرْك[3] بالحكم بينهم على عمًى ولكن بما أراك الله[4] أى كاشفك به من أنوار البصيرة حتى وقفت عليه بتعريفنا إياك وتسديدنا لك ، وكذلك من يحكم بالحق من أمتك .

قوله : « ولا تكن للخائنين خصيماً » : أى لا تناضِل عن أرباب الحظوظ ولكن مع

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (ولا يكن) .
(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها واستغفروا .
(٣) وردت (لم يأمركم) والصواب (لم يأمرك) لأن الخطاب كله موجه إلى الرسول (ص) .
(٤) يحتج من ذهب من علماء الأصول بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم كان له أن يحكم بالاجتهاد ، وفيما رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد عن رجلين من الأنصار اختصما إلى الرسول (ص) في مواريث بينهما قد درست وليس عندهما بينة . . ينتهي الحديث على النحو التالي .
« إني إنما أقضي بينكما برأيي فيما لم ينزل عليَّ فيه » .

أبناء الحقوق ، ومن جنح إلى الهوى خان فيما أودع نفسه من التقوى ، ومَنْ رَكَنَ إلى أنواع نوزاع المنى خان فيما طولب به من الحياء لاطلاع المولى[1] .

« واستغفر الله » لأمتك ، فإنا قد كفيناك حديثك بقولنا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك .

قوله جل ذكره :﴿ولا تجادِلْ عن الذين يختانون أنفسَهم إن الله لا يحبُّ مَنْ كان خوَّاناً أثيماً * يَسْتَخْفُون مِنَ النـاسِ ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى مِن القولِ وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ .

هم المؤثرون حظوظهم عل حقوقه ، والراضون بالتعريج فى أوطان هواهم دون النقلة إلى منازل الرضا ، إن الله لا يحب أهل الخيانة فيذلهم — لا جَرَم — ولا يكرمهم .

قوله : « يستخفون من الناس » الغالب على قلوبهم رؤية الخَلْق ولا يشعرون أنَّ الحق مُطَّلِـعٌ على قلوبهم أولئك الذين وَسَمَ الله قلوبهم بوسم الفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فَمَنْ يجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامة أمْ مَنْ يكون عليهم وكيلاً﴾ .

أىْ ندفع عنهم — بحرمتك — لأنك فيهم ، فـكيف حالهم يوم القيامة إذ زالت عنهم بركاتـكم أيها المؤمنون ؟!

---

(٣) (يقال إن سبب نزول هذه الآية أن رجلا شكا أن طعمة بن أبيرق سرق درعه ، فلما رأى السارق ذلك ألقى الدرع فى بيت رجل برىء ، وقال لنفر من عشيرته إنى غيبت الدرع فى بيت فلان ، فانطلقوا إلى النبي (ص) ليلا فقالوا : يا نبىَّ الله إن صاحبنا برىء . وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رءوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك . فقام رسول الله (ص) فبراه وعذره على رءوس الناس ، فأنزل الله هذه الآية) وقد حرصنا على إثبات سبب نزولها لأن ما بعدها من الآى مرتبط بهذه الواقعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يعملْ سوءًا أو يظلِمْ نَفْسَهَ ثم يستغفر الله يَجِدْ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾ .

« ثم » : حرفٌ يدل على التراخي ؛ أي يزجون[1] عمرهم في البطالات والمخالفات ثم في آخر أعمارهم يستغفرون الله .

وقوله « يجد الله » : الوجود غاية الحديث[2] ، والعاصي لا يطلب غير الغفران ، ولكن الله — سبحانه يوصله إلى النهاية بفضله — إذا شاء ، فسُنَّتُهُ تحقيق ما فوق المأمول لمن رجاه.

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ يكْسِبْ إثماً فإنَّما يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ .

الحقُّ غنيٌّ عن طاعة المطيعين ، وزلة[3] العاصين ، فمن أطاع فحظَّه حَصَّلَ ، ومن عصى فحظه أخذ .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن يكْسِبْ خطيئة أو إثماً ثم يرْمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ .

من نسب إلى بريء ما هو صفته من المخازي عكس الله عليه الحال ، وألبس ذلك البريء ثواب محاسن راميه ، وسحب ذيل العفو على مساويه ، وقَلَبَ الحال على المتعدِّي بما يفضحه بين أشكاله ، في عامة أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فَضْلُ اللهِ عليكَ ورحمتُه

---

(١) وردت (يرجون) بالراء والصواب بالزاى

(٢) (التواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة ، وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر) الرسالة ص ٣٧ .

(٣) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون بالزاى لأن المناسب للسياق لفظ ضد الطاعة .

لَهَمَّتْ طائفة منهم أنْ يُضِلُّوك
وما يُضِلُّون إلا أنفُسَهُمْ وما يضرونك
من شيءٍ وأنزل الله عليكَ الكتاب
والحكمة وعلَّمكَ ما لم تكن تعلم
وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الفضلُ إحسانٌ غيرُ مستحق[1] ، والإشارةهينا —من الفضل — إلى عصمته إياه ، فالحقُّ — سبحانه — عَصَمَه تخصيصاً له بتلك العصمة ، وكما عصمه عن تَرْكِ حقه — سبحانه — عَصَمَه بأنْ كَفَّ عنه كَيْدَ خلْقِه فقال : « ولولا فضل الله عليك ورحمته .. » الآية .

كَلاَّ ، لن يكونَ لأحدٍ سبيلُ إلى إضلالك فأنت فى قبضة العزة ، وما يُضِلُّون إلا أنفسهم ، وما يضرونك بشيء ، إذ المحفوظ منا محروس عن كل غير ، وإنَّ الله سبحانه قد اختصك بإنزال الكتاب ، واستخلصك بوجوه الاختصاص والإيجاب،وعلَّمك ما لم تكن تعلم ، ولم يمن عليك بشيءٍ بمثل ما مَنَّ به على من خصَّه به من العلم . ويحتمل أنه أراد به علمه — صلى الله عليه — بالله وبجلاله ، وعلمه بعبودية نَفْسه ، ومقدار حاله فى استحقاق عِزِّه وجماله .

ويقال علَّمك ما لم تكن تعلم من آداب الخدمة إذ لم تكن ملتبساً عليك معرفة الحقيقة .

ويقال أغناك عن تعليم الأغيار حتى لا يكون لأحدٍ نور إلا مُقْتَبَساً مِنْ نورِك ، ومَنْ لم يمش تحت رايتك لا يصل إلى جميع بِرِّنا ، ولا يحظى بقربنا وَوَصْلنا .

« وكان فضل الله عليك عظيماً » : فى الآباد ؛ أنَّكَ كنت — لنا بشرف العز وكرم الربوبية فى الآزال — معلوماً . ويقال وعلَّمك ما لم تكن تعلم من عُلُوِّ رُتْبَتِكَ على الكافة .

ويقال « علَّمك ما لم تكن تعلم » أنَّ أحَداً لا يُقَدِّرُ قَدْرَنا إلا بمقدار موافقته لأَمْرِنا .

قوله جل ذكره : ﴿ لا خَيْرَ فى كثيرٍ مِنْ نجواهم

(١) لأن الفضل معناه الزيادة ، فربما يرمى القشيرى إلى أنه غير مستحق بسبب ذلك ؛ لأنه يفوق المستحق .

إلا مَنْ أمَرَ بصَدَقَةٍ أو معروفٍ
أو إصلاحٍ بين الناس ومَنْ يفعلْ
ذلك ابتغاء مَرضَاَةِ اللهِ فسوف
نُؤتيه أجراً عظيماً ﴾

أفضل الأعمال ما كانت بركاته تتعدى صاحبَه إلى غيره ؛ ففضيلة الصَدَقَة يتعدى نفعها إلى من تصل إليه ، والفُتُوةُ أن يكون سعيك لغيرك ، ففي الخبر : «شرُّ الناس مَنْ أكَلَ وَحْدَه» وكلُّ أصناف الإحسان ينطبق عليها لفظ الصدقة .

قال صلى الله عليه وسلم فى قَصْرِ الصلاة فى السفر : «هذه صدقة تصدَّقها الله عليكم فاقبلوا صَدَقَتَهُ»[1]

والصدقة على أقسام : صدقتك على نفسك ، وصدقتك على غيرك ؛ فأمَّا صدقتك (على نفسك تحمْلُها على أداء حقوقه تعالى ، ومَنْعُها عن مخالفة أمره ، وقَصرُ يدها عن أذية الخَلْق ، وصَوْنُ خواطرها وعقائدها عن السوء . وأمَّا صدقتك)[2] على الغير فصَدَقةٌ بالمال وصدقة بالقلب وصدقة بالبدن .

فصدقة بالمال بإنفاق النعمة ، وصدقة بالبدن بالقيام بالخدمة ، وصدقة بالقلب بحسن النية وتوكيد الهمة .

والصدقة على الفقراء ظاهرة لا إشكالَ فيها ، أمَّا الصدقة على الأغنياء فتكون بأن تجود عليهم بهم ، فتقطع رجاءك عنهم فلا تطمع فيهم .

وأمّا المعروف : فكلُّ حسَنٍ فى الشرع فهو معروف ، ومن ذلك إنجاد المسلمين وإسعادهم فيما هم فيه قربة إلى الله ، وزلفى عنده ، وإعلاء النواصى بالطاعة .

---

(١) هكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث ابن جريج عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وقال على بن المدينى هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر بن الخطاب ، ولا يحفظ الا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

(٢) ما بين القوسين استدراك فى الهامش وضمناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ومن تصدَّق بنفسه على طاعة ربه ، وتصدَّق بقلبه على الرضا بحكمه ، ولم يخرج بالانتقام لنفسه ، وحثَّ الناس على ما فيه نجاتهم بالهداية إلى ربه ، وأصلح بين الناس بِصِدْقه فى حاله — فإنَّ لسانَ فعله أبلغ في الوعظ من لسان نطقه ، فهو الصِّدِّيق فى وقته . ومن لم يؤدِّبْ نَفْسَهَ لم يتأدبْ به غيرُه ، وكذلك من لم يهذِّبْ حالَه لم يتهذَّبْ به غيره .

« ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله » غيرَ سائلٍ به مالاً أوحائز لنفسه به حالاً فعن قريب يبلغ رتبة الإمامة فى طريق الله ، وهذا هو الأجر الموعود فى هذه الآية [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقْ الرسولَ من بعد ما تَبَيَّنَ له الهُدَى ويتَّبِعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْلِه جَهَنَّمَ وساءت مصيراً ﴾

خواطر الحق سفراؤه تعالى إلى العبد ، فمن خالَفَ إشاراتِ ما طولب به مِنْ طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب ، ومنها أنْ يَعْمَى عن إبصار رشده . وكما أن مخالفَ الإجماع عن الدين خارجٌ فمخالِفُ ما عرف من الحقيقة بعد ما تبين له الطريق — ساقط .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لا يَغْفِر أنْ يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لِمَنْ يشاء ومَنْ يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً * إنْ يدعون مِنْ دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مَرِيداً * لَعَنَهُ اللهُ وقال لأتخذنَّ مَنْ عبادِكَ نصيباً مفروضاً * ولأُضِلَّنَّهُم ولأُمَنِّيَنَّهم ولآمُرَنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهم فليُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ،

(١) نلاحظ فى هذه الفقرة أن القشيرى يوجه — بطريق غير مباشر — لومه إلى بعض الوعاظ المحترفين الذين ظهروا فى عصره وقبل عصره .

وَمَنْ يَتَّخِذْ الشيطانَ وَلياً مِنْ دون
الله فقَدْ خَسِرَ خُسرانًا مبيناً ﴾

قولهُ إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به » : إثبات الغير فى توهم ذرة من الإبداع عين الشِرْك ، فلا للعفو فيه مساغ . وما دون الشرك فللعفو فيه مساغ ، ومن توسَّل إليه سبحانه بما توَّهم من نفسه فقد أشرك من حيث لم يعلم . كلاّ ، بل هو الله الواحد .

قوله : « إنْ يدعون من دونه إلا إناثاً » : أوقعوا على الجمادات تسميات[1] ، وانخرطوا فى سلك التوهم ، وركنوا إلى مغاليط الحسبان ، فَضَلُّوا عن الحقيقة .

« وإن يدعون إلا شيطانا مَرِيداً لَعَنَهُ الله » ، أى ما يدعون إلا إبليس الذى أبعده الحقُّ عن رحمته ، وأسحقه[2] ببُعده ، وما إبليس إلا مُقلَّبٌ فى القبضة على ما يريده المنشىءُ ، ولو كان به ذرة من الإثبات لـكان به شريكا فى الإلهية . كلاَّ ، إنما يُجرِى الحقُّ — سبحانه — على الخلْقِ أحوالاً ، ويخلق[3] عقيب وساوسه للخاق ضلالا ، فهو الهادى والمُضِل ، وهو — سبحانه — المُصَرِّفُ للـكل ، فيخلق (. . . .)[4] فى قلوبهم عُقَيْبَ وساوسه إليهم طول الآمال ، ويُحَسِّن فى أعينهم قبيح الأعمال ، ثم لا يجعل لأمانيِّهم تحقيقاً ، ولا يعقب لما أَمَّلُوه تصديقاً ، فهو تعالى مُوجِد تلك الآثار جملةً ، ويضيفها إلى الشيطان مرةً ، وإلى الـكافر مرة ، وهذا معنى قوله : « ولأضلنهم ولأمنينهم » . . . الآية ومعنى قوله تعالى « يعدهم ويمنيهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعِدُهم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطان
إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنّمُ
ولا يجدون عنها محيصاً ﴾

---

(١) واضح من كلام القشيرى أنه يفهم الإناث على أنها الأوثان ، وهـكذا عن عائشة . وروى عن بعض الصحابة أنها الملائـكة إشارة إلى قوله تعالى فى موضع آخر (وجعلوا الملائـكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) . وعن الحسن : الإناث كل شىء ميت ليس فيه روح .

(٢) فى النسخة ص (استحقه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) يؤكد القشيرى نسبة خلق كل شىء لله ، وتجريد الشيطان من كل سلطان .

(٤) مشتبهة .

الذين قسم لهم الضلالة فى الحال حكم عليهم بالعقوبة فى المآل[1] ، ولولا أنه أظهر ما أظهر بقدرته وإلا متى كانت شظية مِن الضلالة والهداية لأربابها ؟ ! والوقوفُ على صدق التوحيد عزيزٌ ، وأربابُ التوحيد قليلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً وَعْدَ اللهِ حقاً وَمَنْ أصدقُ مِنَ اللهِ قِيلاً ﴾

الذين أسعدناهم حكماً وقَوْلا ، أنجدناهم حين أوجدناهم كرما وطَوْلا ، ثم إنَّا نُحقِّق لهم الموعودَ من الثواب ، بما نُكْرِمُهم به من حسن المآب .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس بِأمانيِّكم ولا أمَانىِّ أهلِ الكتابِ مَنْ يعملْ سوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ وليّاً ولا نصيرا * ومَنْ يعملْ مِنَ الصالحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمِنٌ فأولئك يدخلون الجنَّةَ ولا يُظْلَمون نَقيراً ﴾

مَنْ زَرَعَ الحنظل لم يجْتنِ الورد والعبهر[2] ، ومن شرب السُّمَّ الزُّعاف لم يجد طعم العسل ، كذلك مَنْ ضيَّعَ حقَّ الخدمةِ لم يستمكِنْ على بساط القربة ، ومَنْ وُسِمَ بالشِّقوة لم يُرْزَقْ الصفوة ، وَمَنْ نَفَتْه القضية[3] فلا ناصرَ له من البَرِيَّة .

قوله : « ومن يعمل من الصالحات . . . . » الآية . مَنْ تَعَنَّي فى خدمتنا لم يبق عن نَيْلِ

---

(١) وردت (المال) وصوابها (المآل) .

(٢) العبهر ـ الياسمين وقيل النرجس (لسان العرب جـ ٢٠ ص ٥٣٦) ط بيروت .

(٣) القضية مقصود بها القضاء ، قضاء الله .

نعمتنا ، بل من أغنيناه[1] فى طلبنا أكرمناه بوجودنا ، بل من جَرَّعناه كأسَ اشتياقنا أنلناه أُنْسَ لقائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أحسنُ دِيناً مِمَّنْ أسلم وجهه
لله وهو محسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّة ابرهيم
حنيفاً واتَّخذَ اللهُ ابرهيمَ خليلاً *
ولله ما فى السموات وما فى الأرضِ
وكان الله بكل شىءٍ محيطا ﴾

لا أحدَ أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله ؛ يعنى أفرد قصده إلى الله ، وأخلص عقده لله عما سوى الله ، ثم استسلم فى عموم أحواله لله بالله ، ولم يدَّخِرْ شيئاً عن الله ؛ لا من ماله ولا من جَسَدِه ، ولا من روحه ولا من جَلَدِه ، ولا من أهله ولا من وَلَدِه ، وكذلك كان حال ابرهيم عليه السلام .

وقوله « وهو محسن » : الإحسان — بشهادة الشرع — أن تعبد الله كأنَّك تراه ، ولا بد للعبد من بقية[2] من عين الفرق حتى يصحّ قيامه بحقوقه — سبحانه — لأنه إذا حصل (مستوفى)[3] بالحقيقة لم يصح إسلامه ولا إحسانه ، وهذا اتِّباع ابرهيم عليه السلام الحنيف الذى لم يبق منه شىء على وصف الدوام .

وقوله « واتخذ الله ابرهيم خليلاً » : جرَّد الحديث عن كل سعيٍ وكدٍ وطلبٍ وجهدٍ حيث قال : « واتخذ الله ابرهيم خليلاً » فعُلِمَ أنّ الخلَّة لُبسةٌ يُلْبِسها الحقُّ لا صفةٌ يكتسبها العبد .

(١) ربما كانت (عنيناه) بالعين أى من احتمل العناء فى سبيلنا لتلائم (جرعناه كأس) أما (أغنيناه) بالغين فيكون معناها أوجدنا فيه الغناء عما سوانا .

(٢) أى لا بد أن يرد إلى الفرق الثانى حتى يستطيع أن يقوم بالفرائض الواجبة عليه فى أوقاتها .

(٣) هكذا جاءت فى النسخة ص وربما كانت فى الأصل (مساس) بالحقيقة ، فنحن نعرف عن مذهب القشيرى فى هذا الخصوص أن العبد ينبغى أن يحافظ على الشريعة مهما كانت الظروف ، وأى مساس بالشريعة بدعوى الاصطلام أو الفناء ـ فمردود ، وهو آية نقص فى صدق صاحبه .

ويقال الخليل المحتاج[1] بالكلية إلى الحق فى كل نَفَسٍ ليس له شىء منه بل هو بالله لله فى جميع أنفاسه وأحواله ، اشتقاقاً من الخُلَّة (التى هى الخَصَاصَة وهى الحاجة)[2] .

ويقال إنه من الخلة التى هى المحبة ، والخلة أن تباشِر المحبةُ جميعَ أجزائه ، وتتخلل سِرَّه حتى لا يكون فيه مساغ للغير .

فلمَّا صفَّاه الله — سبحانه — (عليه السلام) عنه ، وأخلاه منه نَصَبَه للقيام بحقه بعد امتحائه[3] عن كل شىءٍ ليس الله سبحانه.

ثم قال : « وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً . . . . »[4] : لا يلبي الحاج إلا لله ، وهذه إشارة إلى جمع الجمع[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَستفتونك فى النِّسَاءِ قلِ اللهُ
يُفْتيكم فيهنّ وما يُتلَى عليكم
فى الكِتاب فى يتامى النِّساء
اللَّاتى لا تؤتونَهنّ ما كُتبَ لَهُن
وترغبون أنْ تنكحوهن
والمستضْعَفِين مِن الولدان وأنْ
تقوموا لليتامى بالقِسْط وما تفعلوا
مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ كان به عليماً ﴾

نهاهم عن الطمع الذى يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى ، وَبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم اللهُ ، فَمَنْ راقب اللهَ فيهم لم يخسرْ على الله بل يجد جميل الجزاء ، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء .

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى محاولة فريق من المعتزلة صرف الخلة عن كل ما يتطرق إليها من دلالة حسية ، والتماسهم ذلك فى الشعر القديم وقد نبهنا إلى ذلك فى هامش سبق .

(٢) هذه العبارة مكررة خطأ من الناسخ .

(٣) وردت (بعد امتحانه) بالنون وقد صوبناها إلى (امتحائه) أى بعد وصوله إلى المحو .

(٤) آية ٢٧ سورة الحج

(٥) وردت (جميع الجمع) والصواب (جمع الجمع)

قوله جل ذكره: ﴿ وَإِنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يُصْلِحا بينهما صُلحاً ، والصُّلحُ خَيْرٌ ، وأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وإنْ تُحْسِنُوا وتتقوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً ﴾

صحبة الخلْق بعضهم مع بعض إنْ تجردت عن حديث الحق فإنها تتعرض للوحشة والملامة ، وممازجة النفرة والسآمة . فمَنْ أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلْقُ عن مراعاة حقه ، وخرج الكافة عليه باستصغار أمره واستحقار قَدْرِه . ومَنْ رجع إلى الله بقلبه ، استوى له — فى الجملة والتفصيل — أمرُه ، واتسع[1] لاحتمال ما يستقبل من سوء خُلُقِ الخَلْق صدرُه فهو يسحب[2] ذيلَ العفو على هَنَاتِ جميعهم ، ويُؤْثِرُ الصلح بتركِ نصيبه وتسليم نصيبهم قال الله تعالى : « والصلح خير » .

واتضاعك فى نفسك عن منافرة مَنْ يخاصمك أجدى عليك ، وأحرى لك مِنْ تطاولكَ على خصمك بأغياً الانتقام ، وشهودِ مَالَكَ فى مزية المقـام . وأكثر المنافقين فى أسْرِ هذه المحنة .

قوله تعالى : « وأحضرت الأنفس الشح . . . » : وشُحُّ النَفْس قيام العبد بحظه .

فلا محالة مَنْ حُجِبَ عن شهود الحق رُدَّ إلى شهود النَّفْس .

قوله تعالى : « وإن تحسنوا » : يعنى يكن ذلك خيراً لكم . والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .

« وتتقوا » : يعنى عن رؤيتكم مقامَ أنفسكم ، وشهود قَدْرِكم ، يعنى وأنْ تروا ربَّكم ، وتفنوا برؤيته عن رؤية قدْرِكم .

---

(١) وردت (والتسع) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (ويستحب) وهى خطأ النسخ .

« إن الله كان بما تعملون خبيراً » : يعنى إذا فنيتم عنكم وعن عملكم ، فكفى بالله عليماً بعد فنائكم ، وكفى به موجِداً عقب امتحائكم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَن[2] تستطيعوا أَنْ تعدِلوا بين النساءِ ولو حرصتم ، فلا تميلوا كُلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة وإنْ تُصلِحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾

يعنى أنكم إذا (. . . .)[3] فى أموركم انعكس الحال عليكم ، وانعكس صلاح ذات بينكم فساداً لكم ، فإذا قمتم بالله فى أموركم استوى العيشُ لكم ، وصفا عن الكدر وقتكم .

ويقال مَنْ حَكَمَ الله بنقصان عقله فى حاله[4] فلا تقتدرون أن تجبروا نقصانهم بكفايتكم .

قوله تعالى « فلا تميلوا كل الميل » : يعنى لا تزيغوا عن نهج الأمر . قِفوا حيثما وُقِفْتم ، وأنفذوا فيما أُمِرْتُم .

وقوله : « فتذروها كالمعلقة » يعنى أنكم إذا منعتموهن عن صحبة أغياركم ثم قطعتم عنهن ما هو حظوظهن منكم أضررتم بهن من الوجهين ، لا منكم نصيب ، ولا إلى غيركم سبيل ، وإن هذا الحيف عظيم . والإشارة[5] من هذا أنه إذا انسد عليك طريق حظوظك فتَحَ — سبحانه — عليك شهود حقه ، ووجود لطفه ؛ فإنَّ من كان فى الله تلفُه فالحق — سبحانه — خَلَفُه ، وإنْ تُصلِحوا ما بينكم وبين الخَلْق ، وتتقوا فيما بينكم وبين الحق فإن الله غفور لعيوبكم ، رحيم بالعفو عن ذنوبكم .

---

(١) وردت (امتحانكم) وهى خطأ فى النسخ فالامتحاء يرادف الفناء .

(٢) وردت (وان) وهى خطأ في النسخ .

(٣) مشتبهة ، ونرجح أنها كلمة تساوى فى المعنى (قمتم بأنفسكم) لتقابل ما جاء بعد (فإذا قمتم بالله) .

(٤) يشير القشيرى بذلك الى النساء .

(٥) أسلوب القشيرى في هذه الإشارة فى حاجة منا الى وعى وتيقظ ، فالحظوظ للعبد ، والحقوق للحق ، والشهود للحق والوجود يكون للطف . والمغفرة — بمعنى التغطية — تكون للعيب ، والعفو — الإزالة — يكون للذنب ؛ والعيب قد يبقى مغطى ولكن الذنب يزول .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ .

الصحبة التى لابُدَّ منها صحبةُ القلبِ مع دوام افتقارٍ إلى الله ، إذِ الحقُّ لابُدَّ منه . فأمَّا الأغيار فلا حاجة لبعضهم إلى بعض إلا من حيث الظاهر ، وذلك فى ظنون أصحاب التفرقة ، فأمَّا أهل التحقيق فلا تحرية لهم أن حاجةَ الخلْق بجملتها إلى الله سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مافى السموات وما فى الأرضِ ولقد وصَّينا الذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قبلكم وإياكم أَنِ اتقوا الله ، وإن تكفروا فإنَّ لِلهِ مافى السموات وما فى الأرضِ وكان الله غنياً حميداً ﴾ .

كلَّف الكافة بالرجوع إليه ، ومجانبة مَنْ سِواه ، والوقوف على أمره ، ولكن فريقاً وُفِّق وفريقًا خُذِل . ثم عَرَّفَ أهلَ التحقيق أنه غَنِيٌّ عن طاعة كلِّ ولىٍّ ، وبرىء عن[1] زلة[2] كل غوىٍّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولِلهِ مَافى السمواتِ وما فى الأرضِ وكَفَى باللهِ وَكيلًا ﴾ .

قَطَعَ الأسرار عن التَّعلُّق بالأغيار بأن عرَّفهم انفراده بِمُلْكِ مافى السموات والأرض ، ثم أطمعهم فى حسن تولِّيه ، وقيامه بما يحتاجون إليه بجميل اللطف وحسن الكفاية بقوله : « وكفى بالله وكيلا » يصلح يملك حالك ولا يختزل مالك .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ يَشَأْ يُذهِبْكُم أيُّها الناسُ ويأتِ بآخَرِين وكان اللهُ على ذلك قديراً ﴾ .

---

(١) قبل (عن) واو زائدة فحذفناها

(٢) وردت (ذلة) بالذال والصواب أن تكون هنا بالزاى .

من استغنى عنه فى آزاله فلا حاجة له إليه فى آباده . ويقال لا يحتاج إلى أحدٍ والعبد لا يستغنى عنه فى نَفَسٍ .

ويقال لانهاية للمقدورات فإنْ لم يكن عمرو فَزَيْدٌ ، وإنْ لم يكن عبدٌ فعبيد ، والذى لا بَدَلَ عنه ولا خَلَفَ فهو الواحد الأحد .

قوله جل ذكره :﴿ مَنْ كان يريد ثوابَ الدنيا فَعِنْدَ اللهِ ثوابُ الدنيا والآخِرة وكانَ الله سميعًا بصيراً ﴾ .

لمَّا علقَّوا قلوبهم بالعاجل من الدنيا ذكَّرهم حديث الآخرة ، فقال « فعندالله ثواب الدنيا والآخرة » تعريفًا لهم أنَّ فوق هممهم من هذه الخسيسة[1] ماهو أعلى منها من نعيم الآخرة ، فلمَّا سَمَتْ إلى الآخرة قصودُهم قطعهم عن كل مرسوم[2] ومخلوق بقوله : « والله خيرٌ وأبقى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامِين بالقِسْطِ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أَوْلَى بهما . فلا تتبعوا الهوى أَنْ تعدِلوا وإن تلووا أو تُعرِضوا فإنَّ اللهَ كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

---

(١) يقصد الدنيا بهذا الوصف

(٢) الرسم – كما يقول أبو نصر السراج فى لمعه – هو ما رسم به ظاهر الخلق برسم العلم ورسم الخلق فيمتحى بإظهار سلطان الحق عليه .

سئل الجنيد عن رجل غاب اسمه وذهب وصفه وامتحى رسمه فقال : نعم عند مشاهدته قيام الحق له بنفسه لنفسه فى ملكه ، فيكون ذلك معنى قوله امتحى رسومه يعنى علمه وفعله المضاف إليه بنظره إلى قيام اللهِ له فى قيامه (اللمع ص ٤٢٧) .

(٣) آية ٧٣ سورة طه

القسط العدل ، والقيام بالله العدل بإيفاء حقوقه من نفسك ، واستيفاء حقوقه من كلِّ مَنْ هو لكَ عليه أمر ، وإلى تحصيل ذلك الحق سبيل إمَّا أمر بمعروف أو زجر عن مكروه أو وعظ بنصح أو إرشاد إلى شرع أو هداية إلى حق .

ومَنْ بقى لله عليه حق لم يباشر خلاصة التحقيق سره لله .

وأصل الدِّين[1] إيثار حق الحق على حق الخَلْق ، فمن آثر على الله — سبحانه أحداً إمَّا والداً أو أُمًّا أو وَلَدًا أو قريباً أو نسيباً ، أو ادَّخر عنه نصيبًا فهو بمعزل عن القيام بالقسط .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا آمِنوا بالله ورسوله
والكتابِ الذى نَزَّل على رسوله
والكتابِ الذى أنزل من قبل ،
ومن يكفر باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه
ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ فقد ضلَّ ضلالاً
بعيداً ﴾ .

يأيها الذين آمَنوا من حيث البرهان آمِنوا من حيث البيان إلى أن تؤمنوا من حيث الكشف والعيان .

ويقال يأيها الذين آمَنوا تصديقاً آمِنوا تحقيقاً بأن نجاتكم بفضله لا بإيمانكم .

ويقال يأيها الذين آمنوا فى الحال آمِنوا باستدامة الإيمان إلى المآل[2] .

ويقال يأيها الذين آمَنوا آمِنوا وراء كل وصل وفصل[3] ووجد وفقد .

---

(١) بهذا نستطيع أن نجد صلة رحم بين لفظتى (الدِّين) و (الدَّين) إذ يكون لكل منهما ارتباط — على نحو ما — بالحق وصاحب الحق .

(٢) وردت (المال) وهى خطأ فى النسخ ، فالمقصود بالحال : الدنيا ، والمآل : العقبى

(٣) الوصل معناه لحوق الغائب . وقال يحيى بن معاذ : « من لم يعمِّ عينيه عن النظر إلى ما تحت العرش لم يصل الى ما فوق العرش » . يعنى لم يلحق ما فاته من مراقبة الذى خلق العرش . وقال الشبلى : من زعم انه واصل فليس له حاصل .

والفصل فوت الشيء المرجو من المحبوب .

قال بعضهم فرح الاتصال ممزوج بترح الانفصال (اللمع ص ٤٣٣)

ويقال يأيها الذين آمَنوا باستعمال أدلة العقول آمِنوا إذا أُخِذتم بعقوة الوصول ، واستمكنت منكم حيره البديهة[1] وغلبات الذهول[2] ثم أفقتم عن تلك الغيبة فآمِنوا أن الذى كان غالباً عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات[3] فإن الصمدية منزهة متقدسة عن كل قرب وبعد ، ووصل وفصل .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمَنُوا ثم كَفَرُوا ثم ازدادوا كفراً لم يكنْ اللهُ ليغفر لهم ولا ليَهْدِيَهم سبيلا * بَشِّر المنافقين بأنّ لهم عَذاباً أليما﴾ .

الذين تبدَّلَتْ بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم ، أولئك الذين قصمتهم[4] سطوة العزة حكماً ، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمة وحالاً — فالحقُّ سبحانه لا يهديهم لقصد ، ولا يدلهم على رشد ، فبَشِّرْهم بالفُرْقة الأبدية ، وأخبرهم بالعقوبة السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّةَ فإنَّ العِزَّةَ لله جميعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عليكم فى الكتاب أنْ إذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيرِه، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ ،

---

(١) الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة ، وقال الواسطى : حيرة البديهة أجل من سكون التولى عن الحيرة (اللمع ص ٤٢١) .

(٢) الغلبات عند قوة الرغبة والانفلات من دواعى الهوى والنفوس ، عند قوة رغبة الطالب اذا لاح له أعلام للمزيد فى حال طلبه المطلوب ، فلوظن أن مطلوبه وراء بحر تسبحه أو فى تيه سلكه بالهجوم عند غلبات الإرادة وقوة سلطان المطالبة عليه (اللمع ص ٤١٧) .

(٣) هذا تنبيه هام وخطير يدحض به المضللين والأدعياء ، أولئك الذين شن عليهم القشيرى هجومه العنيف فى مستهل « رسالته » والذين أساءوا إلى التصوف وأهله .

(٤) القصم : الكسر . حكى عن الزقاق أنه قال : لو أن المعاصى كانت شيئاً اخترته لنفسى ما أحزننى ذلك لأن ذلك يشينى ، وإنما قصم ظهرى حين سبق لى منه ذلك . (اللمع ص ٤٣٤) .

إنَّ اللهَ جامِعُ المنافقين والكافرين
في جهنّم جميعاً ﴾ .

من اعتصم بمخلوقٍ فقد التجأ إلى غير مُجير ، واستند إلى غير كهفٍ ، وسقط في مهواة من الغلط بعيد قعرها ، شديد مكرها . أيبتغون العِزَّ عند الذى أصابه ذل التكوين ؟ ! متى يكون له عزٌ على التحقيق ؟ ومَنْ لا عزَّ له يلزمه فكيف يكون له عز يتعدَّى إلى غيره ؟

ويقال لاندرى أى حالتهم أقبح : طلب العز وهم في ذل القهر وأسر القبضة أم حسبان ذلك وتوهمه من غير الله ؟

ويقال مَنْ طَلَبَ الشيء من غير وجهه فالإخفاق[1] غاية جهده ، ومن رام الغنى[2] في مواطن الفاقة فالإملاق قصارى كدّه .

ويقال لو هُدُوا بوجدان العِزِّ لما صُرِفَتْ قُصُودُهم إلى من ليس بيده شيء من الأمر .

قوله : « فإن العزَّةَ لله جميعًا » العزُّ على قسمين : عزٌّ قديمٌ فهو لله وصفاً ، وعزٌّ حادثٌ يختص به سبحانه من يشاء فهو له — تعالى — مِلْكاً ومنه لطفاً[3] .

قوله « وقد نَزَّل عليكم في الكتاب ..... » الآية : لا تجاوروا أرباب الوحشة فإن ظلماتِ أنفسِهم تتعدى إلى قلوبكم عند استنشاقكم مايَرُدُّون من أنفاسهم ، فمن كان بوصفٍ ما متحققًا شاركه حاضروه فيه ؛ فجليسُ مَنْ هو في أُنْسٍ مستأنِسٍ[4] ، وجليسُ من هو في ظلمةٍ مستوحِش .

ويقال هجرانُ أعداءِ الحقِّ فرضٌ ، ومخالفة الأضداد ومفارقتهم دين ، والركون إلى أصحاب الغفلة قَرْعُ بابِ الفرقة .

---

(١) وردت (الأحقاف) وهى خطأ في النسخ إذ المقصود الخيبة والإخفاق .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها بالألف هكذا : (الغنا) .

(٣) يتساءل القشيرى في كتابه « التحبير في التذكير » تحت اسم « العزيز » : فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » وقوله تعالى « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ثم يجيب : لا تنافى بينهما فان العز الذى للرسول وللمؤمنين هو لله تعالى ملكا وخلقا ، وعزه — سبحانه وتعالى — له وصفاً ، فاذا العز كله لله تعالى .

(٤) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مستأنف) ولا معنى لهاهنا والصواب (مستأنس) لتقابل (مستوحش)

قوله : « إنكم إذن مثلهم » : أوضحُ برهانٍ على سريرة (. . . .)[1] صحبة من يقارنه[2] وعِشْرة مَنْ يخادنه ؛ فالشكل مقيلاً بشكله ، والفرعُ منتشرٌ عن أصله .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يتربصون بكم : فإنْ كان لكم فتحٌ مِنَ اللهِ قالوا ألم نكُنْ معكم وإنْ كان للكافرين نصيب قالوا ألَمْ نستحوذ عليكم ونَمْنَعْكُم مِنَ المؤمنين ، فاللهُ يحْكُمُ بينكم يومَ القيامةِ ولن يجعلَ اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾

لمَّا عَدِموا الإخلاص فى الحقيقة ، وما ذقوا فيما استشعروا من العقيدة ، امتازوا[3] عن المسلمين فى الحُكْم ، وباينوا الكافرين فى الاسم ، وواجبٌ على أهل الحقِّ التحرُّزُ عنهم والتحفظ منهم ، ثم ضمن لهم — سبحانه — جميلَ الكفاية بقوله : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »[4] وهذا على العموم ؛ فإن وبال كيدهم إليهم مصروف ، وجزاء مَكْرِهم عليهم موقوف ، والحقُّ — من قِبَلِ الحقِّ سبحانه — منصورٌ أهلُه ، والباطلُ — بنصر الحقِّ سبحانه — مُجتَثٌّ أصلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ إن المنافقين يخادِعون اللهَ وهو خَادِعُهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءون النَاسَ

---

(١) مشتبهة ولا بد أنها كلمة بمعنى (المرء) أو (الشخص) . . . ونحوها

(٢) يقارنه هنا معناها أن يكون له قرين .

(٣) امتازوا هنا معناها افترقوا بعلامات مخصوصة

(٤) قال على رضى الله عنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يوم القيامة حين يحكم الله بينهم ، فلا يكون للكافرين سبيل إلى حجة . ويرى غيره أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا فى الدنيا فلن يستطيعوا عليهم نصراً بالكلية ، ولكن قد يحصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس ولكن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة . (ابن كثير ص ٥٦٧)

ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿
مُذَبْذَبِين بين ذلك لا إلى هؤلاءِ
ولا إلى هؤلاءِ وَمَنْ يُضلِلْ اللهُ فَلَنْ
تَجِدَ له سبيلاً ﴾

خداع المنافقين : إظهار الوفاق فى الطريقة واستشعار الشِرْك فى العقيدة .

وخداع الحق إياهم : ما توهموه من الخلاص ، وحكموا به لأنفسهم من استحقاق الاختصاص ، فإذا كُشِفَ الغطاء أيقنوا أن الذى ظنُّوه شراباً كان سرابا ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »[1] .

وقوله : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا . . . . » الآية : علامة النفاق وجود النشاط عند شهود الخلْق ، وفتور العزم عند فوات رؤية الخلْق .

وقوله : « مذبذبين بين ذلك . . . » الآية : أَخَسُّ الخلْقِ من يَدَعُ[2] صدار العبودية ، ولم يجد سبيلاً إلى حقيقة الحرية[3] ، فلا له من العز شظية ، ولا فى الغفلة عيشة هنية .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا
الكافرين أولياءَ مِنْ دونِ المؤمنين ،
أتريدون أَنْ تجعلوا للهِ عليكم
سلطاناً مُبيناً ﴾

(١) آية : ٤٧ سورة الزمر .

(٢) وردت (تدع) والصواب (يدع) لأن الكلام ليس خطابا ، ومعناها ترك .

(٣) حقيقة الحرية إشارة الى نهاية التحقق بالعبودية لله تعالى ، وهو ألا يملكك شىء من المكونات وغيرها ، فتكون حراً اذا كنت لله عبداً ، كما قال بشر الحافى لسرى السقطى رحمهما الله فيما حكى عنه أنه قال : إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك ، لا ترائِ أهلك فى الحضر ، ولا رفقتك فى السفر ، اعمل لله ، ودع الناس عنك .

وقال الجنيد : آخر مقام العارف الحرية .

وقال بعضهم : لا يكون العبد عبداً حقاً ويكون لما سوى الله مسترقا (اللمع ص ٤٥٠) .

كرَّر[1] عليهم الوعظ، وأكّد بمباينة الأعداء عليهم الأمر، إبلاغاً فى الإنذار، وتغليظاً فى الزجر، وإلزاماً للحجة (. . . .)[2] موضع العذر.

قوله: «أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا»: توعّدَهم على موالاتهم للكفار بما لم يتوعَّد على غيره من المخالفات، لما فيه من إيثار الغير على المعبود؛ وإيثارُ الغير على المحبوب من أعظم الكبائر فى أحكام الوداد. فإذا شَغَلَ من قلبه محلاً — كان للمؤمنين — بالأغيار استوجب ذلك العقوبة فكيف إذا شغل محلاً من قلبه — هو للحق — بالغير؟!

والعقوبة التى توَعَّدَهم بها أنْ يَكِلَهم وما اختاروه من موالاة الكفار، وبئس البدل!

كذلك مَنْ بقى (عن)[3] الحق تركه مع الخَلْق؛ فيتضاعف عليه البلاء للبقاء عن الحق والبقاء مع الخلْق، وكلاهما شديدٌ مِنَ العقوبة.

قوله جل ذكره: «إنَّ المنافقين فى الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ولَنْ تَجِدَ لهم نصيراً».

دلَّتْ الآية على أنَّ المنافق ليس بمُسْتأمنٍ لأنَّ الإيمان ما يوجب الأمان، فالمؤمن يتخلَّص بإيمانه من النار، فما يكون سبب وقوعه فى الدرك الأسفل من النار لا يكون إيماناً، ويقال هذا تحقيق قوله: «والله خير الماكرين» أى مَكْرُه فوق كل مَكْرٍ. لمَّا أظهر المنافق ما هو مكر مع المؤمنين كانت عقوبتهم أشد من عقوبة من جاهر[4] بكفره.

ويقال نقلهم[5] فى آجلهم[6] إلى أشد ما هم عليه فى عاجلهم، لِمَا فى الخبر: «من كان

---

(١) نعرف من مذهب القشيرى أنه لا يميل إلى القول بالتكرار فى القرآن الكريم، ولعل أبسط نتائج هذا المذهب أنه لا يرى فى البسملة التى تأتى فى مستهل كل سورة بلفظها — أى شىء من التكرار، بل هى عنده متجددة بما يتلاءم والسورة، لأجل هذا تستوقفنا هنا كلمة: «كرر» وتتدبر الأسباب القوية التى أرجع إليها التكرار.

(٢) مشتبهة.

(٣) وردت (من) ولكن المعنى يرفضها قطعاً ويؤيد (عن) خصوصاً وقد جاءت (عن) فى العبارة التالية التى هى بمثابة نتيجة للجزء الأول من الكلام.

(٤) وردت (جاهد) بالدال والصواب أن تكون (جاهر) بالراء فالمعنى يقتضى ذلك.

(٥) وردت هكذا (نقلهم) بنقطة محذوفة فوق الحرف الأول ثم ثلاث نقط فوق القاف وربما أراد الناسخ أن يحذف النقطة الثالثة فأخطأ وحذف النقطة التى فوق النون.

(٦) وردت (أجلهم) والصواب (آجلهم).

بحالةٍ لقى الله بها » فالمنافق — اليومَ — فى الدرك الأسفل من الحجر[1] فكذلك ينقلون إلى الدرك الأسفل من النار . والدرك الأسفل من الحجر — اليوم — لهم ما عليهم من اسم الإيمان وليس لهم من الله شظية وهذا هو البلاء الأكبر .

ويقال استوجبوا الدرك الأسفل من النار لأنهم صحبوا اليوم اسم الله الأعظم لا على طريقة الحرمة . ويقال استوجبوا ذلك لأنهم أساءوا الأدب فى حال حضورهم بألسنتهم ، وسوء الأدبِ يوجِبُ الطردَ .

قوله جل ذكره ﴿إلاَّ الذين تابوا وأُصلحوا واعتصموا
بالله وأخلصوا دينَهم للهِ فأولئك
مَعَ المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ
المؤمنين أجْرًا عظيماً﴾ .

لم يشترط كل هذه الشرائط فى رجوع أحدٍ عن جُرْمِهِ ما اشترط فى رجوع المنافقين عن نفاقهم لصعوبة حالهم فى كفرهم . وبعد تحصيلهم هذه الشروط قال لهم : « فأولئك مع المؤمنين » ولم يقل من المؤمنين ، وفى هذا إشارة أيضاً إلى نقصان رتبتهم وإنْ تداركوا بإخلاصهم ما سبق من آفتهم ، وفى معناه أنشدوا :

والعُذر مبسوطٌ ولكنما شتان بين العذر والشكر

ويقال إن حرف (مع) للمصاحبة ، فإذا كانوا مع المؤمنين استوجبوا ما يستوجب جماعة المؤمنين ، فالتوبة ههنا أى رجعوا عن نفاقهم ، وأصلحوا — بصدقهم فى إيمانهم ، واعتصموا بالله بالتبرؤ من حولهم وقوتهم ، وشاهدوا المِنَّة لله عليهم حيث هداهم ، وعن نفاقهم نجَّاهم .

قوله : « وأخلصوا دينهم لله » : ونجاتهم بفضل ربهم لا بإيمانهم فى الحال ، ورجوعهم عن نفاقهم فيما مضى عليهم من الأحوال .

ويقال أخلصوا دينهم لله وهو دوام الاستعانة بالله فى أن يثبتهم على الإيمان ، ويعصمهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من النفاق .

---

(١) نرجح أنها (الهجر) بالهاء ويتأيد ذلك بقوله فيما بعد (ليس لهم من الله شظية) .

ويقال تابوا عن النفاق، وأصلحوا بالإخلاص في الاعتقاد، واعتصموا بالله باستدعاء التوفيق وأخلصوا دينهم لله في أن نجاتهم بفضل الله ولطفه لا بإتيانهم بهذه الأشياء — في التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿ما يفعلُ اللهُ بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم وكان اللهُ شاكرًا عليماً﴾.

هذه الآية من الآيات التي توجب حُسْنَ الرجاء وقوة الأمل، لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبات شيئين اثنين: الشكر والإيمان، وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان؛ فإن الشكر قالة، والإيمان حالة، ولقد هوَّن السبيل على العبد حين[1] رضي منه بقالته وحالته. والشكر لا يصح إلا من المؤمنين فأمَّا الكافر فلا يصح منه الشكر؛ لأن الشكر طاعة والطاعة لا تصح من غير المؤمن.

وقوله: «وآمنتم» يعني في المآل؛ فكأنه بيَّن أن النجاة إنما تكون لمن كانت عاقبته على الإيمان، فمعنى الآية لا يعذبكم الله عذاب التخليد[2] إن شكرتم في الحال وآمنتم في المآل.

ويقال إن شكرتم وآمنتم صدقتم بأن نجاتكم بالله لا بشكركم وبإيمانكم.

ويقال الشكر شهود النعمة من الله والإيمان رؤية الله في النعمة، فكأنه قال: إن شاهدتم النعمة من الله فلا يقطعنَّكم شهودها عن شهود المُنْعِم.

وقوله: «وكان الله شاكراً عليماً» أي والله شاكر عليم، ومعنى كونه شاكراً أنه مادِحٌ للعبد ومُشْهِدٌ عليه فيما يفعله لأن حقيقةَ الشكر وحَدَّه الثناء على المُحْسِن بذكر إحسانه؛ فالعبد يشكر الله أي يثني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والربُّ يشكر للعبد أن يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله يثني عليه بما يفعله من الطاعة مع علمه بأن له ذنوباً كثيرة.

ويقال يشكره — وإنْ عَلِمَ أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله.

---

(١) وردت (من) ونرجح أنها في الأصل (حين)

(٢) وردت (التخليل) ونرجح أنها (التخليد) فهو وصف عذاب جهنم.

ويقال يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصى وقَصْدُه مخالفةُ ربِّه ولكنه يُذْنِبُ لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبة .

ويقال يشكره لأن العبد يعلم فى حالة ذنوبه أن له ربًّا يغفر له .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يحبُّ اللهُ الجهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ وكان اللهُ سميعاً عليماً ﴾

قول المظلوم في ظالمه — على وجه الإذن له — ليس بسوءٍ فى الحقيقة ، لكنه يصح وقوع لفظة السوء عليه كقوله تعالى : « وجزاء سيئةٍ سيئة مثلها »[1] والجزاء ليس بسيئة .

ويقال مَنْ عَلِمَ أن مولاه يسمع استحيا من النطق بكثيرٍ مما تدعو نفسه إليه .

ويقال الجهر بالسوء هو ما تسمعه نفسك منك فيما تُحدِّثُ فى نفسك من مساءة الخلْق ؛ فإن الخواص يحاسبون على ما يتحدثون فى أنفسهم[2] بما (يعد)[3] لا يُطالَب به كثيرٌ من العوام فيما يَسمعُ منهم الناس .

قوله : « إلاَّ مَنْ ظُلِمَ » : قيل ولا من ظُلِمَ . وقيل معناه ولكن مَنْ ظُلِمَ فله أنْ يذكرَ ظالمَه بالسوء[4] .

ويقال من لم يُؤْثِرْ مدحَ الحقِّ على القَدْحِ فى الخَلْقِ فهو المغبون فى الحال .

ويقال من طالَع الخلْقَ بعين الإضافة إلى الحق بأنهم عبيد الله لم يبسط فيهم لسان اللوم ؛

---

(١) الآية ٤٠ سورة الشورى .

(٢) من ذلك ما يحكيه القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » عن الشبلى حيث يقول : « قال بعضهم كنت مع الشبلى — رحمه الله — ففتح له بمنديل حسن فمر بكلب ميت فقال لى : كفن هذا الكلب بهذا المنديل . وعدت إليه فقال لى فعلت ما أمرتك به؟ فقلت : لا . فلم يقل لى شيئاً فقلت له : ماسبب ذلك الذى أمرتنى به؟ فقال : عندما مررت به استقذرته واستقبحته ، فنوديت فى سرى : ألسنا نحن خلقناه ؟ فأمرتك بذلك كفارة لما خطر لى » .

(٣) ربما كانت هذه اللفظة (يعد) زائدة ، أو سقطت (لا) قبلها فيكون معنى (لايعد) لا يحسب ولا يعتبر

(٤) عن ابن عباس : إن الله لا يحب أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له . وعن الحسن البصرى يكفى أن يقول المظلوم « اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه » وفى رواية عنه أنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه .

يقول الرجل لصاحبه : « أنا أحتمِل من (. . . .)[1] خدمتك حرمة لك مالا أحتمله من ولدى » ، فإذا كان مثل هذا معهوداً بين الخلق فالعبد بمراعاة هذا الأدب — بينه وبين مولاه — أولى .

ويقال لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من العوام ، ولا يحب ذلك بخطوره[2] من الخواص .

ويقال الجهر بالسوء من القول من العوام أن يقول فى صفة الله ما لم يَرِدْ به الإذن والتوفيق .

والجهر بالسوء من القول فى صفة الخلق أن تقول ما ورد الشرع بالمنع منه ، وتقول فى صفة الحق ما لا يتصف به فإنك تكون فيه كاذباً ، وفى صفة الخلق عن الخواص ما اتصفوا به من النقصان — وإن كنت فيه صادقاً .

قوله « وكان الله سميعاً عليماً » : سميعاً لأقوالكم ، عليماً بعيوبكم ، يعنى لا تقولوا للأغيار ما تعلمون أنكم بمثابتهم .

ويقال سميعاً لأقوالكم عليماً ببراءةِ ساحةِ مَنْ تقوَّلتُم عليه ، فيكون فيه تهديد للقائل — لبرىءِ الساحةِ — بما يتقوَّلُ عليه .

ويقال سميعاً : أيها الظالم ، عليماً : أيها المظلوم ؛ تهديدٌ لهؤلاء وتبشيرٌ لهؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تُبْدُوا خيراً أو تُخْفُوه ، أو تَعْفُوا عن سوءٍ فإنَّ اللهَ كان عَفُوًّا قديراً ﴾

« إن تبدوا خيراً » تخلقاً بآداب الشريعة ، وتخفوه تحققاً بأحكام الحقيقة .

« أو تعفوا عن سوءٍ » أخذاً من الله ما ندبكم إليه من محاسن الخُلُق .

« فإن الله كان عَفُوّاً » لعيوبكم « قديراً » على تحصيل محبوبكم وتحقيق مطلوبكم .

ويقال إن تبدوا خيراً لتكونوا للناس قدوة فيما تُسِنُّون وما تعينون غيركم على ما يهتدون به من سلوك سُنّتكم ، وإنْ تخفوه اكتفاء بعلمه ، وصيانة لنفوسكم عن آفات التصنُّع ، وثقة

---

(١) مشتبهة .

(٢) أى (بأن يخطر عليهم خاطر) فعقوبة العوام على النطق والقول وعقوبة الخواص على (الخاطر)

بأن[1] من تعملون[2] له يرى ذلك ويعلمه منكم ، وإن تعفوا عن سوءٍ أى تتركوا ما تدعوكم إليه نفوسكم[3] فالله يجازيكم بعفوه على ما تفعلون ، وهو قادر على أن يبتليكم بما ابتلى به الظالم ، فيكون تحذيراً لهم من أن يغفلوا عن شهود المِنَّة ، وتنبيهاً على أن يستعيذوا أن يُسلَبوا العصمة، وأنْ يُخْذَلُوا حتى يقعوا فى الفتنة والمحنة .

ويقال إنْ تبدوا خيراً فتحسنوا إلى الناس ، أو تخفوه بأن تدعوا لهم فى السرِّ ، أو تعفوا عن سوءٍ إنْ ظُلِمْتم .

ويقال من أحسن إليك فأَبْدِ معه خيراً جهراً ، ومن كفاك شرَّه فأخلِصْ بالولاء والدعاء له سِرّاً ، ومن أساء إليك فاعفُ عنه كرماً وفضلاً ، تجدْ من الله عفوَه عنك عما ارتكبتَ ، فإن ذنوبَك أكثرُ ، وهو قادرٌ على أنْ يُعطيَك من الفضل والإنعام مالا تصل إليه بالانتصاف من خصمك ، وما تجده بالانتقام[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ورسله ويريدن أن يفرِّقوا بين الله ورُسُلِه ويقولون نؤمِن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً ﴾ .

أخبر عنهم أنهم أضافوا إلى قبيح كفرهم ما عُدَّ من ذميم فعلهم ، ثم بَيَّنَ أنه

---

(1) أخطأ الناسخ فكتبها (باب)

(2) مستدركة في الهامش (تعملون) لأنها فى المتن (تعلمون) والصواب ما جاء فى الهامش

(3) إشارة القشيرى هنا فى حاجة منا إلى تدبر ، فهو يبدأ أولا بالنفس ، ثم ينتقل إلى الناس ، ذلك لأنه حسب ما نعرف عنه يعتبر صراعك مع نفسك هو الميدان الأول الذى ينبغى أن تحارب فيه أهواءك وأطماعك ودعواك ، فهى أعدى أعدائك ، ثم تأتى من بعد ذلك علاقاتك خارج نفسك أى مع الناس

(4) واضح من هذا مقدار ما يتمتع به الصوفية من رحابة الصدر ولين الجانب وسماحة الطبع .

ضاعف[1] من عذابهم ما كان جزاء جرمهم ، لِتَعْلَمَ أنه لأهل الفساد بالمرصاد .

قوله جل ذكره : ﴿والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ولم يفرِّقوا بين أحَدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾

لما آمنوا بجميع الرسل ، وصَدَّقُوا فى جميع ما أُمِرُوا به استوجبوا القبول وحسن الجزاء .

وتقاصر الإيمان عن بعض الأعيان كتقاصره عن بعض الأزمان ، فكما أنه لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (. . . .)[2] إلى آخر ما له — كذلك لا يقبل إيمان من لم يستغرق إيمانه جميع (من)[3] أُمِرَ بالإيمان به ؛ إذ جعل ذلك شرط تحقيقه وكماله . فالإشارة فى هذا أن من لم يخرج عن عهدة الإلزام بالكلية فليس له من حقيقة الوصل شظية ، قال صلى الله عليه وسلم : « الحجُّ عرفة »[4] فمن قطع المسافة — وإن كان من فج عميق — ثم بقى عن عرفات بأدنى بقية لم يُدْرِكِ الحج .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقى عليه درهم »[5] .

قوله جل ذكره : ﴿يسألك أهلُ الكتابِ أنْ تُنَزِّلَ عليهم كتاباً مِنَ السماءِ فقد سألوا موسى أكبر مِنْ ذلك فقالوا أرِنا

---

(١) وردت (أضعف) وهى خطأ من الناسخ ، ولا بد أن تكون (ضاعف) العذاب لأن جزاء الكافرين عذاب مهين وهو الذل الدنيوى الموصول بالذل الأخروى .

(٢) مشتبهة .

(٣) نرجح أنها فى الأصل (ما) أمر بالإيمان به منعاً للبس ، ويمكن أن نقبل (من) على أنها مرتبطة بالرسل .

(٤) « الحج عرفه من جاء قبل طلوع الفجر من ليلة فقد أدرك الحج أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه (الامام أحمد فى مسنده وأبو عدى فى الكامل والحاكم فى مستدركه والبيهقى فى السنن) ٢/٣٥٨ منتخب كنز العمال .

(٥) « المكاتب عبد ما بقى عليه من كتابته شىء » .
مفتاح كنوز السنة (مادة العتق) للدكتور ا . فنسنك ط لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، ومراجعه سنن أبى داود كتاب ٢٨ باب ١ وسنن ابن ماجه كتاب ١٩ باب ٣ وموطأ مالك كتاب ٣٩ ومسند أحمد حـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٤ .

اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهم الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِم ثم اتَّخذُوا العِجْلَ من بعد
ما جاءتهم البَيِّنَاتُ فعفونا عن ذلك
وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

اشتملت الآية على جنسين من قبيح ما فعلوه : أحدها سؤالهم الرؤية والثانى عبادة العجل بعد ما ظهرت لهم الآيات الباهرة .

فأمّا سؤالهم الرؤية فَذُمُّوا عليـه لأنهم اقترحوا عليه ذلك بعد ما قطع عذرهم بإقامة المعجزات ، ثم طلبوا الرؤية لا على وجه التعليم، أو على موجب التصديق به، أو على ما تحملهم عليه شدة الاشتياق ، وكل ذلك سوء أدب .

الإشارة فيه أيضاً أنَّ مَنْ يكتفى بأن يكون العجلُ معبودَه — متى — يسلم له أن يكون الحقُّ مشهودَه ؟

ويقال القومُ لم يباشِرْ العرفانُ أسرارَهم فلذلك عكفوا بعقولهم[1] على ما يليق بهم من محدودٍ جوّزوا أنْ يكون معبودَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾

حجةً ظاهرةً ، بل تفرداً صانَه من التمثيل والتعطيل .

والسلطان المبين التحصيل والتنزيه المانع من التعطيل والتشبيه .

ويقال السلطان المبين القوة بسماع الخطاب من غير واسطة .

---

(١) هذا كلام له أهمية قصوى فى تحديد مدى تقدير القشيرى لقيمة العقل .

فنحن نعرف من مذهبه فى المعرفة أن العقل يعول عليه فقط فى البداية ، يقول في رسالته ص ١٩٧ (تجب[على] البداءة بتصحيح اعتقاد بين العبد وبين الله تعالى صاف عن الظنون والشبه خال من الضلال والبدع صادر عن البراهين والحجج) ولكن العقل بعدئذ غير جدير بمواصلة الصعود إلى ما هو أعلى من ذلك لأنه يصاب بآفات (التجويز والتحير والتوهم والتحدد) ويناط بغير العقل من الملكات الأخرى وهى القلب والروح والسر وعين السر أو سر السر أن تواصل القصود نحو الذرى العليا . فما أشبه الذين يريدون تطبيق الوسائل العقلية على الربوبية بمن عبدوا العجل ! وعكفوا بعقولهم على المحدود !

ويقال السلطان المبين لهذه الأمة غداً ، وهو بقاؤهم فى حال لقائهم — قال صلى الله عليه وسلم : « لا تضامون فى رؤيته »[1] — فى خبر الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ ورَفَعْنَا فَوْقَهم الطُّورَ بميثاقِهم وقلنا لهم ادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقلنا لهم لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ وأَخَذْنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾

ما زادهم فى الظاهر آيةً إلا زادوا فى قلوبهم جحداً ونُكْراً ، فلم تنفعهم زيادة نصيب الإعلام ، لمَّا لم تنفتح لشهودها بصائرُ قلوبهم ، قال تعالى : « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبِما نَقْضِهم ميثاقَهم وكُفْرِهم بآياتِ اللهِ وقَتْلِهِمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍ وقَوْلِهم قلوبُنَا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكُفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾

معناه لارتكابهم هذه المناهى ، ولا تصافهم بهذه المخازى ، أحللناهم منازل الهوان ، وأنزلنا بهم من العقوبة فنون الألوان .

ويقال لِحَقَهُمْ شؤم المخالفات حالة بعد حالة ، لأن من عقوبات المعاصى الخذلان لغيرها من ارتكاب المناهى ؛ فَبِنَقْضِهِم الميثاق ، ثم لم يتوبوا ، جرَّهم إلى كفرهم بالآيات ، ثم لشؤم كفرهم خذِلُوا حتى قتلوا أنبياءهم — عليهم السلام — بغير حقٍ ، ثم لشؤم ذلك تجاسروا حتى ادَّعوا شدةَ التفهُّم ، وقالوا : قلوبنا أوعية العلوم ، فرَدَّ الله عليهم وقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم » فَحَجَبَهُمْ عن محلِّ العرفان ، فعمهوا فى ضلالتهم .

---

(١) « . . . إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر »
البخارى كتاب ٩ باب ١٥ و ٢٦ وكتاب ٦٥ سورة ٤ مفتاح كنوز السنة ص ٥٧
(٢) آية ١٠١ سورة يونس

قوله جل ذكره : ﴿ وبكفرِهم وقَوْلِهم على مريم بهتانا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صَلبوُه ولـكِنْ شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيـه لفى شكٍّ منه ما لَهُم به مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ﴾

مجاوزةُ الحدِّ ضلالٌ ، كما أن النقصانَ والتقاصرَ عن الحقِّ ضلالٌ ، فقومٌ[1] تَقَوَّلُوا على مريم ورموها بالزنا ، وآخرون جاوزوا الحدَّ فى تعظيمها فقالوا : ابنُها ابنُ الله ، وكلا الطائفتين وقعوا فى الضلال .

ويقال مريم — رضى الله عنها — كانت وليَّةَ الله ، فَشَقِيَ بها فرقتان : أهل الإفراط وأهل التفريط . وكذلك كان أولياؤه — سبحانه — فَمُنْكِرُهُم يَشْقَى بِتَرْكِ احترامهم ، والذين يعتقدون فيهم مالا يستوجبونه يَشْقَوْن بالزيادة فى إعظامهم ، وعلى هذه الجملة دَرَجَ الأكثرون من الأكابر .

قوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه . . يقيناً بل رفعه الله » .

قوله تعالى : « وما صلبوه ولـكن شُبِّهَ لهم . . . . عزيزاً حكيما » قيل أوقع الله شَبَهَهُ[2] على الساعى به فقُتِلَ وصُلِبَ مكانَه ، وقد قيل : مَنْ حفر بئراً لأخيه وقع فيها[3] .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (فقوموا) .

(٢) وردت (شبهة) بالتاء المربوطة والصواب (شبهه)

(٣) اختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه ، وكانوا اثنى عشر رجلا (ذكر أسماءهم) ومنهم ليودس زكريا يوطا . ويقول ابن اسحق (نقلا عن رواية نصرانية) أن ليودس مقابل ثلاثين درهما هو الذى دل الأعداء على عيسى بأن قبّله ساعة دخولهم فأخذوه فصلبوه ، انتهت الرواية .

تعليق : هذه الرواية التى اعتمد عليها ابن اسحق تتفق مع ما جاء فى الأناجيل الأربعة وليودس هذا هو يهوذا الاسخريوطى .

وقيل إن عيسى عليه السلام قال : مَنْ رَضِيَ بأن يُلقَى عليه شَبَهِي فيُقتَلَ دوني فله الجنة ، فرضى به بعضُ أصحابه[1] ، فيقال لمّا صبر على مقاساة التلف لم يعدم من الله الخلف[2] ، قال الله تعالى : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »[3] .

ويقال لمّا صَحّتْ صحبةُ الرجل مع عيسى — عليه السلام — بنَفْسِه صَحِبَه بروحه ، فلمّا رُفِعَ عيسى — عليه السلام — إلى محل الزلفة ، رفع روح هذا الذى فداه بنفسه إلى محل القربة[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكتاب إلا ليُؤْمِنَنَّ به قبل موتِه ، ويومَ القيامةِ يكون عليهم شهيدا ﴾

لما حكم بأن لا أمَانَ لهم فى وقت اليأس لم ينفعهم الإيمان فى تلك الحالة ، فَعُلِمَ أنَّ العِبْرَةَ بأمان الحقِّ لا بإيمان العبد .

قال جل ذكره : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذين هادوا حَرَّمْنَا عليهم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لهم وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً * وأَخْذِهم الرِّبا وقد نُهُوا عنه وأَكْلِهم أموالَ الناسِ بالباطلِ ،وأَعْتَدْنَا للكافرين منهم عذاباً أليما ﴾

---

(١) عن ابن اسحق عن رجل كان نصرانياً وأسلم أنه ذكر له أن عيسى حين جاءه من الله إنى رافعك قال يا معشر الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيق فى الجنة حتى يشبه للقوم فى صورتى فيقتلوه فى مكانى فقال أحدهم واسمه سرجس : أنا يا روح الله . قال : فاجلس فى مجلسى فجلس فيه ، ورفع عيسى (عم) فدخلوا على سرجس وصلبوه .

وفى رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس اتفاق كبير مع ذلك دون ذكر اسم (سرجس) .

(٢) أخطأ الناسخ إذ نقلها (الخلق) بالقاف .

(٣) آية ٣٠ سورة الكهف .

(٤) فى تعبير القشيرى ذكاء ، فى حالة عيسى قال (رفع) دون أن يحدد كيفية الرفع ،أبا الجسد أم بالروح أم بهما معاً ، وفى حالة الثانى قال (رفع روحه) ، ونفهم ــ من حيث المصطلح ــ أن الزلفة أقوى من القربة .

يقال ارتكاب المحظورات يوجب تحريم المُباحات .

فمَنْ ركب محظوراً بظاهره حُرِمَ[1] ما كان يجده من الأحوال المباحة ، والألطاف الحاصلة في سرائره .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الراسخون في العِلْم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاةَ ، والمؤمنون بالله واليوم الآخِر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾

الراسخ في العلم هو ألا يكون في الدليل مُقَلِّداً ، كما لا يكون في الحكم مقلداً ، بل يضع النظر موضعه إلى أن ينتهي إلى حد لا يكون للشكِّ في عقله مساغ .

ويقال الراسخ في العلم من يرتقي عن حد تأمل البرهان[2] ويصل إلى حقائق البيان .

ويقال الراسخ في العلم أن يكون بعلمه عامِلاً حتى يفيد عمله علمَ ماخفي على غيره ، ففي الخبر : « من عمل بما علمه ورَّثه الله علم مالم يعلم »[3] .

وخَصَّ « المقيمين الصلاة » في الإعراب فنَصَبَ اللفظ بإضمار أعني على المدح لِمَا للصلاة من التخصيص من بين العبادات لأنها تالية الإيمان في أكثر المواضع في القرآن ، ولأن الله

---

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (جرم) بالجيم والصواب أن تكون بالحاء لارتباطها بتحريم المباحات فيما سبق .

(٢) أي ينبغي ألا يعكف الانسان على العقل وحده بل عليه أن يرتقي عن هذا الحد .
(راجع الهامش الذي يتناول هذه القضية من هذا الكتاب)

(٣) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك .

ويرى أبو نصر السراج أن هذا العلم الموروث هو علم الاشارة ، فيكشف الله سبحانه لقلوب أصفيائه المعاني المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن ... اللمع ص ١٤٧ (كتاب المستنبطات) .

— سبحانه — أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (بها)[1] ليلةَ المعراج بغير واسطة جبريل عليه السلام . . . وغير هذا من الوجوه .

قوله تعالى « أجراً عظيماً » : الأجر العظيم هو الذى يزيد على قدر الاستحقاق بالعمل .

قال جلَّ ذكره : ﴿ إنَّا أَوْحَينَا إليكَ كَمَا أَوْحَيْنَا
إلى نوحٍ والنبيين مِنْ بَعْدِه وأوحينا
إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاق
ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب
ويُونُس وهٰرون وسليمانَ ، وآتينا
داوود زَبُورا ﴾

إفراد النبى صلى الله عليه وسلم من الأنبياء بالإيمان لإفرادهم بالتخصيص والفضيلة ؛ فأفرد نوحاً على ما استحقه من المقام وأفرد رسولنا عليه السلام على ما استحقه هو ، فاشتركا فى الإفراد لكنهما تباينا فى الفضيلة على حسب المقام ، فتفرَّد واحد من بين أشكاله بغير فضائل ، وتفرَّد آخر من بين أضرابه[2] بألف فضيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرُسُلاً قد قصصناهم عليكَ مِنْ قبلُ
وَرُسُلاً لم نَقْصُصْهُم عليكَ وكلَّم الله
موسى تكليماً ﴾

سُنَّةُ الله فى أوليائه سترُ قومٍ ، وشَهْرُ قومٍ ، وبذلك جرَتْ سُنَّتُهُ أيضاً فى الأنبياء — عليهم السلام — أظهر أسماء قومٍ وأجمل تفصيل آخرين . والإيمان واجب بجميع الأنبياء جملة وتفصيلاً ، كما أن الاحترام واجب لجميع الأولياء جملة وتفصيلا ، وكذلك أحوال العباد ستر عليهم بعضاً وأظهر لهم بعضها ، فما أظهرها لهم — طالبهم بالإخلاص فيها ، وما سترها

(١) إضافة وضعناها ليتماسك المعنى .
(٢) وردت (أخرايه) بالخاء وهى خطأ فى النسخ والصواب (أضرابه) أى (أشكاله) التى سبقت ، والفقرة كلها غير واضحة ، وقد أثبتناها كما هى .

عليهم — فلأنه غار[1] على قلوبهم من ملاحظة أحوالهم تأهيلاً لهم للاختصاص بحقائق أفردهم بمعانيها .

« وكلَّم اللهُ موسى تكليما » : إخبار عن تخصيصه إياه باستماع كلامه بلا واسطة .

قوله جل ذكره : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِين ومُنْذِرِين ﴾

وقَفَ الخلقَ عند مقاديرهم ، وبيَّن أنه أرسل إليهم الرسل فتفردوا عليهم إلى اجتباء ثوابهم ، واجتناب ما فيه استحقاق عذابهم ، وأنه ليس للخلق سبيل إلى راحة يطلبونها ولا إلى آفة يجتنبونها إما فى الحال أو فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ لِئَلَّا يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسُلِ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾

أنَّى يكون لمن له إلى الله حاجة على الله حُجَّة ؟ ! ولكنَّ الله خاطبهم على حسَب عقولهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لكنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إليكَ أَنْزَلَه بِعلمِه والملائكةُ يَشْهَدُون وكَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾

سلاَّه الله عن تكذيب الخلق إياه بما ذكره من علم الله بصدقه ، ولذلك قال : « وكفى بالله شهيداً » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيلِ اللهِ قد ضَلُّوا ضَلَالاً بعيداً * إنَّ الذين كفروا وظَلَمُوا لم يَكُنْ اللهُ لِيَغْفِرَ لهم ولا ليهديَهم طريقاً * إلا طريقَ جهنَّمَ خالدين فيها أبَدَاً ، وكان ذلك على اللهِ يسيرا ﴾

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتى العبدُ المؤمنُ ما حرّم الله تعالى عليه ، الرسالة ص ١٢٦ وقال القشيرى : إذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حق له من طاعة عبده . (الرسالة نفس الصفحة) .

جعل صدَّهم المؤمنين (من)[1] اتباع الحقِّ نظيرَ كفرهم بالله ، واللهُ تعالى عظَّم حقوق أوليائه كتعظيم حقِّ نفسه ، ثم قال : « إن الذين كفروا وظلموا » جعل ظُلْمَهُم سبيلَ كفرهم ، فَعَلَّقَ استحقاق العقوبة المؤبَّدة عليها جميعاً . والظلم — وإنْ لم يكن كالكفر فى استحقاق وعيد الأبد — فَلِشُؤْمِ الظلم لا يبعد أن يخذله اللهُ حتى يُوَافِيَ ربَّه على الكفر .

قوله جل ذكره ﴿ يأيها الناسُ قد جاءكُمُ الرسولُ بالحقِّ
مِنْ ربِّكم فآمِنُوا خَيْرًا لكُم
وإنْ تكْفُروا فإنَّ للهِ مافى السموات
والأرضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾

«ياأهل الكتاب» : أخبر أنه سبحانه غنى عنهم ، فإنْ آمنوا فحظوظ أنفسهم اكتسبوها وإن كفروا[2] فبَلَايَاهُم لأنفسهم اجتلبوها. والحقُّ — تعالى — مُنَزَّه الوصف عن (الجهل)[3] لوفاق أحدٍ ، والنقصِ لخلاف أحد .

قوله : « وإن تكفروا فإن لله مافى السمواتِ والأرض » يعنى إن خرجوا عن استعمال العبودية — فعلاً ، لم يخرجوا عنحقيقة كونهم عبيده — خلْقاً ، قال تعالى : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً »[4]

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تَغْلُوا فى دينِكم
ولا تَقُولُوا على اللهِ إلا الحقَّ
إنَّما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رَسُولُ
اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ مِنْه

---

(١) ربما كانت (عن) فهكذا فى الآية الكريمة .

(٢) فى النسخة (وإن لم تكفروا) ولكنها مصححة باستدراك فى الهامش (وإن كفروا) وهو الأصوب .

(٣) نظن أن الناسخ قد أخطأ فى نقل هذه الكلمة فان من عادة القشيرى فى مثل هذا السياق أن يذكر أن طاعة المطيع ليست زينا للحق ، ومعصية العاصى ليست شينا له ، لأجل هذا نرجح أن العبارة هنا تستقيم لو كانت (والحق تعالى منزه الوصف عن الكمال لوفاق أحد وعن النقص لخلاف أحد) .

(٤) آية ٩٣ سورة مريم .

فآمنوا بالله ورُسلِهْ ، ولا تقولوا ثلاثة
انتَهُوا خيراً لكم إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ
سبحانه أن يكونَ له ولدٌ ، له مافى
السموات وما فى الأرضِ وكفى بالله
وكيلا ﴾ .

غُلُوُّهم فى دينهم جَرْيُهم على مقتضى حسبانهم ؛ حيث وصفوا — بمشابهة الخلْق — معبودَهم ، ثم مناقضتهم ؛ حيث قالوا الواحد ثلاثة والثلاثة واحد[1]، والتمادى فى الباطل لا يزيد غير الباطل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أنْ يكونَ عَبْدًا للهِ ولا الملائكةُ المُقَرَّبون وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عبادتِهِ ويَسْتَكبِرْ فَسَيَحْشُرُهم إليه جميعاً ﴿ فأمَّا الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيوفيهم أُجُورهم ويزيدُهم مِنْ فَضلِهِ ﴾

كيف يستنكف عن عبوديته وبالعبودية شَرَفُهُ ، وكيف يستكبر عن التذلُّلِ وفى استكباره تَلَفُهُ ، ولهذا الشأن نطق المسيح أول مانطق بقوله : إنى عبد الله ، وتجمُّل العبيد فى التذلل للسَّادة ، هذا معلوم لا تدخله ريبة[2] .

وقوله : « ولا الملائكة المقربون » لا يدل على أنهم أفضل من المسيح ، لأنه إنما خاطبهم على حسب عقائدهم ، والقوم اعتقدوا تفضيل الملائكة على بنى آدم .

---

(١) الثلاثة إما أن يكون مقصوداً منها : الله والمسيح ومريم ، وإما — كما ورد فى الأناجيل — الأب والابن والروح القدس ، وسواء انصرفت إلى هؤلاء أم إلى أولئك فانه شرك محض تولى القرآن الكريم تفنيده فى مواضع شتى .

(٢) وردت (رتبة) ولا نحسب أن لها معنى هنا ، ونرجح أنها فى الأصل (ريبة) أى هذا معلوم لا شك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون اللهِ وليّاً ولا نصيراً ﴾

العذاب الأليم ألا يصلوا إليه[1] أبداً بعدما عرفوا جلاله ، فإذا صارت معارفُهم ضرورية[2] فإنهم يعرفون أنهم عنه بقوا[3] ، فحَسَراتُهم حينئذ على مافاتهم أشدُّ عقوبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناسُ قدجاءكم برهانٌ مِنْ ربِّكم ﴾

البرهان ما لاح فى سرائرهم من شواهد الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾

وهو خطابه الذى فى تأملهم معانيه حصولُ استبصارِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمَّا الذين آمنوا باللهِ[4] واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ﴾

« سيدخلهم فى رحمته » : والسين للاستقبال أى يحفظ عليهم إيمانهم فى المآل[5] عند التوفى ، كما أكرمهم بالعرفان والإيمان فى الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾

---

(١) أى يقطع بينهم وبين رؤيته سبحانه ، وفى هذا يقول ذو النون (خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف فى أعظم المحيطات .

ويقول بعضهم : إلهى إذا شئت أن تعذبنى فألق بى إلى النار ولا تعذبنى بذل الحجاب .

(٢) قلنا من قبل فى هامش سابق ـ نقلا عن مذهب القشيرى : إن المعرفة فى البداية كسبية وفى الانتهاء ضرورية ، ومعنى الكلام هنا أنهم يحرمون من أعظم الأشياء متعة بعد ما لاحت لهم بعض المعارف . . وذلك غاية فى التعذيب .

(٣) (عنه بقوا) البقاء عن الله سبحانه أشد أنواع العقاب .

(٤) سقطت (بالله) من الناسخ فأثبتناها فى موضعها .

(٥) وردت (المال) ويلزم وضع المدعلى الألف لتكون (المآل) وقد تكرر هذا فى مواضع كثيرة فيما سبق .

هذه الهداية هى إكرامهم بأن عرفوا أن هذه الهداية من الله لهم فضل لا لأنهم استوجبوها بطلبهم وجهدهم ، ولا بتعبهم وكدّهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة
إن امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أُختٌ
فَلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يَرِثُها
إنْ لم يَكُنْ لها وَلَدٌ فإنْ كانتا اثْنَتَيْنِ
فَلَهُما الثُّلُثان مما ترك ، وإن كانوا
إخوةً رِجالاً ونِساء فللذَّكر مثلُ
حَظِّ الأنثيين ، يُبَيِّنُ اللهُ لكم أنْ
تَضِلوا واللهُ بكل شىءٍ عليم ﴾

قطع الخصومة بينهم فى قسمة[2] الميراث فيما أظهر لهم من النصِّ على الحكم ، فإن المال محبَّبٌ إلى الإنسان ، وجُبِلَت النفوس على الشحِّ ؛ فلو لم ينص على مقادير الاستحقاق (لقابلة الاشباه)[3] فى الاجتهاد ، فكان يؤدى ذلك إلى التجاذب والتواثب ؛ فحَسَمَ تلك الجملة بما نصَّ على المقادير فى الميراث قطعاً للخصام . ولتوريثه للنسوان — وإن لم يوجد منهن الذبُّ عن العشيرة — دلالة على النظر لضعفهن . وفى تفضيل الذكور عليهن لِمَا عليهم مِنْ حَمْلِ[4] المؤن وكذا السعى فى تحصيل المال ، والقيام عليهن .

---

(١) يهدف القشيرى دائماً إلى أن يعود بكل شىء إلى فضل الله ، وأن يشعر العبد دائماً بأن عمله ليس وحده كافياً للنجاة ، فاذا طالع العبد نفسه فى شىء ما فى ذلك وبال عليه .

(٢) وردت (بالصاد) والصواب أن تكون بالسين ، وربما كانت (قضية) فى الأصل .

(٣) هكذا فى النسخة (ص) ونرجح أنها فى الأصل (لقابله الاشتباه) فى الاجتهاد اى ان النص على المواريث ازال كل اشتباه ينجم عن الاجتهاد .

(٤) وردت (بحمل) ونرجح أنها فى الأصل : (حمل) فقبلها جار .

(حاشية) لم يتعرض القشيرى لمعنى (الكلالة) ولقد كنا نود لو أوضح الرأى فيها ، خصوصاً وأن موضوعها منبهم ، وتسمى هذه الآية الأخيرة من سورة النساء بآية الصيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا مالك يعنى ابن مغول يقول سمعت الفضل بن عمرو عن إبرهيم عن عمر بن الخطاب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكلالة فقال : « يكفيك آية الصيف » فقال لأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم . =

السورة التى تذكر فيها المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَماعُ اسم الله يُوجِبُ الهيبة ، (والهيبة)[1] تتضمن الفناء والغيبة ، وسماع الرحمن الرحيم يوجب الحضور والأوبة ، والحضور يتضمن البقاء والقربة .

فمن أسمعه « بسم الله » أدهشه فى كشف جلاله ، ومن أسمعه « الرحمن الرحيم » عَيَّشَه بلُطْفِ أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾

« يا » حرف نداء ، و « أى » اسم منادى ، « ها » تنبيه ، و « الذين آمنوا » صلة المنادى . ناداهم قبل أن بداهم ، وسمَّاهم قبل أن براهم ، وأهَّلهم فى آزاله لِمَا أوصلهم إليه فى آباده .

شرَّفهم بقوله : « يأيها الذين آمنوا » ، وكلَّفهم بقوله « أوفوا »، ولمَا عَلِمَ أن التكليف يوجب المشقة قَدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجِب للعَناءِ .

ويقال الإيمانُ صنفان : أحدهما يشير إلى عين الجود ، والثانى إلى بذل المجهود . فَبَذْلُ المجهودِ خِدْمَتُك ، وعين الجود قِسْمَتُه ؛ فبخدمتك عناء الأشباح ، وبقسمته ضياء الأرواح .

وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب .

ويقال « يأيها الذين آمنوا » : يا مَنْ دخلوا فى إيمانى ، ماوصلتم إلى أمانى إلا بسابق إحسانى .

ويقال يا مَنْ فتحتُ بصيرتَهم لشهود حقى حتى لا يكونوا كمن أعرضتُ عنهم مِنْ خَلْقِى .

= وذكر الإمام أحمد بإسناد آخر أكثر صحة مما سبق .

ومن الأقوال التى ذكرت عن الكلالة انها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالراس من جوانبه ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ، ومن الناس من يقول الكلالة من لا ولد له كما دلت عليه الآية (إن امرؤ هلك ليس له ولد) .

(١) أضفناها لأن السياق يستدعيها ، إذ نرجح أنها سقطت فى النسخ .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾

كُلُّ مُكلَّفٍ مُطَالَبٌ بالوفاء بعَقْده ، والعقد ما ألزمك بسابق إيجابه ، ثم وَفَّقَكَ — بعدما أظهرك عند خطابه — بجوابه[1] ، فانبرم العقد بحصول الخطاب ، والقبول بالجواب .

ويدخل فى ذلك — بل يلتحق به — ما عَقَدَ القلبُ معه سِرًّا بِسِرٍّ ؛ من خلوصٍ له أضمره ، أو شيء تبيَّنه ، أو معنًى كوشف به أو طولب به فقَبِله .

ويقال الوفاء بالعهد بصفاء القصد ، ولا يكون ذلك إلا بالتبرِّى من المُنَّة ، والتحقق بتولى الحق — سبحانه — بلطائف المِنَّة[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عليكم غَيْرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حُرُم ﴾

تحليل بعض الحيوانات وإباحتها من غير جُرْمٍ سَبَق منها ، وتحريم بعضها والمنع من ذبحها من غير طاعة حصلت منها — دليلٌ على ألاَّ عِلَّةَ لصنعه .

وحرَّم الصيد على المُحْرِم خصوصاً لأن المُحْرِمَ متجرِّدٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه ، فالأليق بصفاته كَفُّ الأذى عن كل حيوان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يحكم ما يريد ﴾

لا حَجْرَ عليه فى أفعاله ، فيخصُّ من يشاء بالنُّعمى ، ويفرد من يشاء بالبلوى ؛ فهو يُمْضِى الأمور فى آباده على حسب ما أراد وأخبر وقضى فى آزاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُحِلوا شعائرَ الله ﴾

الشعائر معالم الدِّين ، وتعظيم ذلك وإجلاله خلاصة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بالاستسلام عند هجوم التقدير ، والتزام الأمر بجميل الاعتناق ، وإخلال الشعائر (يكون) بالإخلال بالأوامر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهَدْىَ ولا القلائد ﴾

---

(١) يشير القشيرى إلى قوله تعالى يوم الذر : « ألست بربكم ؟ قالوا بلى » .

(٢) يفرِّق القشيرى بين المُنة للعبد والمِنة للحق .

تعظيم المكان الذى عظّمه الله ، وإكرامُ الزمان الذى أكرمه الله . وتشريف الإعلام على ما أمر به الله — هو المطلوب من العبيد أمراً ، والمحبوب منه حالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا آمِّين البيتَ الحرامَ يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا ﴾

وبالحرىِّ لمن يقصد البيت ألا يخالف ربَّ البيت .

والابتغاء للفضل والرضوان بتوقِّى موجبات السخط ، ومجانبة العصيان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا حَلَلْتُم فاصطادوا ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أنْ تَعْتَدُوا ﴾

وإذا خرجتم عن أمر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم ، فأمّا ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم ، وإنكم لنا .

قوله « ولا يجرمنكم شنآن قوم . . . . » أى لا يحملكم بغضُ قومٍ لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام على ألا تجاوزوا حدَّ الإذن فى الانتقام ، أى كونوا قائمين بنا ، متجردين عن كل نصيبٍ وحظٍّ لكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ .

البِرُّ فِعلُ ما أُمِرْتَ به ، والتقوى تَرْكُ ما زُجِرتَ عنه .

ويقال البِرُّ إيثار حقه — سبحانه ، والتقوى تركُ حظِّك .

ويقال البِرُّ موافقة الشرع ، والتقوى مخالفةُ النَّفْس .

ويقال المعاونة على البِرِّ بحُسْنِ النصيحة وجميل الإشارة للمؤمنين ، والمعاونة على التقوى بالقبض على أيدى الخطائين بما يقتضيه الحال من جميل الوعظ ، وبليغ الزجر ، وتمام المنع على ما يقتضيه شرط العلم .

والمعاونة على الإثم والعدوان بأن تعمل شيئاً مما يقتدى بك لا يرضاه الدِّين ، فيكون قولُك الذى تفعله ويقتدى بك (فيه) سُنَّةً تظهرها و(عليك) نبوُّ وِزْرِها . وكذلك المعاونة

على البر والتقوى أى الاتصاف بجميل الخصال على الوجه الذى يُقتدَى بك فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب ﴾ .

العقوبة ما تعقب الجُرْم بما يسوء صاحبه . وأشد العقوبة حجاب المُعَاقَبِ عن شهود المُعَاقِب ؛ فإنَّ تجرُّعَ كاساتِ البلاء بشهود المُبْلِي أحلى من العسل والشهد .

قوله جل ذكره : ﴿ حُرِّمت عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير ﴾ .

وأكل الميتة أن تتناول من عِرْضِ أخيك على وجه الغيبة[1] ، وليس ذلك مما فيه رخصةٌ بحالٍ لا بالاضطرارِ ولا بالاختيارِ ، وغير هذا من المَيْتَةِ مباحٌ فى حالِ الضرورة .

ويقال كما أنَّ فى الحيوان ما يكون المزكى منه مباحاً والميتة منه حراماً فكذلك من ذبح نفسه بسكاكين المجاهدات وطَهَّرَ نفسه — مُبَاحٌ قربه ، حلال صحبته . ومَنْ ماتت نفسه فى ظلمة غفلته حتى لا إحساسَ له بالأمور الدينية فخبيثةٌ نفسه ، محظورٌ قُربُه ، حرام معاشرته ، غيرُ مباركةٍ صحبته .

وإنَّ السلف سموا الدنيا خنزيرةً ، ورأوا أنَّ مايُلْهِي قربُه ، ويُنْسِي المعبودَ ركونُه ، ويحمل على العصيان جنوحُه — فهو مُحرَّمٌ على القلوب ؛ ففى طريقة القوم حبُّ الدنيا حرامٌ على القلوب ، وإن كان إمساكُ بعضها حلالاً على الأبدان والنفوس .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ﴾ .

كما أنَّ المذبوح على غير اسمه ليس بطيِّبٍ فَمَنْ بَذَلَ رُوحَه فيه وَجَدَ رَوْحه منه ، ومن تهارشته كلاب الدنيا ، وقلته مخالب الأطماع ، وأسرَتْه مطالبُ الأغراض والأعراض — فحرامٌ ماله على أهل الحقائق فى مذهب التعزز ، فللشريعةِ الظرف والتقدير .

وأمَّا المنخنقة فالإشارة منه إلى الذى ارتبك فى حِبال المنى والرغائب ، وأخذه خناقُ

---

(١) يشير القشيرى بذلك إلى قوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ... » .

الطمع ، وخنقته سلاسل (الحرْص)[1] فحرامٌ على السالكين سلوك خطتهم ، ومحظور على المريدين متابعة مذهبهم .

وأمَّا الموقوذة فالإشارة منها إلى نفوس جُبِلَت على طلب الخسائس حتى استملكتها كلها فهى التى ذهبت بلا عوض حصل منها ، وأمثال ذلك حرامٌ على أهل هذه القصة .

والإشارة من المتردية إلى من هلك فى أودية التفرقة ، وعمى عن استبصار رشد الحقيقة ؛ فهو يهيم فى مفاوز الظنون ، ويتهك فى متاهات المنى .

والإشارة من النطيحة إلى من صَارَعَ الأمثال ، وقارع الأشكال ، وناطح كلاب الدنيا فحطموه بكلاب حرصهم ، وهزموه بزيادة تكلبهم ، وكذلك الإشارة من :

قوله جلّ ذكره : ﴿وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ﴾ .

وأكيلة السبع ماولغت فيه كلاب الدنيا ، فإن الدنيا جيفة ، وأكَلَةُ الجيفِ الكلابُ ويستثنى منه المزكى وهو ما تقرر من متاع الدنيا لله ؛ لأن زادَ المؤمنِ من الدنيا : ما كان لله فهو محمود ، وما كان للنَّفْس فهو مذموم .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا ذُبِحَ على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام﴾ .

فهو ما أُرْصِدَ لغير الله ، ومقصودُ كلِّ حريصٍ — بموجب شرعه — معبودُه من حيث هواه. قال الله تعالى . « أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه » يعنى اتّخذ هواه إلهه .

« وأن تستقسموا بالأزلام » ، الإشارة منه إلى كل معاملة ومُصاحبةٍ بُنِيَتْ على استجلاب الحظوظ الدنيوية — لا على وجه الإذن — إذ القمار ذلك معناه . وقَلَّتْ المعاملات المجرَّدَة عن هذه الصفة فيما نحن فيه من الوقت .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلِكم فِسْقٌ ﴾

أى إيثار هذه الأشياء انسلاخ عن الدِّين .

---

(١) وردت (الحرس) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليوم يَئِس الذين كفروا من دينكم فلا تخشَوْهم واخشَوْنِ ﴾

أى بعدما أزَحْتم عن قلوبكم آثارَ الحسبان ، وتحققتم بأن المتفرد بالإبداع نحن ، فلا تلاحظوا سواى ، ولا يُظَلِّلَنَّ قلوبكم إشفاقٌ من غيرى .

ويقال إذا كانت البصائرُ متحققة بأن النَّفع والضر ، والخير والشر لا تحصل شظية منها إلا بقدرة الحق — سبحانه ، فمن المحال أن تنطوى — من مخلوق — على رَغَبٍ أو رَهَبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ اليومَ أكملت لكم دينكم ﴾

إكماله الدين — وقد أضافه إلى نفسه — صَوْنُه العقيدة عن النقصان ؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلَها بأنوار تأييده وتسديده ، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصيرٍ ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور .

ويقال إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ فى المآلِ ، كما أن ابتداء الدِّين توفيقُ الحصول فى الحال ؛ فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول ، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول .

ويقال إكمال الدين أنه لم يبق شىء يعلمه الحق — سبحانه — من أوصافه وقد علَّمك .

ويقال إكمال الدين أن ما تقاصر عنه عقلك من تعيين صفاته — على التفصيل — أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار .

وإنما أراد بذكر « اليوم » وقتَ نزول الآية . وتقييد الوقت فى الخطاب بقوله « اليوم » لا يعود إلى عين إكمال الدِّين ، ولكن إلى تعريفنا ذلك الوقت .

والدِّينُ موهوبٌ ومطلوبٌ ؛ فالمطلوب ما أمكن تحصيله ، والموهوبُ ما سبق منه حصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾

النعمة — على الحقيقة — ما لا يقطعك عن المنعم بل يوصلك إليه ، والنعمة المذكورة

ها هنا نعمة الدِّين ، وإتمامها وفاء المآل ، واقتران الغفران وحصوله . فإكمال الدين تحقيق المعرفة ، وإتمام النعمة تحصيل المغفرة . وهذا خطاب لجماعة المسلمين ، ولا شك فى مغفرة جميع المؤمنين ، وإنما الشك يعترى فى الآحاد والأفراد هل يبقى على الإيمان ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾

وذلك لما قَسَمَ للخَلْق أديانَهم ؛ فخصّ قوماً باليهودية ، وقوماً بالنصرانية ، إلى غير ذلك من النِّحَلِ والمِلَلِ ، وأفرد المسلمين بالتوحيد والغفران .

وقدَّمَ قومٌ الإكمالَ على الإتمام ، فقالوا : الإتمام يقبل الزيادة ، فلذلك وَصَفَ به النعمة لقبول النِّعم للزيادة ، ولا رتبةَ بعد الكمال فلذلك وصف به الدين .

ويقال لا فرق بين الدِّين والنعمة المذكورة ها هنا ، وإنما ذُكِرَ بلفظين على جهة التأكيد ، ثم أضافه إلى نفسه فقال : « نعمتى » وإلى العبد فقال : « دينكم » . فوَجْهُ إضافته إلى العبد من حيث الاكتساب ، ووجه إضافته إلى نفسه من حيث الخَلْق . فالدين من الله عطاء ، ومن العبد عناء[1] ، وحقيقة الإسلام الإخلاص والانقياد والخضوع لجريان الحكم بلا نزاعٍ فى السِّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فى مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثم فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾

الإشارة من هذه الآية أنه لو وقع لسالكٍ فترة ، أو لمريدٍ فى السلوك وقفة ، ثم تنبَّه لعظيم واقعه فبادر إلى جميع الرَّجْعَةِ باستشعار التحسّر على ما جرى تدارَكَتْهُ الرحمةُ ، ونظر الله — سبحانه — إليه بقبول الرجعة .

والإشارة من قوله « غير متجانفٍ لإثم » أى غير معرِّج على الفترة ، ولا مستديمٍ لعُقْدةِ الإصرار ، ويحتمل أن يكون معناه من نزل عن مطالبات الحقائق إلى رُخَصِ العلم لضعفٍ وَجَدَه فى الحال فربما تجرى معه مُساهلةٌ إذا لم يفسخ عَقْدَ الإرادة .

---

(١) هذه العبارة تساوى فى المعنى ماسبق ذكره ان « الدين موهوب ومطلوب » والمقصود بالعناء أن الدين معاناة وممارسة من جانب العبد .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وما علَّمتم من الجوارح مكلبين تُعلِّمُونهُنَّ مما علَّمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسمَ اللهِ عليه ، واتقوا الله إن اللهَ سريعُ الحساب ﴾

لما علموا أن الحَسَنَ من أفعالهم ما ورد به الأمر وحصل فيه الإذن تعرَّفوا ذلك من تفصيل الشرع ، فقال : « يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم » ثم قال :

« قل أحل لكم الطيبات » وهو الحلال الذى تحصل من تناوله طيبةُ القلوب فإنَّ أَكْلَ الحرام يُوجِبُ قسوة القلبِ ، والوحشةُ مقرونةٌ بقسوةِ القلبِ ، وضياء القلوب وطِيبُ الأوقات متصلٌ بصَوْن الخُلُق عن تناول الحرام والشبهات .

وقوله : « وما علمتم من الجوارح مكلبين » : ولمَّا كان الكلب المُعَلَّمَ تركَ حظَّه ، وأمسك ما اصطاده على صاحبه حلت فريسته ، وجاز اقتناؤه ، واستغرق فى ذلك حكم خساسته فكذلك مَنْ كانت أعماله وأحواله لله — سبحانه — مختصة ، ولا يشوبها حظ تَجِلُّ رتبتُه وتعلو حالته .

ويقال حُسْنُ الأدب يُلحِقُ الأَخِسَّة برتبة الأكابر ، وسوء الأدب يَرُدُّ الأعِزَّة إلى حالة الأصاغر .

ثم قال : « واذكروا اسم الله عليه » : بيَّن أنَّ الأكلَ — على الغفلة — غير مَرْضِيٍّ عنه (فى القيمة)[1] .

« واتقوا الله إن لله سريع الحساب » بحيث لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحسابِ — اليومَ — مع الأحباب والأولياء ، فهم لا يُسامَحون فى (الخطوة)[2] ولا فى اللحظة ، معجَّلٌ حسابُهم ، مُضاعَفٌ — فى الوقتِ — ثوابُهم وعقابُهم .

---

(١) وضعت (فى القيمة خطأ) بعد سريع الحساب وقد أثبتناها فى موضعها الصحيح .
(٢) ربما كانت فى الأصل (الخَطْرَةُ) بالراء فالأكابر يحاسبون على أدق خاطر يخطر على قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ المؤْمِناتِ وَالْمُحْصَنَاتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورَهن مُحْصِنِين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ، ومَنْ يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عَمَلُه وهو فى الآخرةِ من الخاسرين ﴾

ليس الطَّيِّبُ ما تستطيبه النفوس، ولكن الطيب مايوجد فيه رضاء الحق — سبحانه — فتوجد عند ذلك راحةُ القلوب .

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم » : القَدْرُ الذى بيننا وبينهم من الوفاق فى إثبات الربوبية لم يَعْرَ من أثرٍ فى القربة فقال الله تعالى : « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى »[1]

وكذلك الأمر فى المحصنات من نسائهم . وأُحِلَّ الطعامُ والذبيحةُ بيننا وبينهم من الوجهين فيحلُّ لنا أكل ذبائحهم ، ويجوز لنا أن نطعمهم من ذبائحنا ، ولكن التزوج بنسائهم يجوز لنا ، ولا يجوز تزوجهم بنسائنا لأن الإسلام يعلو ولا يُعْلَى .

ثم قال « محصنين غير مسافحين » يعنى إنهم وإن كانوا كفاراً فلا تجب صحبتهن بغير نكاح تعظيما[2] لأمرِ السِّفاح ، وتنبيهاً على وجوب مراعاة الأمر من الحق . وكذلك « ولا متخذى أخدان » لأنه إذا لم يجز تعلق قلبك بالمؤمنين على وجه المخادنة فمتى يسلم ذلك مع الكفار الذين هم الأعداء ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة

---

(١) آية ٨٢ سورة المائدة .

(٢) تعظيما هنا معناها تهويلا واستبشاعاً .

فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
وامسحوا برءوسكم وأرجلكم
إلى الكعبين ﴾

كما أنَّ فى الشريعة لا تصحُّ الصلاةُ بغيرِ الطهور فلا تصحُّ — فى الحقيقة — بغير طهور .

وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر أيضاً طهارة ، وطهارةُ الأبدان بماء السماء أى المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسلُ الوجهِ عند القيام إلى الصلاة يجب — فى بيان الإشارة — صيانةُ الوجه عن التبذُّل للأشكال عن طلب خسائس الأعراض .

وكما يجب غسلُ اليدين فى اليدين فى الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة .

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد .

وكما يجب غسل الرِجْلين فى الطهارة يجب صونهما فى الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كنتم جُنُباً فاطهروا وإن كنتم
مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ
منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم
تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً
فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾

كما يقتضى غسل جميع البدن فى الطهارة ، كذلك فى الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء ، وذلك عندما تقع للمريد فَتْرةٌ فيقوم بتجديد عقدٍ ، وتأكيد عهد ، والتزام عزامة ، وتسليم وقتٍ ، واستدامة ندامة ، واستشعار خجل .

وكما أنه إذا لم يجد المتطهرُ الماءَ ففَرْضُهُ التَّيَمُّمُ فكذلك إذا لم يجد المريد مَنْ يفيض عليه صَوْبَ همته ، ويغسله ببركات إشارته ، ويعينه بما يثوب به من زيادة حالته — اشتغل بما تيسَّر له من اقتفاء آثارهم ، والاستراحة إلى ما يجد من سالف سِيَرِهم ، وما ورد من حكاياتهم .

وكما أن فرض التيمم على الشطر والنقصان فكذلك المطالبات على إصفاء هـذه الحالة تـكون أخف لأنه وقت الفترة وأزمان الضعف .

قوله جل ذكره : ﴿ مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾

وتلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقى المريد عن أحكام الإرادة فليَحْطُطْ رِجْلَه بساحات العبادة ، فإذا عَدِمَ اللطائف فى سرائره فَلْيَسْتَدِمْ الوظائف على ظاهره ، وإذا لم يتحقَّقْ بأحكام الحقيقة فليتخلق بآداب الشريعة ، وإن لم يتحرج عن تَرْكِه الفضيلة فلا يدنسْ تصرفه بالحرام والشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولـكن يريد ليطهركم ﴾

أى يطهر ظواهركم عن الزلة بعصمته ، ويطهر قلوبكم عن الغفلة برحمته .

ويقال يطهر سرائركم عن ملاحظة الأشكال ، ويطهر ظواهركم عن الوقوع فى شِباك الأشغال .

ويقال يطهر عقائدكم عن أن تتوهموا تدنُّسَ المقادير بالأعلال .

قوله جل ذكره : ﴿ وليتم نعمته عليكم لعلـكم تشكرون ﴾

إتمام النعمة على قومٍ بنجاة نفوسهم ، وعلى آخرين بنجاتهم عن نفوسهم ، وشتَّان بين قوم وقوم ! .

ويقال إتمام النعمة فى وفاء العاقبة ؛ فإذا خرج من الدنيا على وصف العرفان والإيمان فقد تَمَّتْ سعادته ، وصَفَتْ نعمته .

ويقال إتمام النعمة فى شهود المنعِم ؛ فإنَّ وجودَ النعمة لـكل أحد ولـكنَّ إتمامَها فى شهود المنعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقـكم به ﴾

الإشارة منه إلى التعريف السابق الذى لولاه ما علمْتَ أنه من هو .

ويقال أمرهم بتذكُّر ما سبق لهم من القِسَمِ وهم فى كَتْمِ العدَم ، فلا للأغيار عنهم خبر ،

ولا لهم عين ولا أثر ، ولا وقع عليهم بصيرة ، وقد (سماهم)[1] بالإيمان ، وحكم لهم بالغفران قبل حصول العصيان ، ثم لما أظهرهم وأحياهم عرَّفهم التوحيد قبل أن كلّفهم الحدود ، وعرض عليهم بعد ذلك الأمانة وحذّرهم الخيانة ، فقابلوا قوله بالتصديق ، ووعَدُوا من أنفسهم الوفاء بشرط التحقيق ، فأمدَّهم بحسن التوفيق، وثَبَّتهم على الطريق ، ثم شكرهم حيث أخبر عنهم بقوله جل ذكره : « إذ قلتم سمعنا وأطعنا » .

ثم قال : « واتقوا الله » : يعنى فى نقض ما أبرمتم من العقود ، والرجوع عمّا قدمتم من العهود ، « إنَّ الله عليم بذات الصدور » لا يخفى عليه من خطرات قلوبكم ونيات صدوركم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله
شهداء بالقسط ﴾

لا يُعَوِّقَنَّكم حصولُ نصيبٍ لكم فى شىء عن الوفاء لنا ، والقيام بما يتوجَّب عليكم من حقنا .

ويقال من لم يقسط عند مواعد رغائبه ، ولم يمحُ عنه نواجم شهواته ومطالبه لم يقم لله بحق ولم يفِ لواجباته بشرط .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يجرِمنكم شنآن قومٍ على
ألا تعدِلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى
واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

أى لا تحملكم ضغائن صدوركم على الحلول بجنبات الحيف فإنَّ مرتعَ الظلمِ وبىء ، ومواضع الزيغ مهلكة .

ثم صرَّح بالأمر بالعدل فقال : « اعدلوا » ولا تكون حقيقة العدل إلا (بالعدول)[2] عن كل حظٍ ونصيب .

---

(١) نرجح أنها فى الأصل (وسَمَهُم) فالوسم فى الاصطلاح تتعلق بالأزل وهذا يتفق مع السياق .
(٢) وردت (بالعدوان) والصواب أن تكون (بالعدول) كما هو واضح .

والعدلُ أقربُ إلى التقوى ، والجَوْرُ أقربُ من الرَّدَى ، ويُوقِـعُ عن قريبٍ في عظيم البلوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وعـد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾

والمغفرة لا تـكون إلا للذنب ، فوصفهم بالأعمال الصالحات ، ثم وعدهم المغفرة لِيُعْلَمَ أن العبد تـكون له أعمال صالحة وإن كانت له ذنوب تحتاج إلى غفرانها ، بخلاف ما تَوَهَّمَ مَنْ قال إن المعاصي تُحْبِطُ الطاعات .

ويقال بيَّن أن العبد وإن كانت له أعمال صالحة فإنه يحتاج إلى عفْوِه وغفرانه ، ولولا ذلك لَهَلَكَ ، خلافاً لمن قال إنه لايجوز أن يُعَذِّبَ البرئ ويجب أن يثيب المحسنين[1] .

ويقال لو كان ثوابُ المحسنين واجباً ، وعقوبةُ البرىء غيرَ حسنة لـكان التجاوزُ عنه واجباً عليه ، ولم يكن حينئذ فضل يمن به عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنـا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

لهم عقوبتان : معجلة وهى الفراق ، ومؤجلة وهى الاحتراق .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أنْ يَبْسُطُوا إليكم أيديَهم فـكفَّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

يذكِّرهم ماسلف لهم من نِعَم الدفع[2] وهو ماقصر عنهم أيدى الأعداء ، وذلك من أمارات

---

(1) يشير القشيرى بذلك إلى أقوال المعتزلة بوجوب إثابة المطيع ومعاقبة العاصى — على الله . فلا وجوب — فى نظره — على الله ، وإنما كل شىء منه فضل ، ولا قيمة لعمل العبد بجانب هذا الفضل .

(2) يميز القشيرى بين نعمتين : نعمة دفع ونعمة نفع .

العناية . ولقد بالغ فى الإحسان إليك مَنْ كان يُظْهِر لك الغيبَ من غير التماسٍ أو سَبْق شفاعةٍ فيك ، أو رجاءِ نفعٍ من المستأنف[1] منك ، أو حصول ربحٍ فى الحال عليك ، أو وجود حق فى المستأنف لك .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » يعنى كما أحسنت إليكم فى السالف من غير استحقاق فانتظروا جميل إحسانى فى (الغابر)[2] من غير (استيجاب)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ بنى إسرائيل ويعثنا منهم اثنى عَشَرَ نقيباً وقال الله إنى معكم﴾ .

يذكرهم حُسْنَ أفضاله معهم ، وقبح (فعلهم)[4] فى مقابلة إحسانه بنقضهم عهدهم . وعرف المؤمنين — تحذيراً لهم — ألا ينزلوا منزلتهم فيستوجبوا مثل ما استوجبوه من عقوبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزَّرْتموهم﴾ .

أى لئن قمتم بحقى لأوصلن إليكم حظوظكم ، ولئن أجللتم أمرى فى العاجل لأُجِلَّن قَدْرَكم فى الآجل .

وإقامة الصلاة أن تشهد مَنْ تعبده ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعْبد اللهَ كأنَّكَ تراه » .

ويقال إقامة الصلاة شرطها أنْ تُقْبِلَ على مَنْ تناجيه بأن تستقبل القُطْرَ الذى الكعبة فيه . وأمَّا إيتاء الزكاة فحقُّه أن تكسب المال من وجهه ، وتصرفه فى حقه ، ولا تمنع الحق

---

(١) أى ما يمكن أن نقدمه من طاعات فى المستقبل ، فالله غنى عنه .

(٢) نرجح أنها (الحاضر) حتى ينسجم السياق فإن (الغابر) و (السالف) بمعنى (الماضى) .

(٣) يمنى استحقاق .

(٤) وردت (فعلهم) بميم زائدة من الناسخ .

الواجب فيه عن أهله ، ولا تؤخر الإيتاء عن وقته ، ولا تُحْوِج الفقير إلى طلبه فإنَّ الواجبَ عليكَ أن توصل ذلك إلى مستحقه .

وتعزير[1] الرسل الإيمان بهم على وجه الإجلال ، واعتناق أمرهم بتمام الجد والاستقلال ، وإيثارهم عليك فى جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، والفقراء يبذلون مهجَتهم وأرواحَهم فى طلب الله ، (فأولئك)[2] عن مائتى درهم يُخْرِجُون خَمْسَة ، وهؤلاء لا يدخرون عن أمره نَفَساً ولا ذرَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ لأُكفِّرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

التكفير هو الستر والتغطية ، وإنه يستر الذنوب حتى عن (العاصى)[3] فيمحو من ديوانه ، ويُنْسِي الحَفَظَة سوالف عصيانه . وينفى عن قلبه تذكر ما أسلفه ، ولا يوقفه فى العرصة على ماقَدَّم من ذنبه ، ثم بعد ذلك يدخله الجنة بفضله كما قال : « ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، كما قيل :

ولما رضوا بالعفو عن ذى زلة حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾

فَمَنْ جَحَدَ هذه الأيادى بعد اتضاحها فقد عَدَلَ عن نَهْجِ أهل الوفاء ، وحاد عن سَنَنِ أصحاب الولاء .

قوله جل ذكره ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنَّاهم ﴾

جعل جزاء العصيان الخذلانَ للزيادة فى العصيان .

---

(١) وردت (وتعزم) والصحيح (وتعزير) والعزر فى اللغة الرد ومعناها هنا رددتم عنهم أعداءهم ونصرتموهم .

(٢) وردت (فهؤلاء) وقد جعلناها أولئك إشارة إلى البعيد ليتميز كل فريق .

(٣) وردت (المعاصى) بالميم والصواب بدونها فهكذا يتطلب السياق .

قوله جل ذكره : ﴿وجعلنا قلوبهم قاسيةً يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعِه﴾

وتحريفهم الكلم عن مواضعه نوعُ عصيان منهم ، وإنما حرَّفوا لقساوة قلوبهم . وقسوة القلب عقوبة لهم مِنْ قِبَل الله تعالى على ما نقضوه من العهود ، ونقض العهد أعظمُ وِزْرٍ يلم به العبد ، والعقوبة عليه أشد عقوبة يُعاقَبُ بها العبد ، وقسوة القلب عدم التوجع مما يُمتَحَنَ به من الصدِّ ، وعن قريبٍ يُمتَحَن بمحنة الرد بعد الصدّ[1] ، وذلك غاية الفراق ، ونهاية البعد .

ويقال قسوة القلب أولها فَقْدُ الصفوة ثم استيلاء الشهوة ثم جريان الهفوة ثم استحكام القسوة ، فإن لم يتفق إقلاع عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة .

ومن تحريف الكلم — على بيان الإشارة — حَمْلُ الكلم على وجوهٍ من التأويل مما تسوِّل لصاحبِه نَفْسُه ، ولا تشهد له دلائلُ العلم ولا أصلُه[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ونَسُوا حظًّا مما ذُكِّرُوا به﴾

أوَّلُ آفاتِهم نسيانُهم ، وما عصوا ربهم إلا بعد ما نسوا ، فالنسيان أول العصيان ، والنسيانُ حاصلٌ من الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾

الخيانة أمرها شديد وهي من الكبار أبعد ، وعليهم أشد وأصعب . ومن تعوَّد اتباع الشهوات ، وأُشْرِبَ في قلبه حُبَّ الخيانة فلا يزال يعيش بذلك الخُلُق إلى آخر عمره ، اللهم إلا أن يجودَ الحقُّ — سبحانه — عليه بجميلِ اللطف .

قوله جل ذكره : ﴿فاعفُ عنهم واصفحْ إن اللهِ يحب المحسنين﴾

قد يكون موجب العفو حقارة قدر المعفو عنه إذ ليس كل أحدٍ أهلاً للعقاب . وللصفح

(١) من هذا نفهم أن (الرَّد) عند القشيري أقرب وأشد وقعاً من (الصد) ،

(٢) هذا أصل من أصول التأويل المقبول في نظر القشيري ، وهو في الوقت نفسه يوضح صفة في التفسير الإشاري .

على العفو مزية وهى أن فى العفو رفع الجناح ، وفى الصفح إخراج ذكر الإثارة من القلب ، فمن تجاوز عن الجانى ، ولم يلاحظه — بعد التجاوز — بعين الاستحقار والازدراء فهو صاحب الصفح .

والإحسان تعميمٌ — للجمهور — بإسداء الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقَهم فَنَسُوا حظّاً مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم اللهُ بما كانوا يصنعون ﴾

الإشارة فى هذه الآية أن النصارى أثبت لهم الاسم بدعواهم فقال : « قالوا إنا نصارى » وسموا نصارى لتناصرهم ، وبدعواهم حرّفوا وبدّلوا ، وأما المسلمون فقال : « هو سمّاكم المسلمين »[1] .

كما قال : « ورضيت لكم الإسلام دينا »[2] فلا جَرَمَ ألا يسموا بالتناصر . ولمَّا سمّاهم الحقُّ بالإسلام ورَضِيَ لهم به صانهم عن التبديل فَعُصِمُوا .

ولما استمكن منهم النسيان أبدلوا بالعداوة فيما بينهم ، وفساد ذات البين ؛ فأرباب الغفلة لا أُلفة بينهم . وأهل الوفاء لا مباينة لبعضهم من بعض ، قال صلى الله عليه وسلّم : « المؤمنون كنفس واحدة »[3] ، وقال تعالى فى صفة أهل الجنة : « إخواناً على سرر متقابلين »[4] .

---

(١) آية ٧٨ سورة الحج ،

(٢) آية ٢ سورة المائدة .

(٣) فى رواية الإمام مسلم عن النعمان بن بشير .
المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله ، وإن اشتكى عينه اشتكى كله . . . » صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٧١ .

(٤) آية ٤٤ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُون من الكتابِ ويعفو عن كثير ﴾

وصف الرسول — صلى الله عليه وسلم — بإظهار بعض ما أخفوه ، وذلك علامة على صدقه ؛ إذ لولا صدقه لما عَرَفَ ذلك . ووصفه بالعفو عن كثير من أفعالهم ، وذلك من أمارات خُلُقِه ؛ إذ لولا خُلُقُه لَمَا فعل ذلك ؛ فإظهار ما أبداه دليل عِلْمه ، والعفو عما أخفى برهان حِلْمه .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءكُم مِنَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين * يَهْدِي به اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضوانَه سُبلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾

أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغنى عند فقد البصيرة ، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار ، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ ابنُ مريم قُلْ فَمَنْ يملِكُ مِن الله شيئاً إنْ أرادَ أنْ يُهلكَ المسيحَ ابنَ مريم وأمَّه ومَنْ فى الأرضِ جميعاً ، ولله مُلْكُ السموات والأرضِ وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير ﴾

مَنْ اشتملت عليه أرحامُ الطوامث متى يفارقه نَقْصُ الخلْقة ؟
ومَنْ لاحت عليه شواهدُ التغيُّر أنَّى يليق به نعت الربوبية ؟

ولو قَطَعَ البقاء عن جميع ما أوجد فأى نقصٍ يعود إلى الصمد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خَلَقَ يغفر لِمَنْ يشاء ويعذِّب من يشاء ، ولله ملكُ السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾

البنوة[1] تقتضى المجانسة ، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ ، والمحبـةُ بين المتجانسين تقتضى الاحتظاظ والمؤانسة ، والحق سبحانه عن ذلك مُقدَّس .

فردَّ الله — سبحانه — عليهم فقال تعالى : « بل أنتم بشر ممن خلق » .

والمخلوق لا يصلح أن يكون بعضاً للقديم ؛ فالقديم لا بعضَ له لأن الأحدية حقه ، فإذا لم يكن له عدد لم يجز أن يكون له ولد . وإذا لم يجز له ولد لم تجز — على الوجه الذى اعتقدوه — بينهم وبينه محبة .

ويقال فى الآية بشارة لأهل المحبة بالأمان من العذاب والعقوبة به لأنه قال : « قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم » .

ويقال بيَّن فى هذه الآية أن قصارى الخلْق إمَّا عذاب وإمّا غفران ولا سبيل إلى شىء وراء ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهلَ الـكتابِ قد جاءكم رسولُنا يبين لـكم على فَتْرَةٍ من الرسلِ أَنْ تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير ، فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ ، والله على كل شىءٍ قديرٌ ﴾

---

(1) وردت (النبوة) وهى خطا فى النسخ لأن الإشارة عائدة إلى ما جاء فى الآية : « نحن أبناء الله »

يقال فى : كل زمان تقع فَتْرَة فى سبيل الله ثم تتجدد الحال ، ويَعُمُّ الطريق بإبداء السالكين من كتم العَدَم ، ولقد كان زمانُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أكثرَ الأزمنة بركةً ، فأحيا بظهوره ما اندرس من السبيل ، وأضاء بنوره ما انطمس من الدليل ، وبذلك مَنَّ عليهم ، وذكَّرهم عظيمَ نعمتِه فيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قومِ اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾

كان الأمر لبنى اسرائيل — على لسان نَبيِّهم — بأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، وكان الأمر لهذه الأمة[1] — بخطاب الله لا على لسان مخلوق — بأن يذكروه فقال : « فاذكرونى أذكركم »[2] وشتان بين من أمره بذكره — سبحانه — وبين من أمره بذكر نعمته ! ثم جعل جزاءهم ثوابَه الذى هو فضله ، وجعل جزاء هذه الأمة خطابه الذى هو قوله تعالى : « فاذكرونى أذكركم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾

المَلِكُ مِنَ المخلوقين مَنْ عَبَدَ المَلِكَ الحقيقى .

ويقال المَلِكُ مَنْ مَلَكَ هواه ، والعبد من هو فى رِقِّ شهواته .

ويقال « جعلكم ملوكا » : لم يخرجكم إلى أمثالكم ، ولم يحجبكم عن نفسه بأشغالكم ، وسَهَّلَ إليه سبيلَكم فى عموم أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتاكم مالم يؤتِ أحداً من العالمين ﴾

لئن آتى بنى إسرائيل بمقتضى جوده فقد أغنى عن الإيتاء هذه الأمة فاستقلوا بوجوده ، والاستقلال بوجوده أتمّ من الاستغناء بمقتضى جوده .

---

(١) يقصد أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : ﴿ يا قومِ ادخلوا الأرضَ المقدسةَ
التى كَتَبَ اللهُ لكم ﴾

من الفرق بين هذه الأمة وبين بنى إسرائيل أنه أباح لهم دخولَ الأرض المقدسة على الخصوص فقال : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » ثم إنهم لم يدخلوها إلا بعد مدة ، وبعد جهد وشدة ، وقال فى شأن هذه الأمة « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[1] فأولئك كتب لهم دخول الأرض كتابةَ تكليف ثم قصروا ، وهذه الأمة كتب لهم جميع الأرض على جهة التشريف ، ثم وصلوا إلى ما كتب لهم وما قصروا .

وقال : « ادخلوا الأرض المقدسة . . . . . » وقال لهذه الأمة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] فهؤلاء ذلَّل لهم وسَّهل عليهم ، وأولئك صعَّب عليهم الوصول إلى ما أمرهم فيما أنزل الله عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا
خاسرين ﴾

الارتداد على قسمين : عن الشريعة وإقامة العبودية وذلك يوجب عقوبة النفوس بالقتل ، وعن الإرادة وذلك يوجب الشِّقْوَةَ — التى هى الفراق — على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا موسى إنَّ فيها قوماً جبارين
وإنا لن ندخلَها حتى يخرجوا منها
فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون »

لاحظوا الأغيار بعين الحسبان فتوهموا أن شيئاً من الحدثان ، وداخلتهم هواجمُ الرعبِ فأصروا على ترك الأمر . ومَنْ طالع الأغيار بأنوار البصائر شاهدهم فى أَسْرِ التقدير قوالبَ متعريةً عن إمكان الإيجاد ، ولم يقع على قلبه ظلٌّ التَّوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أَنْعَمَ

---

(١) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٢) آية ١٥ سورة الملك .

اللهُ عليهما ادخلوا عليهم الباب
فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾

أنعم الله (عليهما)[1] بأنوار العرفان فلم يحتشما من المخلوقين ، وعلما أن من رجع إليه بنعت الاستكفاء تداركتْه عواجلُ الكفاية ثم قال :

« وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »

أى من شأن المؤمنين أن يتوكلوا ، وينبغى المؤمن أن يتوكل .

ويحتمل أن يقال التوكل من شرط الإيمان . وظاهر التوكل الذى لعوام المؤمنين العلم بأن قضاءه لا رادَّ له ، وحقائق التوكل ولطائفه التى لخواص المؤمنين شهود الحادثات بالله ومِنْ الله ولله ، فإنَّ مَنْ فَقَدَ ذلك انتفى عنه اسم الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً
ما داموا فيها ﴾

مَنْ أقْصَتْه سوابِقُ التقدير لم يزِدْه تواترُ (العظة)[2] إلا نفوراً وجحوداً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا هاهنا
قاعدون ﴾

تركوا آداب الخطابِ فصرَّحوا ببيان الجحد ولم يحتشموا من مجاهرة الرد .

قوله جل ذكره ﴿ قال ربِّ إنى لا أمْلِكُ إلا نفسى وأخى
فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾

لما ادَّعى أنَّه يملك نَفْسَه عرف عجزه عن مِلْكِه لنفسه حيث أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه .

ويقال : لا أملك إلا نفسى أى لا أدخرها عن البذل فى أمرك . لا أملك إلا أخى فإنه لا يؤثر نفسه عن الذى أكلفه مِنْ قِبَلِكَ .

---

(١) (عليهما) زيادة أضفناها ليتضح المعنى .
(٢) وردت (العظمة) والمعنى يرفضها ويتطلب (العظة) التى وردت فى الآيات السابقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فإنها مُحرَّمة عليهم أربعين سنة
يتيهون فى الأرضِ ، فلا تأسَ على
القومِ الفاسقين ﴾ .

مجاهرة الرد تعجّل العقوبة ؛ فإن من ما كَرَ الحقيقة أبدت الحقيقة له من مكامن التقدير ما يُلْجِئُه إلى التطوُّح فى أوطان الذُّلِّ .

ويقال حيَّرهم فى مفاوزهم حتى عموا عن القَصْد ؛ فصاروا يبيتون حيث يصبحون ، بعد طول التعب وإدامة السير ، وكذلك من حيَّره اللهُ فى مفاوز القلب يتقلب ليلًا ونهاراً فى مطارح الظنون ثم لا يحصل إلا على مناهل الحيرة ، فيحطون بحيث يرحلون عنها ، فلا وجهَ للرأى الصائب يلوح لهم ، ولا خلاص من بعده للتجويز يساعدهم ، والذى التجأ إلى شهود الصمدية استراح عن نقلة فكره ، ووقع فى روْح الاستبصار بعد أتعاب التوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابنَىْ آدمَ بالحق إذ
قرَّبا قرباناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم
يُتَقَبَّلْ من الآخَرِ قال لأقتلنَّكَ ﴾.

كانت الدنيا بحذافيرها فى أيديهما فحسد أحَدُهما صاحبَه ، فلم يصبر حتى أسرع فى شىء بإتلافه ، وحين لم يُقْبَلْ قربانُه اشتد حسدُه على صاحبه ، ورأى ذلك منه فهدَّدَه بالقتل .
فأجابه بنطق التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ قال إنما يتقبل اللهُ من المتقين ﴾ .

يعنى إنما يُتَقَبَّلُ القربانُ مِمَّنْ[1] طالَع فى القربان مساعدةَ القدرة ، وألقى توهُّم كونه باستحقاقه واستيجابه .

قوله جل ذكره : ﴿ لئن بسطتَ إلَىَّ يَدَكَ لتقتلنى ما أنا
بباسطٍ يدى إليك لأقتلَكَ إنى
أخاف اللهَ ربَّ العالمين ﴾ .

---

(١) وردت (من) وهى خطأ فى النسخ .

لئن بدأتنى بالإثارة[1] لم أقابلك كأوصاف أهل الجهل بل أَكِلُ أمرى إلى من بيده مقاليد الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ .

تحقّق بأنّ العقوبة لاحِقةٌ به على ما يسلفه من الذّنب فرَضِىَ بانتقامِ اللهِ دون انتقامه لنفسه .

وقوله : « أن تبوء بإثمى وإثمك » الذى تستوجبه بسبب قتلك إياى ، فأضافه إلى نفسه ، وإذا رأى المظلوم ما يحلّ بالظالم من أليم البلاء يهون عليه ما يقاسيه ويطيب قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ فطوّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

لا تستولى هواجس النفوس على صاحبها إلا بعد استتار مواعظ الحق ، فإذا توالت العزائمُ الرديئةُ ، واستحكمت القصودُ الفاسدةُ من العبد صارت دواعى الحق خفيةً مغمورةً . والنّفْسُ لا تدعو إلا (إلى)[2] اتباع الشهوات ومتابعة المعصية[3] ، وهى مجبولةٌ على الأخلاق المجوسية . فمن تابع الشهوات لا يلبث أن ينزل بساحات الندم ثم لا ينفعه ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فبعث اللهُ غراباً يبحث فى الأرضِ لِيُرِيَهُ كيف يوارى سوأةَ أخيه قال يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ﴾ .

---

(١) وردت (الإشارة) والملائم أن تكون (الإثارة) .

(٢) سقطت (إلى) من الناسخ والمعنى يستلزمها .

(٣) وردت (المصيبه) ولا معنى لها هنا وإنما الملائم (للمعصية) .

إرادة الحق — سبحانه — وصولُ الخلْقِ إلى لطف الاحتياط فى أسباب التعيش ، فإذا أشكل عليهم وجهٌ من لطائف الحيلة سبَّب الله شيئاً يُعَرِّفُهم ذلك به .

قوله جل ذكره ﴿مِنْ أَجْلِ ذلكَ كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نَفْساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنَّما قتل الناسَ جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرضِ لمُسرِفون﴾ .

هذا قريب مما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« من سنَّ حسنة فله أجْرُها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة[1] » .

قوله جل ذكره : « إنما جزاء الذين يحاربون اللهَ ورسولَه ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم منْ خلافٍ أو يُنفَوْا من الأرضِ ذلك لهم خِزْىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ ﴾

السعى فى الفساد على ضربين : بالظاهر وعقوبته معلومة فى مسائل الفقه بلسان العلم ، وفى الباطن وعقوبته واردة على الأسرار ، وذلك بقطع ما كان متصلاً من واردات الحق ، وكسوف شمس العرفان ، والستر بعد الكشف ، والحجاب بعد البسط . والحجاب استشعار

(١) فى رواية مسلم عن جرير بن عبد الله : (. . من سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً) حـ ٤ ص ٢٠٥٩ ط ع الحلبى .

الوحشة بعد الأُنْس ، وتبديل توالى التوفيق بصنوف الخذلان ، والنفى على بساط العبادة[1] ، والإخراج إلى متابعة النفوس ، وذلك — والله — خِزْىٌ عظيم وعذابٌ أليم .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا مِنْ قَبْلِ أن تَقْدِروا عليهم فاعلموا أَنَّ الله غفور رحيم ﴾

من أقلع عن معاصيه ، وارتدع عن ارتكاب مساويه ، قبل أن يهتك عنه ستر السداد لا تقام عليه — في الظاهر — حدودُ الشريعة لاشتباهها على الإمام ، ولا يؤاخذه الحق سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهرِ ما يثبت من حاله مآلَه فى استيجاب السداد ، فإذا بدا للإمام[2] جُرْمُه أُقيم عليه الحدُّ وإنْ تقنَّع بنقاب التقوى .

وكذلك إذا سقط العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقريب الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾

ابتغاء الوسيلة التبرى عن الحول والقوة ، والتحقق بشهود الطول والمِنَّة .

ويقال ابتغاء الوسيلة هو التقريب إليه بما سبق لك من إحسانه .

ويقال الوسيلة ما سبق لك من العناية القديمة .

ويقال الوسيلة اختياره لك بالجميل .

ويقال الوسيلة خلوص (العَقْد)[3] عن الشك .

ويقال ابتغاء الوسيلة استدامة الصدق فى الولاء إلى آخر العمر .

ويقال ابتغاء الوسيلة تجريد الأعمال عن الرياء ، وتجريد الأحوال عن الأعجاب ، وتخليص النفْسِ عن الحظوظ .

---

(١) أى الاخراج من نطاق الارادة إلى نطاق العبادة .

(٢) وردت (للايمان) وهى خطأ فى النسخ إذ الامام هو الذى يقيم الحد .

(٣) وردت (العقد) وربما كانت (العقل) فهو الذى يصاب بآفة الشك ، وكلاهما مقبول فى المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا لو أنلهم ما فى الأرض
جميعاً ومِثْلَه معه ليَفْتَدُوا به من عذابِ
يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم
عذابٌ أليم ﴾

اليومَ — يقبل من الأحباب مثقال ذرة ، وغداً — لا يقبل من الأعداء ملء الأرض ذهباً ، كذا يكون الأمر .

ويقال إفراط العدو فى التقرب موجِبٌ للمقت ، وتستر الولى[1] فى التودد إحكامٌ لأسباب الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ يريدون أنْ يخرجوا مِنَ النار وماهم
بخارجين منها ولهم عذابٌ مقيمٌ ﴾

كما أن الأعداء لا محيص لهم من النار كذلك المُبْعَدُون عن التوفيق كلما أرادوا إقلاعاً عن التهتك أدركهم — من فجأة الخذلان — ما يركسهم فى وهدة العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما
جزاءً بما كسبا ، نكالاً من الله ،
والله عزيز حكيم ﴾

لو أنَّ ولياً من الأولياء سرق نصاباً من جرذ ، ووجد فيه استحقاق القطع ، أقيم عليه الحدُّ كما يقام على المتهتك ، ولا يَسقُطُ الحدُّ لصلاحه . والإشارة فيه أن أمْرَ الملك مُقَابَلٌ بالتعظيم ، بل كل من كان أعلى رتبةً فَخَطَرُه أتمُّ وأخفى ، والمطالبةُ عليه أشدُّ[2] . فلا يَسْتَخِفَنَّ أحدٌ الإلمام بزلة « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ تاب من بعد ظُلْمه وأصلح

(١) وردت (المولى والصواب أن تكون (الولى) ضد (العدو) حسبما نعرف من أسلوب القشيرى .
(٢) لأن أصحاب الرتبة الكبيرة بهم اقتداء ؛ فعليهم وزرهم ووزر من تبعهم .

فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه إن اللهَ
غفورٌ رحيم ﴾

من استوفى أحكام التوبة فتَدَاركَ ما ضيَّعه، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده — أقبل الله عليه بفضله فغفَرَه[1]، وعاد إليه باللطف فجَبَرَه.

قوله جل ذكره: ﴿ ألم تعلم أنَّ اللهَ له مُلكُ السموات
والأرض يُعذِّب من يشاء ويغفر
لمن يشاء والله على كل شيءٍ قدير ﴾

بيَّنَ أنه لا يعذِّب مَنْ يعذِّبُ بِعِلَّة، ولا يرحم من يرحم بعلة، وإنما يتصرف في عبده بحق ملكه، وأنَّ الحكمَ حكمه، والأمرَ أمرُه.

قوله جل ذكره: ﴿ يأيها الرسولُ لا يحزنك الذين
يسارِعون في الكفرِ مِنَ الذين قالوا
آمنا بأفواههم ولم تؤمِنْ قلوبُهم ومن
الذين هادوا سمَّاعون للكذب سمَّاعُونَ
لقومٍ آخرين لم يأتوك يحرِّفون الكَلِمَ
من بعد مواضعه يقولون إنْ أوتيتم
هذا فخذوه وإنْ لم تؤتوه فاحذروا،
ومَنْ يُرِدْ اللهُ فتنتَه فلن تملكَ له
من اللهِ شيئاً ﴾

مَنْ أقصاه الحقُّ عن محلِّ التقريب، وأرخى له عنان الإمهال وَكَلَه إلى مكره، ولبَّسَ عليه حاله وسِرَّه، فهو ينهمك في أودية حسبانه، وإنما يسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وباله، فأَمَرَ نَبيَّه — صلى الله عليه وسلّم — بترك المبالاة بأمثالهم، وقلة الاهتمام بأحوالهم، وعرَّفه أنهم بمعزلٍ عن رحمته؛ وإنَّ مَنْ ردَّته القسمة الأزلية لا تنفعه الأعلال

---

(1) غفره أي غطاه وستر خطاياه.

فى الاستقبال ، فقال : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » يعنى إنْ أهّلَه الله للحرمان ، وقيّده بشباك الخذلان فشفاعة الأغيار فيه غير مقبولة ، ولطائف القبول إليه غير موصولة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قلوبَهم ﴾

أولئك الذين لم تعجن طينتُهم بماء السعادة فَجُبِلُوا على نجاسة الشِرْك فإن عدم الطهارة الأصلية لا يتنقَّى بفنون المعاملات .

ويقال : « من يُرِدْ الله فتنته » : مَنْ أرسل عليه غاغة الهوى ، وسلَّط عليه نوازع المنى ، وأذلَّه (. . .)[1] القضاء ، فليس يلقى عليه غير الشقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾

وَرَدُوا من الهوان إلى الهوان ، ووُعِدُوا بالفراق ، وَرُدُّوا إلى الاحتراق ، فلا تدرى أى حاليهم أقرب من استيجاب الذل ؟ بدايتهم فى الرد أم نهايتهم فى الشِرْك والجحد ؟

قوله جل ذكره : ﴿ سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْتِ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرِضْ عنهم وإنْ تعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً وإنْ حكمتَ فاْحكُمْ بينهم بالقسط إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ﴾

يعنى إنهم طرحوا حشمة الدِّين ، وقنعوا بالحظوظ الخسيسة واكتفوا (بالأعواض)[2] (النذرة)[3] ، فإذا تحاكموا إليك فأحْلِلْهم من حِلْمك على مايستحق أمثالهم من (الازال)[4] ،

---

(١) مشتبهة .

(٢) الأعواض جمع عوض وربما كانت في الأصل (الأعراض) جمع عَرَض ، وكلاهما مقبول .

(٣) (النذرة) أى القليلة الهينة ولا نستبعد أنها (المذلة) أى الخسيسة وعند ذلك تكون الكلمة التالية رقم (٤) الأنذال جمع نذل ، وليس بمستبعد أن تكون الانزال أى الاحلال فيكون السياق (وأحللهم من حلمك على ما يستحق أمثالهم من الاحلال = الانزال . من قولهم حللت بالمكان أى نزلت به). وربما كان المقصود بالآزال ما سبق لهم من القسمة .

وأنت مُخيرٌ فيما تريد ؛ فسواء أقبلت عليهم فحكمت أو أعرضت فرددت فالاختيار لك .

قوله : « إن الله يحب المقسطين » : الإقساط الوقوف على حدِّ الأمر من غير (حَنَفٍ)[1] إلى الحظ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف يُحكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حُكم اللهِ ثم يتولَّوْن من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

يعنى أنهم قارفوا الجحد ، وأصرُّوا على الغى ، وتعودوا الإعراض عن الإيمان ، فمتى تؤثِّر فيهم دعوتُكَ ، وقد سُدَّتْ مسامعُهم عن القبول ، وطُبِعَ على قلوبهم سابقُ الحكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونُورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ .

يخبر أنه استحفظ بنى إسرائيل التوراة فحرَّفوها ، فلما وَكَلَ إليهم حفظها ضيَّعوها .

وأمَّا هذه الأمة فخصَّهم بالقرآن ، وتولَّى — سبحانه — حفظه عليهم فقال : « إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون »[2] فلا جَرَمَ لو غيَّرَ واحدٌ حركة أو سكوناً من القرآن لنادى الصبيان بتخطيئه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشَوُا الناسَ واخشونِ ﴾ .

إنَّ الخلْقَ تجرى عليهم أحكامُ القدرة وأقسام التصريف ؛ فالخشية منهم فرعٌ من المحال، فإنَّ من ليس له شظية من الإيجاد فأنَّى تصحُّ منه الخشية ؟ !

---

(١) حنف — ميل وليس بمستبعد أن تكون فى الأصل (حيف) إلى الحظ وكلاهما مقبول .

(٢) آية ٩ سورة الحجر

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

لاتأخذوا على جحدِ[1] أوليائى والركونِ إلى مافيه رضاء أعدائى عِوضاً يسيراً فتبقوا بذلك عنى ، ولا يُبَارَكُ لكم فيما تأخذون من العوض .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله . . . » فمن اتخذ بغيره حكما ، ولم يجد —تحت جريان حكمه— رضى واستسلاماً[2] ففى شِرْكٍ خامَرَ قلبه ، وكفرٍ قارَنَ سرَّه . وهيهات أن يكون على سَوَاء !

قوله جل ذكره : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنَّ النَّفسَ بالنَّفس والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذنَ بالأذنِ والسِّنَّ بالسن والجروحَ قِصاصٌ ، فمن تَصدَّقَ به فهو كفَّارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

بيَّن أن اعتبار العدالة كان حتما فى شرعهم ، ولمَّا جنحوا إلى التضييع استوجبوا الملام .
«فمن تصدَّق به فهو كفارة له» ، يعنى فمن آثر ترك مالهُ باعتناق العفو لم يخسرْ علينا باستيجاب الشكر ، ومن أبى إلا تمادياً فى إجابة دواعى الهوى فهم الذين وضعوا الشىء فى غير موضعه؛ أى استبدلوا بلزوم الحقائق متابعةَ الحظوظ ، وبإيثار الفتوة موافقةَ البشرية[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة

---

(١) وردت (جهد) بالهاء والملائم أن تكون (جحد) فهكذا تشير الآية الكريمة ، وكذلك السياق؛ فإن رضاء الأعداء يقابله جحد الأولياء .
(٢) وردت (واستلاما) والصواب (استسلاماً) أى أى انقياداً وطاعة .
(٣) لأن من عناصر الفتوة — عند الصوفيه — البذل والإيثار والتضحية

وآتيناه الإنجيل فيه هُدًى ونورٌ
ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة
وهدًى وموعظةً للمتقين ﴾ .

يعني أتبعناهم بعيسى ابن مريم ، وخصصناه بالإنجيل ، وفي الإنجيل تصديق لما تقدَّمه ، وتحقيق لِمَا أوجب الله وألزمه ، فلا الدِّينَ قضوا حقه ، ولا الإنجيلَ عرفوا فرضه ، ولا الرسولَ حفظوا أمره ، ففسقوا وضلوا ، وظلموا وزلُّوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أهلُ الانجيل بما أنزل الله
فيه ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الفاسقون ﴾ .

قال الله تعالى في هذه السورة[1] : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وقال في موضع آخر « ... فأولئك هم الظالمون » وقال في هذه الآية « ... فأولئك هم الفاسقون » أمّا في الأول فقال : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا . . . فأولئك هم الكافرون » لأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو جاحد والجاحد كافر .

وفي الثاني قال : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس . . . . . فأولئك هم الظالمون » لأن مَنْ جاوز حدّ القصاص واعتبار المماثلة ، وتعدى على خصمه فهو ظالم لأنه ظَلَمَ بعضهم على بعض .

وأمّا ها هنا فقال : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله . . . . فأولئك هم الفاسقون » أراد به معصيةً دون الكفر والجحد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ
مُصَدِّقا لما بين يديه من الكتاب
ومُهَيْمِناً عليه ﴾

---

(١) وردت في هذه (الآية) والصواب أن تكون (السورة) لأن القشيري ألقى نظرة شاملة على آية واحدة ذات نهايات شتى في السورة كلها .

(٢) وهذه هي المنزلة بين الكفر والإيمان — كما يسميها بعض علماء الكلام .

قدَّم تعريفه — صلى الله عليه وسلم — قصص الأولين على تكليفه باتباع ما أنزل الله عليه لئلا يسلك سبيل من تقدَّمه فيستوجب ما استوجبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل اللهُ ، ولا تتبعْ أهواءهم عما جاءك من الحقِّ لكلٍ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ، ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدةً ، ولكن لِيَبْلُوَكم فيما آتاكم ﴾

لا تتملكك مودةُ قريبٍ أو حميمٍ ، واعتنِقْ ملازمةَ أمرِ الله — تبارك وتعالى — بترك كل نصيبٍ لك .

ثم قال : « لكل جعلنا شرعة ومنهاجاً » يعنى طريقةً وسُنَّة ، أى أفردنا كلَّ واحدٍ منكم — معاشرَ الأنبياءِ — بطريقة ، (وأمَّا[1]) أنت فلا يدانيك فى طريقتك أحد ، وأنت المقدَّمُ على الكافة ، والمُفَضَّلُ على الجملة ، ولو شاء الله لَسَوَّى مراتبكم ، ولكن غاير بينكم ابتلاءً ، وفَضَّلَ بعضكم على بعض امتحاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستبقوا الخيراتِ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

مسارعة كل أحدٍ على ما يليق بوقته ؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد ، والعارفون همتهم من حيث المواجد[2]

ويقال استباق الزاهدين برفض الدنيا ، واستباق العابدين بقَطْعِ الهوى ، واستباق العارفين بنفى المُنى ، واستباق الموحدين بترك الورى ، و نسيان الدنيا والعُقبى .

---

(١) وردت (ولما) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وقع الناسخ فى تكرار عبارة (والعارفون ..) فحذفناها

قوله جل ذكره : ﴿ وأنِ أحْكُمْ بينهم بما أنزل
اللهُ ، ولا تتبع أهواءهم واحذرهم
أن يفتنوك عن بعضِ ما أنزل
اللهُ إليك ﴾

قُمْ بالله فيما تحكم بينهم ، وأَقِمْ حقوقه فيما تؤخر وتقدم ، ولا تلاحظ الأغيار فيما (تُؤْثِر)[1] أو تَذَر ، فإن الكلَّ محوٌ في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أَنَّما يريد الله
أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإنَّ
كثيراً من الناسِ لفاسقون ﴾

يعني (عِظْهم)[2] بلسان العلم فإنْ أَبَوْا قبولاً فشاهِدْهم بعين الحكم . ويقال : أَشْدُدْ عليهم باعتناق لوازم التكليف ، فإن أعرضوا فعاينهم بعين التصريف ؛ فانَّ الحقِّ — سبحانه — بشرط التكليف يلزمهم ؛ وبحكم التصريف يؤخرهم ويقدمهم ، فالتكاليف فيما أوجب ، والتصريف فيما أوجد ، والعبرة بالإيجاد والإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أفحُكْمَ الجاهلية يَبْغُون ، ومَنْ
أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لقومٍ
يوقنون ﴾

أيعودون في ظلمة الحجاب ووحشة الالتباس بعد ما سطع فَجْرُ العرفان ، وطلعت شموسُ التحقيق ، وانهتكت أستارُ الريب ؟

ويقال أيطلبون منك أن تحيدَ عن المحبة المثلى ، وقد اتضحت لك البراهين وتجلَّى اليقين ؟

ويقال أيطمعون في استتار الحقائق في السرائر وقد تجلت شموس اليقين ؟

---

(1) وردت (تؤشر) بالشين وهي خطأ في النسخ
(2) وردت (عظمهم) بزيادة ميم وهي خطأ في النسخ .

ويقال أتحسبون أن (. . . .)[1] ظلمة الشك لها سلطان ، وقد متَّعَ نهارُ الحقائق[2]؟ . . . . كلاَّ ، فإن ذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود
والنصارى أولياء بعضُهم أولياء بعضٍ
ومَنْ يتولَّهم منكم فإنه منهم إنَّ الله
لا يهدى القومَ الظالمين ﴾

لا تجنحوا إلى الموالاة مع أعدائه — سبحانه — إيثاراً للسكون إلى الحظ ، أو احتشاماً من القيام للحق ، أو ركونا إلى قرابة نَسَبٍ ، أو استحقاقا لمودة حميم ، أو تهيباً من استيحاش صديق . بل صمموا عقودكم على التبرِّى منهم بكل وجه فهم بعضهم أولياء بعض ، والضدية بينكم وبينهم قائمة إلى الدين[3] . « ومن يتولَّهم منكم » التحق بهم ، وانخرط فى سِلكهم ، وعُدَّ فى جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَرى الذين فى قلوبهم مرض
يسارعون فيهم يقولون نخشى أن
تصيبنَا دائرةٌ فعسى اللهُ أنْ يأتىَ
بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا
على ما أسَرُّوا فى أنفسهم نادمين *
ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين
أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم إنهم لَمَعَكُم
حَبِطتْ أعمالُهم فأصبحوا خاسرين ﴾

---

(١) مشتبهة

(٢) متوع النهار اصطلاح صوفى تحدث القشيرى عنه فى مواضع أخرى من هذا الكتاب ضمن اللوائح واللوامع والطوالع .

(٣) قائمة إلى الدين اى راجعة إلى اختلاف دينهم عنكم ، وربما سقطت من الناسخ كلمة يوم قبل (الدين) فيكون المعنى : إن العداوة بينكم وبينهم قائمة دائمة إلى يوم الدين .

يعنى إن الذين سقمت ضمائرهم ، وضعفت فى التحقيق بصائرهم تسبق إلى قلوبهم مداراة[1] الأعداء خوفاً من معاداتهم ، وطمعاً فى المأمول من صحبتهم ، ولو استيقنوا أنهم فى أسر العجز وذل الإعراض ونفى الطرد لأَمَّلوا الموعود من كفاية الحق ، والمعهود من جميل رعايته ، ولكنهم حُجِبُوا عن محل التوحيد ، فتفرَّقوا فى أودية الحسبان والظنون ، وعن قريبٍ يأتيكم الفَرَجُ — أيها المؤمنون ، وتُرْزَقُون الفتحَ بحسن الإقبال ، والظفر بالمسئول لسابق الاختيار ، فيشعرون الندم ، ويقاسون الألم ، وأنتم (تعلون)[2] رءوسكم بعد الإطراق ، وتصفو لكم مَشَارِبُ الإكرام ، وتضىء بزواهر القرب مَشَارِقُ القلوب . حينئذٍ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم يعاينون بأبصارهم ما تحققوه بالغيب فى أسرارهم ، ويَصِلُون من موعودهم إلى مايوفى ويربو على مقصودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا مَنْ يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقومٍ يحبهم ويحبونه ﴾ .

جعل صفة من لا يرتدُّ عن الدين أن اللهَ يحبه ويحبُّ الله ، وفى ذلك بشارة عظيمة للمؤمنين لأنه يجب أنْ يُعْلَمَ أن من كان غير مرتد فإنَّ الله يحبه . وفيه إشارة دقيقة فإن من كان مؤمناً يجب أن يكون لله محباً ، فإذا لم تكن له محبة فالخطر بصحة إيمانه . وفى الآية دليل على جواز محبة العبد لله وجواز محبة الله للعبد .

ومحبة الحق للعبد لا تخرج عن وجوه : إمَّا أن تكون بمعنى الرحمة عليه أو بمعنى اللطف والإحسان إليه ، والمدح والثناء عليه .

أو يقال إنها بمعنى إرادته لتقريبه وتخصيص محله .

وكما أن رحمته إرادته لإنعامه فمحبته إرادته لإكرامه ، والفرق بين المحبة والرحمة على هذا القول أن المحبة إرادة إنعامٍ مخصوصٍ ، والرحمة إرادة كل نعمة فتكون المحبةُ أخصَّ من الرحمة ،

---

(١) وردت (مرارة) ، وبالرجوع إلى كتب التفسير ساعدتنا على اختيار (مداراة) (انظر تفسير وجدى) .

(٢) وردت (تعلمون) والملائم أن تكون (تعلون) رءوسكم بعد الإطراق .

واللفظان يعودان إلى معنىً واحد فإن إرادة الله تعالى واحدة وبها يريد سائر مراداته ، وتختلف أسماء الإرادة باختلاف أوصاف المتعلق .

وأمَّا محبة العبد لله — سبحانه — فهى حالة لطيفة يجدها فى قلبه ، وتحمله تلك الحالة على إيثارِ[1] موافقة أمره ، وتَرْكِ حظوظ نفسه ، وإيثارِ حقوقه — سبحانه — بكل وجه .

وتحصل العبارة عن تلك الحالة على قدر ما تكون صفة العبد فى الوقت الذى يعبِّر عنه ؛ فيقال المحبة ارتياح القلب لوجود المحبوب ، ويقال المحبة ذهاب المُحِبِّ بالكلية فى ذكر المحبوب ، ويقال المحبة خلوص المحب لمحبوبه بكل وجه ، والمحبة بلاء كل كريم ، والمحبة نتيجة الهمة فمن كانت همته أعلى فمحبته أصفى بل أوفى بل أعلى .

ويقال المحبة سُكْرٌ لا صحوَ فيه ودَهَشٌ فى لقاء المحبوب يوجب التعطُّلَ عن التمييز ، ويقال المحبة بلاء لا يُرْجَى شفاؤه، وسقام لا يعرف دواؤه .ويقال المحبة غريمٌ يلازمك لا يبرح، ورقيبٌ من المحبوب يستوفى له منك دقائقَ الحقوق فى دوام الأحوال ، ويقال المحبة قضية توجب المحبة ؛ فمحبة الحق أوجبت محبة العبد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يحبهم ويحبونه أَذِلَّةٍ على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافرين يجاهِدون فى سبيل اللهِ ولا يخافون لومةَ لائم ذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاء والله واسعٌ عليم ﴾

لولا أنه يحبهم لما أحبوه ، ولولا أنه أخبر عن المحبة فأنَّى تكون للطينة ذِكْرُ المحبة ؟ ثم بيَّن الله تعالى صفة المحبين فقال « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » . يبذلون المُهَجَ فى المحبوب من غير كراهة ، ويبذلون الأرواح فى الذَّبِّ عن المحبوب من غير ادخار شظية من الميسور .

---

(١) وردت خطأ (إيسار) بالسين .

(٢) كلام القشيرى فى المحبة هنا لا يكاد يختلف كثيراً عن كلامه عنها فى (الرسالة)

ثم قال تعالى فى صفتهم : « يجاهدون فى سبيل الله » أى يجاهدون بنفوسهم من حيث استدامة الطاعة ، ويجاهدون بقلوبهم بقطع المنى والمطالبات ، ويجاهدون بأرواحهم بحذف العلاقات ، ويجاهدون بأسرارهم بالاستقامة على الشهود فى دوام الأوقات .

ثم قال : « لا يخافون لومة لائم » أى لا يلاحظون نُصْحَ حميم ، ولا يركنون إلى استقلال حكم ، ولا يجنحون إلى حظ ونصيب ، ولا يزيغون عن سَنَنِ الوفاء بحالٍ .

ثم بيَّن — سبحانه — أن جميع ذلك إليه لا منهم فقال : « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » متفضلٌ عليم بِمَنْ يَخُصَّ بذلك من عبيده .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاةَ وهم راكعون ﴾

الولى أى الناصر ، ولا موالاة بين المؤمنين وبين أعداء الحق — سبحانه — فأعداء الحقِّ هم أعداء الدِّين .

و « إنما » حرفٌ يقتضى أن ما عداه بخلافه ، وأعدى عدوِّك نَفْسُكَ — كما فى الخبر — ومَنْ عادى نَفْسَهَ لم يخرج بالمخاصمة عنها مع الخلْق وبالمعارضة فيها مع الحق[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمنْ يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ﴾

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصم لِلحقِّ على أنفسهم لا خصم لأنفسهم على مولاهم ، والغلبة بالحُجَّةِ والبرهان دون اليد .

ويقال من قام لله بصدق انخنس دونه كلُّ مُبْطِل . ويقال إذا طلعت أنوار الحق أدبر ليل أهل الباطل .

(١) أى إن من خاصم نفسه لم تقم بينه وبين الناس ولا بينه وبين الحق خصومة من أجل نفسه فقد ، انتفت حظوظها بالكلية وأسلمها لربه بلا معارضة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتَّخَذُوا دينكم هُزُواً ولعباً مِنَ الذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قبلِكم والكفار أولياء واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين ﴾

نبّههم على وجوب التحيز عنهم والتميز منهم ، فإن المخالف فى العقيدة لا يكون موافقاً فى الحقيقة .

ويقال أمَرَهم بأن يلاحظوهم بعين الاستصغار كما لاحظوا دين المسلمين بعين الاستحقار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُوا ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون ﴾

الأذانُ دعاء إلى محلِّ النجوى ، فمَنْ تحقَّقَ بعلوِّ المحلِّ فسماعُ الأذانِ يوجب له روْحَ القلب واسترواح الروح ، ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال لاحَظَ ذلك بعين اللعب وأدركه بسمع الاستهزاء ، وذلك حكمُ الله : غايَرَ بين عباده على ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قلْ يا أهل الكتابِ هل تَنْقِمون مِنّا إلاَّ أنْ آمنَّا بالله وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِل مِنْ قَبْلُ وأَنَّ أكثَرَكُم فاسقون ﴾

ما لنا عندكم عيبٌ إلا أننا تحققنا أننا محو فى الله ، (وأنَّ الكائنات حاصلة بالله ولا نتقفى أثراً سوى لله فى الله)[1] ، وهذا — واللهِ — عيبٌ زائلٌ ، ونقصٌ ليس له — فى التحقيق — حاصل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هل أنبئكم بِشَرٍّ مِنْ ذلك مثوبة

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

عند الله مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عليه
وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ
الطاغوت أُولئِكَ شَرٌّ مكاناً وأَضَلُّ
عَنْ سواءِ السبيل ﴾

يعنى أخسُّ من المذكورين قَدْرَاً ، وأقل منهم خطراً من سقط عن عين الله فأذلّه ، وأبعده عن نعت التخصيص فأضلّه ، ومنعه عن وصف التقريب وأبعده ، وحجبه عن شهود الحقيقة وطرده .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالـكفرِ وهم قد خرجوا به واللهُ
أعلمُ بما كانوا يَكْتُمُون ﴾

أظهروا الصدق ، وفى التحقيق نافقوا ، وافتضحوا من حيث أوهموا ولبّسُوا ؛ فلا حالُهم بقيت مستورة ، ولا أسرارهم كانت عند الله مكبوتة [1] ، وهذا نعتُ كل مبطل . وعند أرباب الحقائق أحوالهم ظاهرة فى أنوار فراستهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارِعون
فى الإثم وأكلِهِم السُّحتَ لبئس
ما كانوا يعملون ﴾

تَملّكتْهُم الأطماعُ فاستهوتهم فى متاهات العناء ، وذلك نعت كل (طالع) [2] فى غير مطمع ؛ ذُلٌّ حاضر ، وصَغَارٌ مستولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبارُ عن
قولهم الإثمَ وأكْلِهِم السُّحْتَ لبئس
ما كانوا يصنعون ﴾

---

(١) وردت (مكتوبة) والصواب أن تكون مكبوتة لتلائم مستورة التى سبقت .
(٢) ربما كانت (طامع) فى غير مطمع وربما كانت (ضالع)

الربّانىُّ من كان لله وبالله ؛ لم تبق منه بقية لغير الله .

ويقال الربّانىُّ الذى ارتقى عن الحدود .

والربانىُّ مَنْ توقّى الآفات ثم ترقّى إلى الساحات ، ثم تلقّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات ، فخلا عن نفسه ، وصفا عن وصفه ، وقام لِرَبِّه وبربه .

وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين ، فهم خلفاء ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم ، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله مايُومِئُون إليه ، وتحقق ما علقوا هممهم به .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ كيف يشاء ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليكَ مِنْ ربِّكَ طغياناً وكفراً ، وألقينا بينهم العَدَاوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فَسَاداً ، والله لا يحب المفسدين ﴾ .

صغَّر سوء قالة الموحِّدين — فى اغتياب بعضهم لبعض بعد ما كانوا بالتوحيد قائلين وبالشهادة ناطقين — بالإضافة إلى ما قاله الكفار من سوء القول فى الله ؛ يعنى أنهم وإن أساءوا قولاً فلقد كان أسوأ قولاً منهم مَنْ نَسَبَنَا إلى ما نحن عنه مُنَزَّهٌ ، وأطلق فى وصفنا ما نحن عنه مُقدَّسٌ .

ثم إن الحق — سبحانه قال : « غُلَّتَ أيديهم ولعنوا بما قالوا » فلا ريح الصدق يشمون ، ولا نَفَسَاً من الحقِّ يجدون .

ثم أثنى على نفسه فقال : « بل يداه مبسوطتان »[1] أى بل قدرته بالغة ومشيئته نافذة ، ونعمته سابغة وإرادته ماضية .

ويقال « بل يداه مبسوطتان » أى يرفع ويضع ، وينفع ويدفع ، ولا يخلو أحدٌ عن نِعَمِ النفع وإن خلا عن نعم الدفع .

قوله جل ذكره : ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكَفَّرْنا عنهم سيئاتِهم وَلَأَدْخَلْنَاهم جناتِ النعيم﴾

إنما وعدهم الغفرانَ بشرط التقوى . ودليل الخطاب يقتضى أنه لا يغفر لمن لم يتق منهم . وقال لظالمى هذه الأمة: « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه »[2] ثم قال فى آخر الآية : « جنات عدن يدخلونها » أى أهل التقوى لأنه هو أهل المغفرة ، فإنْ تركتم التقوى فهو أهلٌ لأن يغفر .

ويقال لو أنهم راعوا أمرنا أصلحنا لهم أمرهم ، ولكنهم وَقَفُوا فوُقِفُوا .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنْزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا مِنْ فوقهم ومِنْ تحت أرْجُلِهم﴾

أى لو سلكوا سبيلَ الطاعة لوسَّعنا عليهم أسباب المعيشة وسهَّلنا لهم الحال حتى إن ضربوا بيمينٍ ما لقوا غيرَ اليُمْن ، وإنْ ذهبوا يَسْرةً ما وجدوا إلا اليُسْر .

قوله جل ذكره : ﴿منهم أُمَّةٌ مُقْتَصِدة ، وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون﴾

المقتصد الواقف على حدِّ الأمر ، لا يُقَصِّر فيَنْقُص ، ولا يجاوزُ فيزيد .

---

(١) لاحظ كيف يؤول القشيرى (اليد) ليبعد عنها كل دلالة حسية ويجعلها من الأوصاف الالهية .
(٢) آية ٣٢ سورة فاطر

ويقال المقتصدُ الذى تساوى فى همَّته الفقدُ والوجودُ فى الحادثات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنْزِل إليك مِنْ ربِّكَ وإنْ لم تفعل فما بلَّغتَ رِسالته ﴾

لا تكتم شيئاً مما أوحينا إليك مُلاحَظَةً لِغَيْرٍ ، إذ لا غير — فى التحقيق — إلا رسوم موضعة ، وأحكام القدرة عليها جارية .

ويقال بَيِّنْ للكافة أنك سيِّدُ ولد آدم ، وأنَّ آدم دون لوائك .

ويقال بلِّغْ ما أُنْزِلَ إليك أنِّى أغفر للعصاة ولا أُبالى ، وأردُّ مِنَ المطيعين مَنْ شِئْتُ ولا أُبالى .[1]

قوله جل ذكره : ﴿ والله يعصمك من النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يهدى القومَ الكافرين ﴾

يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم ، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع عليه احتشامٌ منهم .

ويقال يعصمك من الناس حتى لا تغرق فى بحر التوهم ؛ بل تشاهدهم كما هُمْ ؛ وجوداً بين طرفى العَدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهلَ الكتابِ لَسْتُم على شىءٍ حتى تقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِل إليكم من ربكم وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِل إليك من ربك طغيانا وكفراً فلا تأسَ على القومِ الكافرين ﴾

---

(١) يتضح من هذه الإشارة شيئان : أولها مدى إتساع صدور الصوفية للتسامح ونظرتهم المتفائلة إلى سعة الرحمة الإلهية مما يطمئن العصاة ويحمس على التوبة ، وثانيهما مدى مخالفة القشيرى المعتزلة فى مسألة وجوب المثوبة أو العقوبة على الله سبحانه ، فلا وجوب — عنده — على الله بخلافهم .

أى ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ، ولا قَدْركم فى الدنيا والعُقبى ، ولا مقداركم ولا منزلكم فى حال من حالاتكم إلا بمراعاة الأمر والنهى ، والمحافظةِ على أحكام الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا
والصابئون والنصارى مَنْ آمَنَ بالله
واليوم الآخِر وعَمِل صالحاً فلا خوفٌ
عليهم ولا هم يحزنون ﴾

بَيَّنَ أنهم — وإنْ تجنَّسَتْ أحوالهم — فبعدما تجمعهم أصولُ التوحيد فلهم الأمانُ من الوعيد ، والفوزُ بالمزيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل
وأرسلنا إليهم رُسُلاً كلما جاءهم
رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُهم فريقا
كَذَّبُوا وفريقا يَقْتُلُون * وحَسِبُوا
ألا تكونَ فتنةٌ فعموا وصموا ثم تابَ
اللهُ عليهم ثم عَمُوا وصَمّوا كثيرٌ
منهم والله بصيرٌ بما يعملون ﴾

داروا مع الهوى فوقعوا فى البلاء . ومِنْ أمارات الشقاء الإصرارُ على متابعة الهوى ، وحسبوا ألا تكون فتنة ، فعموا وصموا . واغتروا بطول الإمهال فأصروا على قبيح الأعمال ، فلما أخَذَتْهم فجاءةُ الانتقام لم ينفعهم الندم ، وبَرَّحَ بهم الألم .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ
ابنُ مريم وقال المسيحُ يا بنى إسرائيل
اعبدوا الله ربى وربكم إنَّه مَنْ يُشرِكْ
بالله فقد حرَّم الله عليه الجنَّةَ ومأواه
النارُ وما للظالمين مِنْ أنصار ﴾

سَقِمَتْ بصائرهم والتبست عليهم أمارات الحدوث ، فخَلَطُوا فى عقائدهم استحقاقَ أوصافِ القِدَمِ بنعوت الحدوث !

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ وما مِنْ إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيم ﴾

بلغ الخذلانُ بهم حداً أنْ كابروا الضرورة فحكموا للواحد بأنه ثلاثة ، ولا يخفى فسادٌ هذا على مجنونٍ . . فكيف على عاقل ؟ !

قوله : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » لم يُغْلِقْ بابَ التوبة عليهم — مع قبيح أقوالهم ، وفساد عقائدهم — تضعيفاً[1] لآمال المؤمنين بخصائص رحمته .

قوله جل ذكره : ﴿ ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمُّه صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعامَ انظرْ كيف نبيِّن لهم الآياتِ ثم انظُرْ أنَّى يؤْفَكون ﴾ .

مَنْ اشتملت عليه الأرحامُ ، وتناوبته الآثار المتعاقبة أنَّى يليق بوصف الإلهية ؟

ثم مَنْ مَسَّتْه الحاجةُ حتى اتصف بالأكل وأصابته الضرورةُ إلى أنْ يَخْلُصَ من بقايا الطعام فأنَّى يليق به استيجابُ العبادة والتسميةُ بالإلهية ؟

انظر — يا محمد — كيف نزيد فى إيضاح الحجة وكيف تلبَّس عليهم سلوكُ المحجة ؟

(١) تضعيفاً أى جعلها مضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أتعبدون مِنْ دون الله ما لا يملكُ
لكم ضَرًّا ولا نفْعًا والله هو السميع
العليم ﴾ .

تعليقُ القلوب — بدون الرب — فى استدفاع الشر واستجلاب الخير تمحيق للوقت فيما لا يُجْدِى ، وإذهابٌ للعمر فيما لا يُغْنى ؛ إذ المتفردُ بالإيجاد برىءٌ عن الأنداد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى
دِينِكُم غيرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ
قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً
وضَلُّوا عن سَواءِ السبيل ﴾ .

التعمقُ فى الباطل قطعٌ لآمال الرجوع ؛ فكلما كان بُعْدُ المسافةِ مِنَ الحقِّ أتمَّ كان اليأسُ من الرجعةِ أوجبَ ، ومُتَّبِــعُ الضلالة شرٌّ مِنْ مبتدِعها ؛ لأن المبتدعَ يبنى والمُتَّبِع يُتِمُّ البناء ، ومَنْ به كمالُ الشرِّ شرٌّ ممن منه ابتداء الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل
على لسان داودَ وعيسى ابنِ مريم
ذلك بِما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون ﴾ .

أمَرَ الأنبياء — عليهم السلام — حتى ذكروا الكفار بالسوء ، وأمَّا الأولياء فخصَّهم بذكر نفسه فقال : « هو الذى يصلى عليكم »[1] ؛ فلعنةُ الكفار بلسان الأنبياء ، وذِكْرُ المؤمنين بالجميل بلسان الحقِّ — سبحانه ، ولو كان ذلك ذِكْرًا بالسوء لكان فيه استحقاقُ فضيلةٍ ، فكيف وهو ذكرٌ بالجميل ! ؟ ولقد قال قائلهم :

لئن ساءنى أنْ تَلْقَنِي بمساءةٍ فقد سرَّنى أني خَطَرْتُ ببالِكا

قوله جل ذكره : ﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْن عن مُنْكَرٍ

---

(١) آية ٤٣ سورة الأحزاب .

فَعَلُوه[1] لبِئْس ما كانوا يَفْعَلُون ﴾ .

الرضاء بمخالفة أمر الحبيب مُوَافَقَةٌ للمخالف ، ولا أَنَفَةَ بعد تميز الخلاف . والسكوتُ عن جفاءٍ تُعامَلُ به كَرَمٌ ، والإغضاء عما يُقَال فى محبوبك دناءةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ تَرَى كثيراً منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا لَبِئْسَ ما قدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ .

شرُّ خِصال اللئام مطابقةُ مَنْ يضاد الصديق ، فإذا كان سخط الله فى موالاة أعدائه ، فرحمته — سبحانه فى معاداة أعدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىِّ وما أُنْزِلَ إليه ما اتخذوهم أولياء ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون ﴾ .

صَرَّحَ بأنَّ موافقَ مَنْ ناوَءكَ[2] آثرَ التباعدَ عنك ؛ إذ لو كانت بينكما شعْرَةٌ غيرُ مُنْقَطِعَةٍ لأخلصتَ[3] فى موالاته ، وأخلصَ فى مصافاتك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورُهباناً وأنهم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ .

بَيَّنَ أنَّ صفة العداوة وإن كانت تجمعهم فمعاداةُ بعضهم تزيد على بعض ، وبقدر

(١) سقطت (فعلوه) من الناسخ فأثبتناها .
(٢) وردت (ناولك) وربما كانت فى الأصل (ناواك) والتبست على الناسخ فظنها لاماً .
(٣) أخطأ الناسخ فكتبها (لأخصلت) .

ما للنصارى من الترهُّب أثر فيهم (بالمقاربة)[1] من أهل الحق ؛ فإنهم وإن لم ينتفعوا بهم من حيث الخلاص فقد ذكرهم الله سبحانه — بمقاربة أهل الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سمِعُوا ما أُنْزل إلى الرسولِ
ترى أعينَهم تفيضُ من الدمعِ
مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا
فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

هذه صفة من نظر إليه الحق نظر القبول ، فإذا قَرَعَتْ سمْعَهُم دعوةُ الحقّ ابتسمت البصيرةُ في قلوبهم ، فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءنا
من الحقِّ ونطمعُ أنْ يُدْخِلنا ربُّنا
مع القومِ الصالحين ﴾

وأي عذر لنا في التعريج في أوطان الارتياب ، وقد تجلَّت لقلوبنا الحجج ؟ ثم ما نؤمله من حُسْنِ العاقبة . . متى بدونه يمكن أن نطلبه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنَّاتٍ تجرى
من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك
جزاء المحسنين ﴾

لمَّا صَدَقَتْ آمالهم قابلها بالتحقيق ، سُنَّةً منه — سبحانه — ألا يخيب راجيه ، ولا يرد مؤمليه[2] ، وإنما علَّق الثواب على قولِ القلب الذى هو شهادةٌ عن شهوده ، فأمّا النظر المنفردُ عن البصيرةِ فلا ثوابَ عليه ولا إيجاب[3] .

---

(١) وردت (بالمقارنة) والصواب أن تكون (المقاربة) فقد وردت كذلك فيما بعد إشارة إلى مافى الآية (أقربهم مودة . . .) ، وربما قبلنا (المقارنة) على أساس مقارنة النصارى باليهود .

(٢) وردت (مؤليه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) لاحظ هنا قيمة الإيمان النظرى بالقياس إلى الإيمان القلبي ومغزى ذلك فى التسامح الديني .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا
أولئك أصحابُ الجحيم ﴾

(هذا) أثر الإعراض عن الأعداء فى مقابلة أثر الإقبال على الأولياء معجّلاً ومؤجلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا
طيباتِ ما أحَلَّ الله لكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين ﴾

من أمارات السعادة الوقوفُ على حد الأمر ؛ إنْ أباَحَ الحقُّ شيئاً قَبِلَه ، وقابله بالخشوع ، وإنْ حَظَرَ شيئاً وقف ولم يتعرض للجحود .

ومما أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب فى أوطان الخلوة ، وتحريم ذلك : إنْ اسْتَبدَلَ تلك الحالة بالخلطة دون العزلة ، والعِشْرَةِ دون الخلوة ، وذلك هو العدوان العظيم والخسران المبين .

قوله جل ذكره : ﴿ وكُلُوا مما رزقكم اللهُ حلالاً
طيِّباً ، واتقوا اللهَ الذى أنتم به
مؤمنون ﴾

الحلال الصَّافى بأن يأكلَ العبدُ ما يأكلُ على شهوده — سبحانه — فإنْ نَزَلَتْ الحالةُ عن هذا فَعَلَى ذِكْرِه — سبحانه — فإنَّ الأكلَ على الغفلة حرامٌ فى شريعة الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم اللهُ باللَّغْوِ فى أيْمانِكم
ولكن يؤاخذكم بما عقَّدْتُم الأَيمانَ
فكفَّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين
من أوْسَطِ ما تُطْعِمُون أهليكم
أو كِسْوَتُهم أو تحريرُ رقبةٍ ، فمن
لم يجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ، ذلك
كفَّارةُ أيمانكم إذا حَلَفْتم واحفظوا

أَيْمَانِكم ، كذلك يُبَيِّن الله لكم
آياتِه لعلكم تَشْكُرون ﴾

الإشارة منه إلى وقتٍ يغلب على قلبك التعطشُ إلى شيء من إقباله أو وصاله ، فَتُقْسِمُ عليه بجماله أو جلاله أن يرزقك شظيةً من إقباله ، فكذلك فى شريعة الرضا نوعٌ من اليمين ، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك . والأَوْلى الذوبان والخمود بحسن الرضا تحت ما يُجْرِى عليكَ من أحكامه فى الردِّ والصد ، وأن تؤثِرَ استقامتَك فى أداء حقوقه على إكرامك بحسن تقريبه وإقباله ، كما قال قائلهم :

أُريدُ وِصالَه ويريد هجرى   فأتركُ ما أريد لما يريد

ومِنَ اللغْوِ فى اليمين — عندهم — ما يجرى على لسانهم فى حال غلبات الوَجْد من تجريد العهد وتأكيد العقد ، فيقول :

وحقِّك ما نظرتُ إلى سواكا ، ولا قُلْتُ بغيرك . . ولا حُلْتُ عن عهدك ، وأمثال هذا . . .

وكلُّه فى حكم التوحيد لغو ، وعن شهود عهد الأحدية سهوٌ . . . ومَنْ أنتَ فى الرِّفعةِ حتى تَعْدِمَ نَفْسَكَ ؟ وأين فى الدار ديَّار حتى تقول بتركه أو تتحقق بوصله أو هجره ؟ كلا . . . بل هو الله الواحد القهار[1] .

وكما أن الكفَّارة الشرعيةَ إمَّا عِتْقٌ أو إطعامٌ وإما كسوةٌ فإن لم تستطع فصيام ثلاثة أيام : فكفَّارتهم — على موجب الإشارة — إمّا بذل الروح بحكم الوَجْدِ ، أو بذل القلب بصحة القصد ، أو بذل النفس بدوام الجهد ، فإن عجزتَ فإمساكٌ وصيامٌ عن المناهى والزواجر .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنو إنما الخمرُ والميسرُ

---

(١) وشبيه بذلك قول الشبلى حين سئل عن التوحيد (من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد ، ومن اشار إليه فهو ثنوى ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن ، ومن نطق فيه فهو غافل . . . وكل ما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، محدث مصنوع مثلكم » الرساله ص ١٤٩ .

والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عمل
الشيطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحون ﴾

الخمر ما خامر العقول ، والخمر حرام .

والإشارة فيه أنه يزيد نَفَاذَ العقل بما يوجب عليه من الالتباس .

ومَنْ شَرِبَ من خمر الغفلة فسُكْرُه أصعب ، فشرابُ الغفلةِ يوجب البعد عن الحقيقة .

وكما أن من سَكِرَ من خمر الدنيا ممنوعٌ عن الصلاةِ فمن سَكِرَ من خمر الغفلة فهو محجوبٌ عن المواصلاتِ .

وكما أنَّ مَنْ شَرِبَ من خمر الدنيا وجب عليه الحدُّ فكذلك من شربِ شرابَ الغفلة فعليه الحدُّ إذ يُضْرَبُ بسياط الخوف .

وكما أنَّ السكرانَ لا يُقامُ عليه الحدُّ مالم يُفِقْ فالغافل لاينجح فيه الوعظُ ما لم ينتبه .

وكما أن مفتاحَ الكبائر شربُ الخمر (فالغفلة)[1] أصلُ كلِّ زَلَّة ، وسببُ كلِّ ذِلَّة وبدء كل بُعْد وحجبة عن الله تعالى .

ويقال لم يحرم عليه الشرابَ فى الدنيا إلا وأباح له شرابَ القلوب ، فشراب الكبائر محظور (وشراب الاستئناس مبذول ، وعلى حسب المواجد حظى القوم بالشراب)[2] ، وحيثما كان الشرابُ كان السكْر ، وفى معناه أنشدوا :

فما ملَّ ساقيها وما ملَّ شارب   عقار لحاظ كأسه يسكر اللُّبَّا

فصحوك من لفظى هو الوصل كله   وسكرك من لحظى يبيح لك الشربا

وحُرِّم الميسرُ فى الشرع ، وفى شريعة الحب القوم مقهورون ، فمن حيث الإشارة أبدانهم مطروحة فى شوارع التقدير ، يطؤها كل عابر سبيل من الصادرين من عين المقادير ، وأرواحهم مستباحة بحكم القهر ، عليها خرجت القُرْعةُ من (. . .)[3] الحكم ، قال تعالى « فساهم فكان من المدحضين »[4] .

---

(١) اضفنا (الغفلة) وليست موجودة فى النص لتتضح المعنى .

(٢) ما بين القوسين مثبت فى الهامش نقلناه إلى موضعه حسب العلامات .

(٣) مشتبهة .   (٤) آية ١٤١ سورة الصافات .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يريد الشيطانُ أنْ يوقِع بينكم العداوةَ والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر اللهِ وعن الصلاة فهل أنتم مُنْتَهُون ﴾ .

طال بُعْدُهم عن الحقيقة فقاسوا الهوان فى مطارح الغربة ، وصاروا سخرة للشيطان ، فبقوا عن الصلاة التى هى محل النجوى وكمال الراحة ، وفَسَدَتْ ذاتُ بَيْنِهم بما تولد من الشحناء والبغضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ .

كلما كان العبد أعرفَ بربه كان أخوفَ من ربه ، وإنما ينتفى الحذر عن العبد عند تحقيق الموعد بقوله : « أولئك لهم الأمن »[1] وذلك عند دخول الجنة . وحقيقةُ الحذر نهوضُ القلب بدوام الاستغاثة مع مجارى الأنفاس .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يُحِبُّ المحسنين ﴾

من حافظ على الأمر والنهى فليس للقمة يتناولها من الخطر ما يُضَايَق فيها ، وإنما المقصودُ من العبد التأدبُ بصحبة طريقه سبحانه ، فإذا اتّقى الشِرْكَ تعَرّف ، ثم اتقى الحرامَ فما تصرّف ، ثم اتقى الشحَّ فآثر وما أسرف .

---

(١) آية ٨٢ سورة الأنعام .

وقوله « ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا . . . » يعنى اتقوا المنع[1] وأحسنوا للخلْق — وهذا للعموم . ثم اتقوا شهود الخلْق، فأحسنُ الشهودِ الحقُّ ، والإحسانُ أَنْ تعبد اللهَ كأنك تراه — وهذا للخواص .

والله يحب المحسنين أعمالاً والمحسنين (آمالا)[2] والمحسنين أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿يأيها الذين آمنوا لَيَبْلُوَنَّكم اللهُ بشىءٍ من الصيد تناله أيديكم ورِماحُكم ليعلمَ اللهُ مَنْ يخافُه بالغيب فَمَنْ اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم * يأيها الذين آمنوا لا تَقْتلُوا الصيدَ وأنتم حُرُمٌ ومَنْ قتَلَه منكم متعمداً فجزاء مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم يحْكُم به ذَوَا عَدْلٍ منكم هدْيا بالِغَ الكعبة أو كفَّارةٌ طعامُ مساكين أَوْ عَدْلُ ذلك صياماً لِيَذُوقَ وبالَ أمرِه عفا اللهُ عمَّا سَلَفَ ومَنْ عاد فينتقِمُ اللهُ منه والله عزيزٌ ذو انتقام﴾ .

أباح الصيد لمن كان حَلالاً[3] ، وحرَّم الصيد على المُحْرِم الذى قَصْدُه زيارة البيت . والإشارة فيه أن من قصد بيتنا فينبغى أن يكون الصيد منه فى الأمان ، لا يتأذى منه حيوان بحال ، لذا قالوا : البَرُّ مَنْ لا يؤذى الذر ولا يُضْمِر الشر .

ويقال الإشارة فى هذا أَنْ مَنْ قصَدَنا فعليه نَبْذُ الأطماعِ جملةً ، ولا ينبغى أن تكون له مطالبة بحالٍ من الأحوال .

---

(١) أى منع الإحسان .
(٢) نرجح أنها فى الأصل (أموالا) .
(٣) الحلال = الخارج من الإحرام (المنجد : مادة حل) .

وكما أنَّ الصيدَ على المُحْرِم حرامٌ إلى أن يتحلل فكذلك الطلب والطمع والاختيار — على الواجِد — حرامٌ ما دام مُحْرِماً بقلبه .

ويقال العارفُ صيدُ الحق ، ولا يكون للصيد صيد .

وإذا قَتَلَ المُحرِمُ الصيدَ فعليه الكفَّارة ، وإذا لاحظ العارفُ الأغيارَ، أو طمع أو رغب في شيءٍ أو اختار لَزِمَتْهُ الكفَّارة ، ولكن لا يُكْتَفَى منه بجزاء المثل ، ولا بأضعاف أمثال ما تصرَّف فيه أو طمع ، ولكن كفَّارته تجرده —على الحقيقة— عن كل غير ، قليلٍ أو كثير ، صغير أو كبير .

قوله جل ذكره : ﴿ أُحِلَّ لكم صيدُ البحر وطعامُهُ متاعاً لكم وللسيارةِ وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دُمْتُم حُرُماً واتقوا اللهَ الذى إليه تُحشَرون ﴾

حُكْمُ البحرِ خِلافُ حُكْمِ البر . وإذا غرق العبدُ في بحار الحقائق سَقَطَ حكمه ، فصيد البحر مباح له لأنه إذا غرق صار محواً ، فما إليه ليس به ولا منه إذ هو محوٌ ، واللهُ غالِبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ جعل اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناسِ والشهرَ الحرامَ والهَدْىَ والقلائدَ ذلك لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ يعلم ما في السموات وما في الأرضِ وأنَّ اللهَ بكل شىءٍ عليم ﴾

حَكَمَ الله سبحانه — بأن يكون بيتُه — اليومَ ملجأً يلوذ به كل مُؤَمِّل ، ويستقيم ببركات زيارته كلُّ مائلٍ عن نهج الاستقامة ، ويستنجح بابتهاله هنالك كلُّ ذى أَرَبٍ .

والبيتُ حَجَرٌ والعبد مَدَرٌ ، والحق سبحانه ربط المدر بالحجر ليُعْلَمَ أنه الذى لم يَزَلْ لا سبيل إليه للحدثان والغير .

قوله جل ذكره : ﴿ اعلموا أنَّ الله شَدِيدُ العقابِ وأنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾

شديد العقاب للأعداء ، غفور رحيم للأولياء .

ويقال شديد العقاب للخواص بتعجيل الحجاب إنْ زاغوا عن الشهود لحظةً ، غفور رحيم للعوام إن رجعوا إليه بتوبة وحسرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ما على الرسولِ إلا البلاغُ والله يعلم ما تُبْدُونَ وما تكْتُمون * قل لا يستوى الخبيثُ والطيبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيثِ فاتقوا الله يا أولى الألبابِ لعلكم تفلحون ﴾

المتفرِّدُ بالإلهية اللهُ . والرسولُ — وإنْ جلَّ قَدْرُه — فليس عليه إلا البلاغ وهو أيضاً (بتسييره)[1] .

قوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب » : الخبيث ما اكتسبه الغافل عن الله تعالى فى حالة اكتسابه ، والطيب ما اكتسبه على شهود الحق .

ويقال الخبيث مالم يُخْرَجْ منه حقُّ الله تعالى ، والطيب ما أُخْرِجَ منه حقه — سبحانه . ويقال الخبيث ما ادخرتَه لنفسك ، والطيب ما قدَّمتَه لأمره .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تُبْدَ لكم تسؤكم وإنْ تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا اللهُ عنها والله غفورٌ حليمٌ ﴾

---

(١) لا نستبعد ايضاً انها ربما كانت فى الأصل (بتيسيره) ، وكلاهما مقبول فى السياق .

إذا أسبل عليكم ستر اللطف فلا تتعرضوا لعلمٍ أُخْفِيَ عنكم ، فيتنغص (بالتجـ ...)[1] — عليكم — عَيْشُكم .

ويقال لا تتعرضوا للوقوف على محل الأكابر — حيث لا تستوجبون ذلك — فيسوءكم تقاصرُ رتبتكم .

ويقال إذا بدا من الإعراض علم فاطلبوا له عندكم وجهاً من (التفال)[2] ولا تطلبوا أسرار البارى ، واركنوا إلى روْح المنى فى استدفاع ما (ظلكم)[3] ولا تبحثوا عن سر ذلك ، وراعوا الأمر مجملاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قد سألها قومٌ مِنْ قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾

يعنى توهَّم قومٌ أنهم محررون عن التأثر فيما يصادفهم من فجاءة التقدير ، وذلك منهم ظَنٌّ ، كما يقول بعضهم :

تبيَّن يومَ البيْن أنَّ اعتزامَه على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

قوله جل ذكره : ﴿ ما جعل اللهُ من بَحِيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾

هذه أحكامُ ابتدعوها ، فردَّهم الحقُّ — سبحانه — عنْ الابتداع ، وأمَرَهم بحسن الاتِّباع ، وأخبر أنَّ ما صدر من عاداتهم لا يُعَدُّ من جملة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللهُ

---

(١) بقية الكلمة مشتبهة ولكنها أقرب ما تكون إلى (التجسس) وهى مقبولة هكذا فى السياق ؛ أى لا تجعلوا التجسس ومحاولة معرفة الأسرار ينغص عليكم عيشكم .

(٢) هكذا فى النسخ ونرجح أنها فى الأصل (التأويل) وإن كانت بعيدة فى الرسم .

(٣) أى ما غشيكم من سُحُب الإعراض .

وإلى الرسول قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا
عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم
لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾

إذا هتفت بهم دواعى الحقِّ بالجنوح إلى وصف الصدق صَدَّهم عن الإجابة ما مرنوا عليه من سهولة (التقليد)[1] ، وإن أسلافهم الذين وافقوهم لم يكونوا إلاَّ فى ضلال .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم
لا يضرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتم
إلى الله مرجعكم جميعاً فيُنَبِّئُكم بما
كنتم تعملون ﴾

يكفى للفقير أن يمشىَ وقد جُبِرَ بعضُ (كَسْرِه)[2] ، فأمَّا إذا ادَّعى التقدم أو الطمع فى إنجادِ مَنْ سواه فمحال من (الحدث)[3] والظن .

ويقال من يفرغ إلى غيره يتشاغل عن نفسه ، ومن اشتغل بنفسه لم يتفرَّغ إلى غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا شهادةُ بَيْنِكم إذا
حضر أحدَكم الموتُ حين الوصية
اثنان ذَوَا عدلٍ منكم أو آخران من
غيركم إنْ أنتم ضربتم فى الأرض
فأصابتكم مصيبةُ الموتِ تحبسونهما
من بعد الصلاة فيُقسِمانِ بالله إن ارتبتم
لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قُربى
ولا نكتمُ شهادةَ الله إنَّا إذاً لَمِنَ

---

(١) وردت (التقليل) والصواب (تقليد) آبائهم وإسلافهم كما فى الآية .
(٢) وردت (كثره) بالثاء والصواب : جبر (كسره) بالسين .
(٣) ربما كانت فى الأصل (الحدس) لتتمشى مع الظن .

الآثمين * فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقامهما من الذين استحق عليهم الأَوْلَيان فيقسمان بالله لَشَهادَتُنا أحقُّ من شهادتهما وما اعتَدَيْنا إنا إذاً لمِنَ الظالمين * ذلك أدنى أنْ يَأْتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بعد أَيْمانهم واتقوا اللهَ واسمعوا ، والله لا يهدى القومَ الفاسقين ﴾

حكم هذه الآية كان ثابتاً فى الشرع و نُسخ ، وفى بيان التفسير تفصيلُه .

والنسخُ هو الإزالة ، وذلك جائزٌ فى العبادات .

ومعنى النسخ يوجد فى سلوك المريدين ؛ فهم فى الابتداء فَرْضُهم القيام بالظواهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر ، فهو كالنسخ من حيث الصورة .

قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها »[1] . واتصافهم بمراعاة القلوب أتمُّ بتأديبهم بأحكام المعاملات[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يوم يجمع اللهُ الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلمَ لنا إنَّك أنتَ علاَّمُ الغيوب ﴾

يكاشفهم بنعت الجلال فتنخنس فهومُهم وعلومُهم حتى ينطقوا بالبراءة عن التحقيق

---

(١) آية ١٠٦ سورة البقرة . (٢) أى أن مراعاة الحقيقة تتم بمراعاة الشريعة .

ويقولون: «لا علم لنا»، وهكذا تكون الحالة غداً: مَنْ قال لشيءٍ أو مَالَ لشيءٍ مما يكون نعتاً بمخلوق فعند ظهور وابل التعزُّز تتلاشى الجملة، فالملائكة يقولون: «ما عبدناك حق عبادتك» والأنبياء يقولون: «لا عِلْمَ لنا».

قوله جل ذكره: ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيَّدتُك بروحِ القُدُسِ تكلِّمُ الناسَ فى المهد وكهلاً وإذ علَّمتُكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتُبْرِئُ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففتُ بنى إسرائيل عنك إذ جئتَهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾

التذكيرُ بوجوه النعم يستخرج خلاصة الحب والهيمان فى المذكور[1]، وكلُّ وقتٍ للأحباب يمضى يصير لهم حديثاً يتلى من بعدهم: إما عليهم وإمَّا عنهم.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشْهَدْ بأنَّنا مسلمون ﴾

---

(١) أعلى درجات الذكر أن يفنى الذاكر فى المذكور وفيها ينتقل العبد من مرتبة ذكر النعم إلى ذكر المنعم. فكأن القشيرى يقصد بإشارته إلى ان تذكير عيسى وامه بالنعم التى وردت فى الآية تحثُّ لها على الارتقاء من مرحلة النظر إلى النعم إلى مرحلة النظر إلى صاحبها سبحانه وتعالى، وحبه والهيمان فيه.

وإنما خصَّهم بالوحى إليهم إلهاماً وإكراماً لانبساط ضياء عيسى عليهم[1] ، وفى الأثر : « هُمُ القومُ لا يَشْقَى بهم جليسُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّك أنْ يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السماء قال اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين * قالوا نريد أنْ نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنا ونعلم أنْ قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشاهدين ﴾

طلبوا المائدةَ لتسكن قلوبهم بما يشاهدونه من عظيم الآية وعجيب المعجزة ، فعُذِرُوا وأجيبوا إليها ، إذ كان مرادُهم حصولَ اليقين وزيادةَ البصيرة .

ويقال كلٌّ يطلب سُؤْلَه على حسب ضرورته وحالته ، فمنهم من كان سكونه فى مائدة من الطعام يجدها ، ومنهم من يكون سكونه فى (فائدة)[2] من الموارد يَرِدُها ، وعزيز منهم من يجد الفناء[3] عن برهان يتأمله ، أو بيان دليل يطلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنْزِلْ علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾

شَتَّان بين أمة طلب لهم نبيُّهم سكوناً بإنزال المائدة عليهم ، وبين أمة بدأهم ـ سبحانه ـ

---

(١) وهذا يطابق فكرة القشيرى فى الولاية وكيف انها ملحقة بالمعجزة ، فما يظهر على الولى من كرامة هو بركة النبى الذى الولى من امته وعصره .

(٢) ربما كانت (مائدة) ليتم التقابل بين المائدتين الحسية والمعنوية .

(٣) ربما كانت (الغناء) اى يجد الاستغناء عن كل برهان ودليل ، وتصح (الفناء) بالفاء على معنى أن فناءه فى الله لا يحوجه إلى برهان أو دليل . .

بإنزال السكينة عليهم ، من غير سؤال أحد ، قال الله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »[1]

وقال فى صفتهم : « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا »[2]

وفَرْقٌ بين مَنْ زيادةُ إيمانه بآياته التى تتلى عليهم وبين من يكون سكونهم إلى كرامات وعطايا تُباَحُ لهم .

قوله جل ذكره : ﴿قال الله إنى مُنَزِّلُهاَ عليكم فَمَنْ
يكفرْ بعدُ منكم فإنى أُعَذِّبُهُ عذاباً
لا أُعذبُهُ أَحَداً مِنَ العالمين﴾

أجابه إلى سؤالهم ، ولكن توعدهم[3] بأليم العقاب لو خالفوا بعده لِيَعْلَمَ السالكون أنَّ المراد إذا حصل ، وأنْ الكرامة إذا تحققت — فالخطر أشدُّ والحالُ من الآفة أقربُ ، وكلما كانت الرتبة أعلى كانت الآفة أخفى ، ومحن الأكابر إذا حلَّت جلَّت .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم
أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذونى وأمى
إلهين مِنْ دون الله قال سبحانك
ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق
إنْ كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم
ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك
إنك أنت علَّام الغيوب﴾

المراد من هذا السؤال إظهار براءة ساحته عما نسب إليه من الدعاء إلى القول بالتثليث ، فهذا ليس خطاب تعنيف بل هو سؤال تشريف .

---

(١) آية ٤ سورة الفتح .
(٢) آية ٢ سورة الأنفال .
(٣) وردت (يوعدهم) .

ثم إن عيسى — عليه السلام — حفظ أدب الخطاب فلم يُزَكِّ نَفْسَه ، بل بدأ بالثناء على الحق — سبحانه — فقال : تنزيهاً لك ! إننى أنزهك عما لا يليق بوصفك .

ثم قال : « ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » أى إنى إن كنت مخصوصاً مِنْ قِبَلِكَ بالرسالة — وشرط النبوة العصمة — فكيف يجوز أن أفعل ما لا يجوز لى ؟ .

ثم إنى « إن كنتُ قلتُه فقد علمته » : كان واثقاً بأن الحقَّ — سبحانه — عليم بنزاهته من تلك القالة .

« تعلم ما فى نفسى » : أى علمك محيطٌ بكل معلوم .

« ولا أعلم ما فى نفسك » أى لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعَرِّفُنِي بإعلامك . « إنك أنت علاَّم الغيوب » الذى لا يخرج معلوم عن علمك ، ولا مقدور عن حكمك .

قوله جل ذكره : ﴿ ما قُلْتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربَّكم وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتنى كُنْتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾

ما دعوتُهم إلا لعبادتك ، وما أمرتهم إلا بتوحيدك وتقديسك ، وما دمت حياً فيهم كنت (. . . .)[1] على هذه الجملة ، فلما فارقتُهم كان تصرفهم فى قبضتك على مقتضى مشيئتك ، فأنت أعلم بما كانوا عليه من وَصْفَيْ وفاقهم وخلافهم ، ونِعمَتَىْ اقتصادهم[2] وإسرافهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إن تعذِّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

---

(١) مشتبهة .

(٢) الاقتصاد هنا معناها الاعتدال .

بيّن أن حكم المولى فى عبيده نافذ بحكم إطلاق ملكه ، فقال إن تعذبهم يحسن منك تعذيبهم وكان ذلك لأنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم أى المُعِزّ لهم بمغفرتك لهم .

ويقال أنت العزيز الحكيم الذى لا يضرك كُفْرُهم .

ويقال « العزيز » القادر على الانتقام منهم فالعفو (عند)[1] القدرة سِمَةُ الكرم ، وعند العجز أمارةُ الذُّلِّ .

ويقال إن تغفر لهم فإنك أعزُّ من أن (تتجمل)[2] بطاعة مطيعٍ أو تنتقص[3] بزلّةِ عاصٍ . وقوله « الحكيم » ردٌّ على من قال : غفران الشِّركِ ليس بصحيح فى الحكمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الله هذا يومُ ينفع الصادقين صدقُهم لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ﴾

مَنْ تعجَّل ميراثَ صدقه فى دنياه من قبولٍ حصل له من الناس ، أو رياسةٍ عقدت له ، أو نفعٍ وصل إليه من جاهٍ[4] أو مالٍ . فلا شىء له فى آجله من صواب صدقه ، لأن الحقَّ — سبحانه — نصَّ بأنَّ يومَ القيامة ينفع فيه الصادقين صدقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضِىَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾

ورضاه الحق — سبحانه — إثباتُ مَحَلٍّ لهم ، وثناؤه عليهم ومدحهُ لهم ، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله . ورضاؤهم عن الحقِ — سبحانه — فى الآخرة وصولهم إلى مناهم ؛ فهو الفوز العظيم والنجاة الكبرى .

---

(١) وردت (عن) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (تتحمل) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (تنتقض) بالضاد وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت (جاره) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ لله مُلْكُ السموات والأرض وما فيهن ﴾

تَمَدَّحَ الحقُّ — سبحانه — بقدرته القديمة الشاملة لجميع المقدورات ، الصالحة لإيجاد المصنوعات ، ولم يتجمل بإضافة غيرٍ إلى نفسه من اسمٍ أو أثرٍ ، أو عينٍ أو طلل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾

من الإبعاد والإسعاد ، والصد والرد ، والدفع والنفع ، والقمع والمنع .

السورة التي تذكر فيها الأنعام

« بسم الله الرحمن الرحيم »

باسمه استنارت القلوب واستقلَّت ، وباسمه زالت الكروب واضمحلت ، وبرحمته عرفت الأرواح وارتاحت ، وبا (. . .)[1] انْخَنَسَتْ العقولُ فطاحت .

ويقال باسم الله نال كلُّ مؤمِّلٍ مأموله ، وبرحمة الله وَجَدَ كل واجد وصوله .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمد لله الذى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وَجَعَلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾

بدأ الله — سبحانه — بالثناء على نفسه ، فحمد نفسه بثنائه الأزليّ وأخبر عن سنائه الصمدى ، وعلائه الأحدى فقال : « الحمد لله » .

وقوله عز وجل : « الذى خلق السموات والأرض » : « فالذى » إشارة و « خلق السموات والأرض » عبارة . استقلت الأسرارُ بسماع « الذى » لتحققها بوجوده ، ودوامها لشهوده ، واحتاجت القلوب عند سماع « الذى » إلى سماع الصلة لأن « الذى » من الأسماء الموصولة بكونِ القلوب تحت ستر الغيب فقال : « خلق السموات والأرض »

---

(1) مشتبهة .

قوله جل ذكره ﴿ وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلُون ﴾

خَلَقَ ظلمةَ الليل وضياء النهار ، ووحشةَ الكفر والشرْك ، ونور العرفان والاستبصار .

ويقال جَعَلَ الظلماتِ نصيبَ قومٍ لا لجُرْمٍ سَلَفَ ، والنورَ نصيبَ قومٍ لا لاستحقاقٍ سبق ، ولـكنه حُكْمٌ به جرى قضاؤه .

ويقال جعل ظلماتِ العصيان محنةَ قومٍ ، ونور العرفان نزهةَ قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى خلقكم من طينٍ ثم قضى أَجلًا وَأَجلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تَمْتَرون ﴾

أثبت الأصل من الطين وأودعها عجائب (السير)[1] ، وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعِبْرةُ بالوَصْلِ لا بالأصل ؛ فالوَصْلُ قُرْبَةٌ والأصل تُرْبَةٌ ، الأصل من حيث النُّطفة والقطرة ، والوصل من حيث القربة والنُّصرة .

قوله « ثم قضى أجلًا وأجل مُسَمًّى عنده » : جعل للامتحان أجلًا ، ثم جعل للامتنان أجلا ، فأَجَلُ الامتحان فى الدنيا ، وأَجَلُ الامتنان فى العُقبى .

ويقال ضَرَبَ للطلب أجلًا وهو وقت المهلة ، ثم عقبه بأجل بعده وهو وقت الوصلة ؛ فالمهلة لها مدًى ومنتهى ، والوصلة بلا مدًى ولا منتهى ؛ فوقتُ الوجودِ له ابتداء وهو حين تطلع شموس التوحيد ثم يتسرمد[2] فلا غروب لها بعد الطلوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سِرَّكم وجهركم ويعلم ماتكسِبُون ﴾ .

---

(١) إما ان تكون (السير) جمع سيرة او تكون (السير) مصدر سار يسير ، ولا نستبعد انها فى الأصل (السر) فالسر — كما يقول صاحب اللمع — هو خفاء بين العدم والوجود (اللمع ص ٤٣٠)

(٢) وفى ذلك يقول الشبلى :

تسرمد وقتى فيك وهو مسرمد ۞ وافنيتنى عنى فصرت مجرداً

(اللمع ص ٤٤٢)

وهو الذى هو معبودُ مَنْ فى السماء ، مقصود مَنْ فى الأرض ، وهو الموجود قبل كل سماء وفضاء ، وظلام وضياء ، وشمس وقمر ، وعين وأثر ، وغير وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربِّهم إلا كانوا عنها مُعْرِضين﴾ .

أى لا يزيدهم كشفاً ولطفاً إلا قابلوهُ جحداً وكفراً ، ولا يُولِيهم إقبالاً إلا قابلوه بإعراض ، ولا يلقاهم بَسْطًا إلاَّ (. . . .)[1] بانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقَد كذَّبوا بالحق لمَّا جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

إنهم أصَرُّوا على الخلافِ مستكبرين ، وعن قريب يقاسون وبالَ أمرهم ، ويذوقون غِبَّ جُحْدِهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَمْ يَرَوْا كم أهلكنا منْ قَبْلِهِم مِنْ قرنٍ مَكَّنَّاهم فى الأرضِ ما لم نُمَكِّنْ لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهارَ تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا مِنْ بعدهم قَرْنًا آخَرين ﴾ .

يعنى مَنْ تقَدَّمَهُم كانوا أشدَّ تمكناً فى إمهالنا ، وأكثر نصيبًا — فى الظاهر — من أقوالنا ؛ سهَّلنا لهم أسبابَ المعاش ، ووسَّعنا عليهم أبواب الانتعاش ، فحين وَطَّنُوا على كواذب المنى قلوبَهم ، وأدركوا من الدنيا محبوبهم ومطلوبَهم فتحنا عليهم من مكامن التقدير ، وأبرزنا لهم من غوامض الأمور ما فزعوا عليه من النَّدَم ، وذاقوا دونه طعم الألم . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، وأورثناهم مساكنهم ، وأسكناهم أماكنهم ، فلمَّا انخرطوا — فى الغىِّ — عن

(١) مشتبهة .

سلكهم ، ألحقناهم فى الإهلاك بهم ، سُنَّةً منا فى الانتقام قضيناها على أعدائنا ، وعادةً فى الإكرام أجريناها لأوليائنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحرٌ مبين ﴾ .

يُخْبِرُ عن كمالِ قدرته فى إبداء مايريده بعد ما قَضَى لهم الضلالَ ، فلو أشهدهم كُلَّ دليل ، وأَوْضَحَ لهم كل سبيل ما ازدادوا إلا تمادياً فى الضلال والنفرة ، وانهما كاً فى الجهل والغىّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا أُنْزِل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لقُضِىَ الأمر ثم لا يُنْظَرُون ﴾ .

بيَّنَ أنَّ العِبْرةَ بالقسمة دون الاعتبار بالحجة ، وما يغنى السراج عند مَنْ فَقَدَ البصر ؟ كذلك ما تغنى الحججُ عند مَنْ عدم عناية الأزل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلًا وللَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسُون ﴾ .

مَنْ لم يُقَدِّسْ سِرَّه لَبَّسَ عليه أمْرَه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد اسْتُهْزِىء بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِك فحاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

أى سَبَقَكَ — يا محمد — مَنْ كُذِّب به كما كُذِّبْتَ ، فحقَّ لهم نصرنا ، فانتقمنا ممن ناوءهم ، فعاد إليهم وبالُ كيدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ سيروا فى الأرضِ ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين ﴾ .

قُلْ دوخوا فى الأرضِ ، وسيحوا فى سيركم فيها من الطول والعَرْضِ ، ثم انظروا هل أفلَتَ من حكمنا أحدٌ ، وهل وجد من دونَ أمرنا مُلْتَحَداً[1] ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِمَنْ ما فى السمواتِ والأرض قُلْ لله كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمةَ لَيَجْمَعَنَّكُم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه الذين خسروا أنفُسَهم فهم لا يؤمنون ﴾

سَلْهُم هل فى الدار ديار ؟ وهل للكَوْنِ — فى التحقيق — عند الحق مقدار ؟ فإنْ بقوا عن جوابٍ يَشْفِى ، فَقُلْ : الله فى الربوبية يكفى .

قوله : « كتب على نفسه الرحمة » : أخبرَ وحَكَمَ وأرادَ على حسب ما عَلِمَ ، فمَنْ تعلَّقَ بنجاته عِلْمُه سَبَقَ بدرجاته حُكْمُه ، ومَنْ عَلِمَ فى آزاله أنه يَشْقَى فبقدر شقائه فى البلاء يبقى .

قوله جل ذكره : ﴿ وله ما سَكَنَ فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾

الحادثاتُ للهِ مِلْكاً ، وباللهِ ظهوراً ، ومِنْ اللهِ بدءاً ، وإلى اللهِ رجوعاً . وهو «السميع» لأنين المشتاقين ، « العليم » بحنين الواجدين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أتَّخِذُ وليّاً فاطرِ السموات والأرض ﴾

أبَعْدَ ما أكرمنى بجميل ولايته أتولى غيره ؟ وبعد ماوَقَعَ علىَّ ضياء عنايته أنظرُ فى الدارين إلى أحد ؟ إنَّ هذا محالٌ فى الظنِّ والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَم ﴾

له نعتُ الكَرَمِ فلذلك يُطْعِمُ ، وله حقُّ القِدَمِ فلذلك لا يُطْعَمْ

---

(١) الملتحد = الملجأ لأن اللاجيء يلجأ إليه (المنجد) .

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ إنى أخاف إنْ عصيْتُ ربى
عذابَ يومٍ عظيم ﴾

أى إنِّى بعجزى متحقق، ومن عذاب ربى مُشْفِق، وبمتابعة أمره مُتَخَلِّقٌ.

قوله جل ذكره: ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عنه يومئذٍ فَقَد رَحِمَه
وذلك الفوزُ المبين ﴾

من أدركه سابقُ عنايته صَرَفَ عنه لاحِقَ عقوبته.

قوله جل ذكره: ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له
إلا هو وإن يمسسك بخيرٍ فهو على
كل شىءٍ قديرٌ ﴾

إنَّه مَنْ ينجيك من البلاء، ومن يُلقيك فى العناء. وإذ المتفرِّد بالإبلاغ واحد فالأغيارُ كلُّهم أفعاله؛ وإن الإيجاد لا يَصْلُحُ من الأفعال.

قوله جل ذكره: ﴿ وهو القاهرُ فوق عباده وهو
الحكيم الخبير ﴾

عَلَتْ رُتبةُ الأحدية صفةَ البشرية، فهذا لم يزل وهذا لم يكن فحصل[1]. ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التوحيد؟

قوله جل ذكره: ﴿ قل أى شىء أكبرُ شهادةً قُلْ اللهُ
شهيدٌ بينى وبينكم وأُوحى إلىَّ هذا
القرآنُ لأُنذركم به ومن بلغ أئِنَّكُم
لَتَشْهَدُونَ أنَّ مع الله آلِهَةً أخرى
قل لا أشهدُ قل إنما هو إله واحد
وإننى برىءٌ مما تشركون ﴾

---

(١) وبتعبير آخر هذا واجب الوجود وهذا ممكن الوجود — كما يقول أهل الفلسفة.

غلبت شهادة الحقِّ — سبحانه — كلَّ شهادة ، فهم إذا أقبلوا يشهدون فلا تحيط بحقائق الشيء علومُهم ، والحقُّ — سبحانه — هو الذى لا يَخْفَى عليه شىء ، ثم أخبره — صلى الله عليه وسلم أنه مبعوثٌ إلى الكافة ومَنْ سيوجد إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسَهم فهم لا يؤمنون ﴾

أحاط علمُهم بصدقِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فى نبُوَّتِهِ ، ولكن أدركتهم الشقاوة الأزلية فعقدت ألسنتهم عن الإقرار به ؛ فجحدوه جهراً ، وعلموا صِدْقَه سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمنْ أظلمُ مِمن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته إنه لا يُفلح الظالمون ﴾

شؤم الخذلان بلغ بالنكاية فيهم ما جرَّهم إلى الإصرار على الكذب على الله تعالى ، ثم لم يستحيوا من اطلاعه ، ولم يخشوا من عذابه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾

يجمعهم ليوم الحشر والنشر ، لكنه يفرقهم فى الحكم والأمر ، فالبعث يجمعهم ولكن الحكم يفرقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : واللهِ ربِّنا ما كُنَّا مشركين ﴾ [1] .

هذا الذى أخبر عنهم غايةُ التمرد ؛ حيث جحدوا ما كذبُوا فيه وأقسموا عليه ، ولو كان لهم بالله عِلمٌ لتحققوا بأنه يعلم سِرَّهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شىء منْ أولاَهم وعُقباهم ، لكن الجهل الغالب عليهم استنطقهم بما فيه فضائحهم .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مشرقين) بالقاف .

قوله جل ذكره : ﴿ أنظرُ كيف كَذَبُوا على أنفسهم
وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

هذه كلمة تعجب ؛ يعنى إنَّ قصتهم منها ماهو محلُّ التعجب لأمثالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا
على قلوبهم أكِنَّةً أن يفقهوه وفى
آذانهم وقراً ﴾ .

بيَّنَ أن السمعَ — فى الحقيقة — سمعُ القبول ، وذلك عن عين اليقين يصدر ، فأما سَمْعُ الظاهر فلا عِبْرَةَ به .

ويقال مَنْ ابتلاه الحقُّ بقلبٍ مطبق ، ووضع فوق بصيرته غطاء التلبيس لم يزدْه ذلك إلا نفرة على نفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يَرَوْا كلَّ آية لا يؤمنوا بها
حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول
الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير
الأولين ﴾ .

يعنى مَنْ أقصَته القسمة الأزلية لم تنعشه الحيلة الأبدية[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وهم ينهَوْنَ عنه وينأَوْنَ وإن يُهلِكون
إلا أنفسَهم (و)[2] ما يشعرون ﴾ .

فى هذه الآية إشارة صعبة (لمن)[3] يدعو إلى الحق جهراً ثم لا يأتى بذلك سراً .

ويقال خالَفَتْ أحوالُهم قضايا أقوالهم ، وجرى إجرامُهم مجرى مَنْ ألقوا حِبالَهم على غاربهم ، وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعلُه .

---

(١) تساوى هذه العبارة فى المعنى ما يأتى بعد قليل (وكذلك من أبعده عن القسمة لم يقربه فعله) .
(٢) سقطت الواو من الناسخ فأثبتناها .
(٣) وردت (لم) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا
ياليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآيات ربِّنا
ونكون من المؤمنين ﴾ .

يعنى حين ينجز للعبد ماوعده له من القربة يشغل من شاء بنوعٍ من العلة حتى لا يطلع أحد على محل الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بدا لهم ما كانوا يُخْفُون مِنْ قبل
ولو ردُّوا لعادوا لِمَا نُهُوا عنه وإنهم
لكاذبون * وقالوا إنْ هى إلا حياتنا
الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

غداً يوم تنهتك الأستار ، وتظهر الأسرار — فكم من مُجَلَّل بثوب تقواه ، ويَحْكُم له معارفُه بانه زاهدٌ فى دنياه ، راغب فى عقباه ، محبٌ لمولاه ، مُفارِقٌ لهواه ، فَيُكْشَفُ الأمر عن خلاف مافهموه ، ويفتضح عندهم بغير ماظنوه .

وكم من متهتك ستر بما أظهر عليه ا ظنَّ الكلُّ أنه خليع العذار هيِّن الأعلال ، مشوش الأسرار ، فظهر لذوى البصائر جوهره ، وبدت عن خفايا الستر حقيقته[1] .

ثم قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » أخبر عما علم أنه لا يكون أنه لو كان كيف كان يكون ؛ فقال لو رُدَّ أهل العقوبة إلى دنياهم لعادوا إلى جحدهم وإنكارهم ، وكذلك لو رُدَّ أهل الصفاء والوفاء إلى دنياهم لعادوا إلى أحسن أعمالهم :

قوله جل ذكره : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربهم قال
أليس هذا بالحقِّ ؟ قالوا : بلى وربِّنا

---

(١) لاحظ كيف ان القشيرى متأثر إلى حد كبير بتعاليم الملامتية ، فأهل الملامة يقومون بأعمال تستوجب ملامة الناس ستراً لأسرارهم وصونا لأحوالهم قصداً إلى محاربة دعوى النفس ، والا كتفاء بعلم الحق بأحوالهم وحقائقهم .

قال : فذوقوا العذابَ بما كنتم
تَكْفُرُون ﴾ .

ياحسرةً عليهم من موقف الخجل ، ومحل مقاساة الوَجَل ، وتذكر تقصير العمل !
فهم واقفون على أقدام الحسرة ، يقرعون أسنان الندم حين لاندم ينفعهم ، ولا شكوى
تُسْمَعُ منهم ، ولا رحمة تنزل عليهم .

وحين يقول لهم : أليس هذا بالحق ؟ يُقِرُّون كارهين ، ويصرخون بالتبرى عن كل غَيْر
قوله جل ذكره : ﴿ قد خَسِرَ الذين كذبوا بلقاءِ الله حتى
إذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا ياحسرتنا
على مافرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم
على ظهورهم ألا سَاء ما يَزِرُون ﴿
وما الحياة الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ وللدارُ
الآخِرةُخيرٌ للذين يتقون أفلاتعقلون﴿
قد نعلم إنه لَيَحْزُنُكَ الذى يقولون
فإنهم لا يُكَذِّبونك ولكنَّ الظالمين
بآيات الله يجحدون ﴾

خسران وأى خسران ! لم يخسروا مالاً ، ولا مقاماً ولا حالاً ، ولكن كما قيل :

لعمرى لئن أُنزِفتُ دمعى فإنه لفرقةِ مَنْ أفنيتُ فى ذكره عمرى

المصيبة لهم والحسرة على غيرهم ، ومَنْ لم يَعْرِفْ جلالَ قدره متى تأسَّف على ما يفوته من
حديثه وأمره ؟ !

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » : ما كان للنفس فيه حظ ونصيب اليوم فهو
من الدنيا ، وما كان من الدنيا فإنه — لا محالة — يُلهيك عن مولاك ، وما يشغلك عن الحق
ركونُه فغيرُ مباركٍ قُرْبُه .

قوله : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكنَّ
الظالمينَ بآيات اللهِ يَجْحدون » : هذه تعزية للرسول — صلى الله عليه وسلم

وتسلية . أى قد نعلم ماقالوا فيك وهم إنما قالوا ذلك بسَببنا ولأجْلِنا . ولقد كُنْتَ عظيمَ الجاه فيهم قبل أن أوقعنا عليكَ هذا الرقم ، وكانوا يسمونك محمداً الأمين ، فإنْ أصابَكَ ما يصيبك فَلِأَجْلِ حديثنا ، وغيرُ ضائعٍ لك هذا عندنا ، وحالُكَ فينا كما قيل :

أشاعوا لنا فى الحىِّ أشنع قصةٍ ، وكانوا لنا سِلْما فصاروا لنا حَربا

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ مِنْ قبلك فصَبَرُوا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نَصْرُنا ولا مُبَدِّلَ لكلمات الله ولقد جاءك من نَّبَإِىْ المُرْسَلين ﴾

يعنى إنَّ مَنْ سَلَكَ سبيلَنا صبر على ما أصابه من حديثنا ، فلا خَسِرَتْ فينا صفقتُه ، ولا خَفِيَتْ علينا حالتُه ، وما قَابَلَ حُكْمَنَا مَنْ عرَفَنَا إلا بالمُهج ، وما حملوا مالقوا فينا إلا على الحدق :

إنَّ الأُلى ماتوا على دين الهوى وجدوا المنيةَ منهلا معسولا

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كان كَبُرَ عليكَ إعراضُهُم فإن استطعتَ أنْ تبتغى نَفَقاً فى الأرضِ أو سُلَّماً فى السماء فتأتيهم بآيةٍ ، ولو شاء اللهُ لَجَمَعَهم على الهُدَى فلا تَكونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾

لفرط شفقته — صلى الله عليه وسلم — استقصى فى التماس الرحمة من الله لهم ، وحمل على قلبه العزيز بسبب ما عَلِمَ من سوء أحوالهم ما أثَّر فيه من فنون الأحزان . فعرَّفه أنهم مُبْعَدُون عن التقريب ، منكوبون بسالف القسمة .

ولو أراد الحقُّ — سبحانه — خَفَّفَ عنهم ، ولو شاء أن يهديَهم لكان لهم مقيل فى الصدور ، ومثوى على النشاط ، ولكن مَنْ كَبَسَتْهُ العِزَّةُ لم تُنْعِشْه الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما يستجيب الذين يسمعون والموتى
يبعثهم الله ثم إليه يُرْجَعُون ﴾

مَنْ فقد الاستماع فى سرائره عَدِمَ توفيقَ الاتِّباع بظاهره ، والاختيارُ السابقُ فى معلومه — سبحانه — غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ مِنْ ربِّه
قُلْ إنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُنَزِّلَ آيةً
ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

استزادوا من المعجزات وقد حصل من ذلك ما يذيح العذر ، ولم يعلموا أن الله المانع لهم فلولا ما (. . .)[1] من بصائرهم لما تواهموا من عدم دلائلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وما من دابةٍ فى الأرضِ ولا طَائرٍ
يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالُكم
ما فرطنا فى الكتاب من شىءٍ
ثُمَّ إلى ربهم يُحْشَرون ﴾

يعنى تساوت المخلوقات ، وتماثلت المصنوعات فى الحاجة إلى المُنْشِىء : فى حال الإبداع ثم فى حال البقاء ، وكذلك جميع الصفات النفسية والنعوت الذاتية توقفت عن الإيجاد والاختيار ، فما من شىء من عينٍ وأثر ، ورسم وطلل . . إلا وهو على وحدانيته شاهدٌ ، وعلى كون أنه مخلوق . . دليلٌ ظاهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كَذَّبوا بآياتنا صُمٌّ
وبُكْمٌ فى الظلمات ، من يشأ اللهُ
يُضْلِلْهُ ومن يشأ يجعله على صراط
مستقيم ﴾

الذين فاتتهم العناية الأزلية سَدَّ الحرمانُ أسماعَهم ، وغَشَّى الخِذلانُ أبصارَهم .

---

(١) مشتبهة وربما كانت (سد) فهى فى الخط إلى ذلك أقرب .

والإرادة لا تُعارَض ، والمشيئةُ لا تزَاحَم[1] ، والحقُّ — سبحانه — فى جميع الأحوالِ غالبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ ، أغيرَ اللهِ تَدْعُون إنْ كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشِفُ ما تدعون إليه إنْ شاء وتَنْسَوْن ماتُشْرِكون ﴾

إذا مَسَّكم الضُرُّ ، ونَابَكُم أمرٌ فمَنْ ترومون كَشْفَه ؟ ومَنْ الذى تؤملون لُطْفَه ؟ أمخلوقاً شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم مَلَكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟

ثم قال : « بل إياه تدعون » : أى إنكم — إنْ تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم — لن تجدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه مُلْتَحَداً ، فتعودون إليه فى استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبِّر ، كما قيل :

ويرجعنى إليكَ — وإن تناءتْ دِيارى عنكَ — معرفةُ الرجال
وقد تركناكَ للذى تريد فعسى إنْ خَبَرْتَه أنْ تعودا

فإذا جرَّبْتَ الكل ، وذُقْتَ الحُلْوَ والمُرَّ ، أفضى بك الضُرُّ إلى بابه ، فإذا رجعت بنعت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إنْ شاء أتاح اليُسْر وأزال العُسر ، وإن شاء ضاعف الضُر وعوَّض الأجر ، وإنْ شاء ترك الحال على ما (قبل)[2] السؤال والابتهال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُممٍ مِنْ قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلَّهم يتضرعون ﴾

---

(1) وردت (نزام) بالهاء وهى خطأ فى النسخ
(2) وردت (قيل) وهى خطأ فى النسخ

يخبر عن سالف سنته فى أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ، وما أحلَّ بمن خالفه من الألم وفنون النِّقَم .

قوله جل ذكره : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرعوا ولكن قست قلوبُهم وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نَسُوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هُمْ مُبْلِسُون ﴾

يعنى أنهم لما أظَلَّهُم البلاء ، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن ، ولأتحنا لهم المنن ، ولكن صدَّهم الخذلان عن العقبى فأصروا على تمردهم ، فَقَسَتْ قلوبُهم وتضاعفت أسباب شقوتهم .

قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به » يخبر عن خَفِيِّ مكره بهم ، وكيف أنه استدرجهم ، ثم أذاقهم وبالَ أمرهم فقال : لما طالتْ عن الحضرة غيبتُهم ، ولم تنجحْ مواعظُنا فيهم سَهَّلْنا لهم أسبابَ العوافى وصببنا عليهم عزالى[1] النِّعم ، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية ، فلما استمكن الرجاء من قلوبهم أخذناهم بغتةً وعذبناهم فجأة ، وأذقناهم حسرةً فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولِمَا خامر قلوبَهم — من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة — آيسون .

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُطِع دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمد لله ربِّ العالمين ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبقَ منهم عين ولا أثر ، ولم يَرِدْ حديث منهم أو خبر ،

---

(١) العزالى : يقال أنزلت السماء عزاليها إشارة إلى شدة وقع المطر

والله — سبحانه وتعالى — بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فَقْدِهِم له استيحاش، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار[1].

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم
وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إلهٌ
غيرُ اللهِ يأتيكم به أنظُرْ كيف
نُصَرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْدِفون ﴾

عرَّفهم محلَّ عجزهم، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم.

وحذَّرهم فقال: إنْ لم يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم، ولم يوجِبْ لهم ما ألبسهم من العوافي — بكل وجهٍ في كل لحظة — فمن الذى يهب ما سلبه، أو يضع ما منعه، أو يعيد ما نفاه، أو يَرُدُّ ما أبداه؟ كلا... بل هو الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ أتاكم عذابُ الله
بغتةً أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ
الظالمون ﴾[2]

يقول إنْ عجَّلَ موعودَه لكم من العقاب أفترون أن غيرَ المستوجِب يُبْتَلَى؟ أو أن المستحِقَّ له يجد من دونه مهرباً ومَنْجَى؟ إنَّ هذا محالٌ من الظن.

قوله جل ذكره: ﴿ وما نُرسِلُ المرسَلين إلا مُبَشِّرين
ومُنْذِرِين فَمَنْ آمَنَ وأصلح
فلاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون *
والذين كذَّبوا بآياتنا يَمَسُّهُم العذابُ
بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

---

(١) فالحق — سبحانه — لا يلحقه زين بطاعة المطيع ولا شين بمعصية العاصى.

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (الظالمين).

يعنى ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم بأليم العقوبة فى الآجل ما يحصل من خلافهم .

فَمَنْ آمن وصدَّق أنجزنا له الوعد ، ومَنْ كفر وجحد عارضنا عليه الأمر ، وأدخلنا عليه الضُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلىَّ قُلْ هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾

يعنى قل لهم إنى لا أتخطى خطى ، ولا أتعدَّى حدِّى ، ولا أُثْبِتُ من ذات نفسى شيئاً ، وإنما يقال لى أَبلَّغْتَ ؟ وأقول : أَجَلَ ، أَوْصَلْتُ .

ثم قال : « قل هل يستوى الأعمى والبصير » : هل يتشاكل الضوء والظلام ؟ وهل يتماثل الجُحْدُ والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وأنذرْ به الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم ليس لهم مِن دونه وَلِىٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقون ﴾

الإنذارُ إعلامٌ بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خصَّ المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال : « هدىً للمتقين » لأن الانتفاع والاتِّباع بالتقوى ، والإنذار اختص بهم .

ويقال : الخوف هاهنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأمَّا القلوب التى هى تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارقُ الخوف .

قوله : « من دونه من ولى ولا شفيع » يعنى كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمدَ لهم من أفعالهم ، ولا مستندَ من أحوالهم ، ولا (يؤمنون)[1] شيئاً سوى صِرف العناية وخصائص الرحمة .

---

(١) الصواب أن تكون (يأمنون) لأن ما بعدها منصوب ، ولو كانت يؤمنون لكان ما بعدها مجروراً ، والسياق يقوى اختيار (يأمنون) .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم
بالغَدَاة والعَشِىِّ يريدون وجهه
ما عليك من حسابهم من شىءٍ
وما مِنْ حسابك عليهم من شىء
فتطردَهم فتكونَ مِنَ الظالمين ﴾

هذه وصية له — صلى الله عليه وسلم — فى باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قَصَرُوا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول — صلوات الله عليه وسلامه — مجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدى الله أرادَ أنْ يُبَيِّن له أثرَ حُسْنِ الابتهال فتولىَّ — سبحانه — خصيمتهم .

وقال : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » : لا تنظر يا محمد إلى خِرقتهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقتهم فى سرائرهم[1]

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه — سبحانه — قال « يريدون وجهه » فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق — فى التحقيق — إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدسة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها[2] .

فيقال تكلم الناس فى الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل فى القلوب يسلب

(١) واضح من كلام القشيرى اتصاف هذا النفر بصفات كثيرة تدنو بهم من أهل التصوف ، وهكذا نجد أن السهروردى فى مقدمة « عوارفه » يوضح أن سبب نزول هذه الآية فى أهل الصُّفة الذين كانوا يلازمون صفة مسجد المدينة وليس لهم شغل سوى العبادة وتلاوة القرآن ، وكان أحدهم إذا ركع قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته لتمزق ثوبه . . . الخ (عوارف المعارف ص ٤٧) .

(٢) يقول القشيرى فى هذا المعنى فى « رسالته » : المريد — على موجب الاشتقاق — من له إرادة كالعالم من له علم ، لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد — فى عرف هذه الطائفة — من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً (الرسالة ص ١٠١) .

القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ[1] ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه — سبحانه — سكوناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

ثم قطعتُ الليلَ في مَهْمَهٍ   لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبني شوقي فأطوي السُّرى   ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوبا

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشيّ لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة ، فقال : « يدعون ربهم بالغداة والعشيّ » ثم قال : « يريدون وجهه » أي مريدين وجهه فهي في موضع الحال[2] .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقباهم ، ولا همَّ سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم ، فتولَّى حديثهم وقال : ولا تطاردهم — يا محمد — ثم قال : ما عليك من حسابهم من شيء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مئونة ؛ قال تعالى : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » . لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحقُّ — سبحانه — حسابَه ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعضٍ لِيَقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾

أمَّا الفاضل فَلْيشكرْ ، وأمَّا المفضول فليصبرْ .

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ، قال قائلهم في معناه :

أتاني منكِ سبُّكِ لي فَسُبِّي   أليس جرَى بفيكِ اسمي ؟ فحَسْبِي

---

(1) وردت (ولا يهدى) والصواب أن تكتب (ولا يهدأ) منعاً للبس .

(2) أي إن الجملة الفعلية (يريدون وجهه) تعرب حالا

وقال آخر :

وإنَّ فؤاداً بِعتَه — لكَ شاكرٌ   وإنَّ دَمَاً أجريتَه — لكَ حامدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقُلْ سلامٌ عليكم ﴾

أحلَّه محل الأكابر والسَّادة، فإن السلام من شأن الجائى إلا فى صفة الأكابر ؛ فإن الجائى أو الآتى يسكت لهيبة المأتى حتى يبتدئ ذلك المقصودُ بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتى .

ويقال إذا قاسوا تعبَ المجىء فأزِلْ عنهم المشقةَ بأن قُلْ : « سلام عليكم » .

ويقال السلام هو السلامة أى فقُلْ لهم سلام عليكم ؛ سَلِمْتُمْ فى الحال عن الفُرقة وفى المآل عن الحُرْقة (1) .

قوله جل ذكره : ﴿ كتب ربُّكم على نفسه الرحمةَ ﴾

إنْ وَكَلَ بك من كتب عليك الزلة فقد تولَّى بنفسه لك كتابة الرحمة .

ويقال كتب بمعنى حَكَمَ ، وإنه ما حكم إلا بما علم .

ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبطِلُ الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ أنَّه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب مِنْ بعد ذلك وأصلح فأنَّه غفورٌ رحيم ﴾

يعنى مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجُهَّال ثم سوَّف فى الرجوع والأوبة قابلناه ، يعنى مَنْ تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بكُلِّ لطف وقبول .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وكذلك نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمين ﴾ .

---

(1) اى سلمتم فى الدنيا من عذاب نأيه وهجره ، وسلمتم فى الآخرة من عذاب جهنم ذات الحريق .

نزيل الإشكال ، ونُفْصِحُ[1] طريق الاستدلال ، ونُطْلِعُ شموسَ التوحيد ، ونمد أهله بحسن التأييد ، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان ، ونذيقهم شؤمَ الحرمان لئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ ، ولا فى الطريق إشكال .

قوله جل ذكره: ﴿ قلْ إنِّى نُهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله قُلْ لا أتَّبِـعُ أهواءكم قد ضَلَلتُ إذاً وما أنا منَ المهتدين ﴾ .

يعنى صرِّح بالاعتراف بجميل ما خصصناكَ به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك فى كنف الإيواء مُتقلَّب ، وفى قبضة (الصون) مُصَرَّفٌ ، فلا للهوى عليك سلطان ، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ إنِّى على بَيِّنَةٍ من ربى وكَذَّبتُم به ما عندى ما تستعجلون به إنِ الحكمُ إلا لله يَقُصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين ﴾ .

قلْ إنَّ الله — سبحانه — لم يغادرنى فى قطر الطلب والتباس التحيُّر ، وأغنانى عن (كَدٍّ)[2] الاستدلال ، وَروَّحنى بشموس الحقيقة . ولئن بقيتم فى ظلمة الالتباس فليس لى قدرة على إزالة ما مُنيتم به من التحير ، ونفى ما امتُحِنْتُم به من الجهالة والتردد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لو أن عندى ما تستعجلون به لقُضِىَ الأمرُ بينى وبينكم والله أعلمُ بالظالمين * وعنده مفاتحُ الغيب

---

(١) من الافصاح وهو الابانة والايضاح .

(٢) وردت (قد) والمقصود عناء الاستدلال وكده ـ حسبما نعرف من أسلوب القشيرى فى مثل هذا الموضع .

لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البرِّ
والبحر وما تَسْقُطُ مِنْ ورقةٍ إلا يعلمها
ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرضِ ولا رَطْبٍ
ولا يابِسٍ إلا فى كتابٍ مبين . ﴾

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم علىَّ — شفقةً عليكم ، لكن المتفرِّد بالحكم لا يُعَارَضُ فيما يريد .

« وعنده مفاتح الغيب » : المفتاح ما به يرتفع الغَلْقُ ، والذى يحصل مقصود كلِّ أحد ، وهو قدرة الحق — سبحانه ؛ فإنَّ التأثير لها فى الإيجاد ، والموصوفُ بقدرةِ الإيجاد هو الله :

ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أى هو المتفرِّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

ويقال عندك مفاتح[1] الغيب وعنده مفاتح الغيب فإنْ آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس على غيبك .

قوله جل ذكره ﴿ وهو الذى يتوفَّاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثُم يبعثكم فيه
ليُقْضَى أَجلٌ مسَمًّى ثم إليه مرجعكم
ثم ينبئُكم بما كنتم تعملون ﴾ .

إنه يتوفَّى الأنفس فى حال النوم وفى حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك — إذا توفَّاك — على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحرىِّ ألا يعذِّبك غداً — إذا توفَّاك — على ما علمه من قبيح أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو القاهِرُ فوق عباده ويُرْسِلُ

---

(١) نسبة المفاتح إلى الانسان — إن صحَّ أن القشيرى قالها — يمكن تأويلها على انها جمع مفتح مصدر ميمى بمعنى الفتح والفتوح وهما من فضل الله ، ولكنهما بالنسبة إلى المفاتح الالهية كنسبة ضوء المصباح إلى ضوء الشمس ، إذا ظهر شعاع الشمس غمر ضوء المصباح . . . هكذا نفهم من السياق — والله أعلم .

عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم
الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ .

فوق عباده بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يعذبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا
له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ .

ردهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة .

قوله جل ذكره : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر
والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن
أنجانا من هذه لنكونن من
الشاكرين ﴾ .

تذكير النعمة يوجب الزيادة فى المحبة ، فإنه إذا عرف جميلا أسداه تمكن من قلبه الحب .

قوله جل ذكره : ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل
كرب ثم أنتم تشركون ﴾

المتفرد بالقدرة على إيجادكم الله ، والذى هو (الخلف)[1] عما يفوتكم الله ، والذى حكم بنجاتكم الله ، والذى يأخذ بأيديكم كلما عثرتم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث
عليكم عذاباً من فوقكم أو من
تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ﴾

إذا أراد الله هلاك قوم أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار غداً إذا

---

(١) وردت (الخلق) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

أدركتهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ، حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جل ذكره : ﴿ ويذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ ، انظُرْ كيف نصرِّف الآياتِ لعلهم يفقهون ﴾

لا طعمَ أردأ للإنسان من طعم الإنسان : إن شِئْتَ من الولاية والمحبة ، وإن شئتَ في المداوة والبغضة ؛ فمَنْ مُنِي بالبغضة مع أشكاله تنغَّصَ عليه عَيْشُهُ في الدنيا ، ومَنْ مُنِيَ بمحبة أمثاله تكدَّر عليه حالُه مع المولى ، ومن صانَه عن الخلْق فهو المحفوظ (المعانى)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذَّبَ به قومُكَ وهو الحقُّ قُلْ لستُ عليكم بوكيل * لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وسوف تعلمون ﴾

يعني قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأمَّا تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعْرِضْ عنهم حتى يخوضوا فى حديثٍ غيره ﴾

لا توافقهم فى الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذَرْهُمْ ووحشتهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحُسْنِ الانقباض .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يُنْسِيَنَّك الشيطانُ فلا تقعدْ بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾

---

(١) المحفوظ (المعانى) اى محفوظة معانيه ، وربما كانت فى الأصل (المُعَافَى) بالفاء المفتوحة أى المصون عن كل أذى وعلة .

أى إنْ بَدَرَ منك تغافلٌ فتداركْتَه بحسن التذكر وجميل التَّنَبُّه ، فاجتهِدْ ألا (تزل[1]) فى تلك الغلطة قدمُك ثانيةً لئلا تقاسى أليمَ العقوبة مِنّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وما على الذين يتقون مِنْ حسابِهِم
من شىءٍ ولـكنْ ذِكْرَىٰ لعلَّهم
يتقون ﴾

أى من كان نقىَّ (الثوب)[2] عن ارتـكاب الإجرام يُعْزَل يوم نشره عن ملاقاة تلك الآلام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذَرِ الذين اتخذوا دينَهم لَعِبًا
ولهوا وغرَّتهم الحياة الدنيا وذكِّرْ به
أن تُبْسلَ نفسٌ بما كَسَبَتْ ليس
لها من دون اللهِ ولىٌّ ولا شفيـع ،
وإنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤخَذْ
منها أولئك الذين أُبْسِلوا بما كَسَبُوا
لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ
بما كانوا يـكفرون ﴾

أى كِلْهم وما اختاروه فإنّا أعْتَدْنا لهم (من خفىِّ المـكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم)[3] خُمار الوهم والغلطة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أندعو من دونـ اللهِ
ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُرَدُّ على
أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ كالذى

---

(١) وردت (تذل) بالذال والصواب أن تـكون بالزاى (تزل) اى تقع فهذا هو الملائم للسياق .
(٢) وردت (الثواب) والصواب أن تـكون (الثوب) فهو الذى يوصف بالنقاء .
(٣) ما بين القوسين موجود فى هامش الورقة أثبتناه فى موضعه حسب العلامة المميزة .

استهوته الشياطينُ فى الأرضِ ،
حيرانَ ، له أصحابٌ يدْعونه إلى
الهُدَى ائتنا * قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ
هو الهُدَى ، وأُمِرْنا لِنُسلِمَ
لربِّ العالمين ﴾

أى كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعوْد إلى الشِرْك ، فقال لهم الله : قل لهم — يا محمد — : أنُؤْثِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان ؟

ونَدَعُ الطريقة المُثْلى بعد ظهور البيان ؟ ونترك عِقوةَ الجَنَّةِ وقد نزلناها ؟ ونطلب الجحيم مثوىً بعد ما كُفِيناها ؟ إنَّ هذا بعيدٌ من المعقول ، محالٌ من الظنون .

وكيف يساعد أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحبتهم ، وأبصر الغيَّ من صفتهم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وأنْ أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تُحْشَرون ﴾ .

أى أمَرَنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إنْ تعوَّد نجوى السلطان متى ينطق (بمكالمة)[1] الأخسِّ ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى خلَقَ السموات والأرضَ بالحقِّ ويومَ يقول كُنْ فيكونُ قولُه الحقُّ وله المُلْكُ يومَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ عالِمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

يعنى أنه لا يعترض على قدرته — سبحانه — حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود .

---

(١) وردت (مكاملة) والأوفق بالنسبة للسان أن تكون (مكالمة) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قال إبراهيم لأبيه آزَرَ أتتَّخذُ أصناماً آلهةً إنِّى أرَاكَ وقومَك فى ضلالٍ مبين ﴾ .

الأصل متَّهَمٌ فى الجحود ، والنَّسْلُ متصفٌ بالتوحيد ، والحقُّ — سبحانه — يفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُرِى إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ وليكونَ مِنَ الموقنين ﴾ .

لاطَفَه بسابق العناية ، ثم كاشفه بِلاحِقِ الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق فى (قضاء)[1] سرِّه شظية من غبار العيب ، فلمَّا صحا من غيم التجوز [2] سما سِرُّه فقال بنفى الأغيار جملةً ، وتبرَّأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربى فلمَّا أفَلَ قال لا أُحِبُّ الآفلين * فلمَّا رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربى فلمَّا أفَلَ قال لئِن لم يَهْدِنى ربى لأكونَنَّ من القومِ الظالمين * فلمَّا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربى هذا أكبرُ فلمَّا أفَلَتْ قال ياقومِ إنى برىء مما تُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(١) ربما كانت (فضاء) بالفاء فالغبار والغيم يملآن بالفضاء

(٢) المقصود من ذلك ما أصاب إبراهيم من اضطراب ، وهنا لفتة ذكية من القشيرى حيث أراد وصم العقل بالتجوز لانحصار دائرته فى نطاق الحسّ ، وعدم استطاعته تجاوز هذا النطاق لأنه معتمد عليه .

يعني أحاطت به (سجوف)[1] الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان ، فقال : هذا ربي ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان ، « فقال هذا ربي » .

ثم (أسفر)[2] الصبح ومتع النهار فطلعت شموس (العرفان)[3] من برج شرفها فلم يبقَ للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للتهمة قرار فقال : « يا قوم إني برئٌ مما تشركون » إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عقِبَ الظهور ستر .

ويقال قوله — عند شهود الكواكب والشمس والقمر — « هذا ربي » إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً في الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إني وجهتُ وجهي للذي فطرَ
السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا
من المشركين ﴾ .

أفردتُ قصدي لله ، (وطهّرت)[4] عقدي عن غير الله ، وحفظت عهدي في الله لله ، وخلصت وجدي بالله ، فإني لله بالله ، بل (محو)[5] في الله والله الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وحاجَّه قومُه قال أتحاجوني في الله
وقد هدَانِ ولا أخاف ما تشركون
به إلا أن يشاء ربي شيئاً وَسِعَ ربي
كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكرون ﴾ .

يعني قال لهم أترومون سَتْرَ الشموس بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم وأن تُسْدِلوا سجوفكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانُه وتوالى بيانُه ؟

---

(١) سجوف جمع سَجف وسِجف وهو الستر ، وأرخى الليل سجوفه أي ظلمته .

(٢) وردت (أصفر) والصواب أن تكون (أسفر) الصبح .

(٣) لاحظ كيف طبق القشيري نظريته في المعرفة على تدرج إبراهيم (عم) في الوصول إلى حقيقة الألوهية من عقلية ونورها البرهان إلى قلبية ونورها البيان إلى كشفية ونورها العرفان .

(٤) وردت (ظهرت) بالظاء والصواب أن تكون بالطاء

(٥) وردت (مهو) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف[1] أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إنْ كنتم تعلمون ﴾

يعني وأي خوفٍ يقع على قلبي ظِله ولم أُلِمْ بِشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم ما شممتم رائحة التوحيد في طول عمركم ، ولا ذقتم طعم الإيمان في سالف دهركم ! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتم . فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرِّه ما هو بصدده من سوءِ مَكْرِه وعاقبةِ أَمْرِه ؟

قوله جلت قدرته : ﴿ الذين آمنوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلْمٍ أولئك لهم الأمن وهُمْ مهتدون ﴾

أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال « الله » ثم رجع بالتفضيل — عند حاجاته أو مطالباته أو شيءٍ من حالاته إلى غير الله خَصْمُه — في الدنيا والعقبي — اللهُ .

والظلمُ — في التحقيق — وضعُ الشيء في غير موضعه ، وأصعبه حسبان أن من الحدثان ما لم يكن وكان ، فإنَّ المنشيء اللهُ ، والمُجْرِيَ اللهُ ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ درجاتٍ مَنْ نشاء إنَّ ربَّك حكيم عليم ﴾

أشار إلى ترقِّيه من شهود آياته إلى إثبات ذاته ، وذلك ترتيب أهل السلوك في وصولهم إلى الله ، فالتحقق بالآيات التي هي أفعاله ومراعاة ذلك وهي الأُولى ؛ ثم إثبات صفاته وهي الثانية ، ثم التحقق بوجوده وذاته وهو غاية الوصول ، فبرسومه يعرف العبد نعوته ، وبنعوته يعرف ثبوته[2] .

---

(1) أخطأ الناسخ إذ كتبها (فكيف)

(2) للقشيري كتابان (ترتيب السلوك) و (المقامات الثلاث) لم تصل بعد أيدينا إليها ، أولها توجد منه مخطوطة بالفاتيكان والثاني استعاره بعضهم من مكتبة جامعة القاهرة ولم يرده ، فهل يمكن أن نحدس أن هذه الفقرة خلاصة مقتضبة لوجهة نظره في ترتيب مقامات السلوك وعددها .

قوله جل ذكره : ﴿ ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلاًّ هدينا ونُوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كُلٌّ مِن الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلاًّ فَضَّلْنا على العالمين * ومِن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صِراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عبادِه ولو أشركوا لَحبِطَ عنهم ما كانوا يعملون ﴾

ذَكَرَ عظيم المِنَّة على كافَّتِهم — صلوات الله عليهم ، وبَيَّنَ أنه لولا تخصيصه إياهم بالتعريف ، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف ، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق .

ثم قال : « ذلك هدى الله . . . . . . يعملون » يعنى لو لا حظوا غيراً ، أو شاهدوا — من دوننا — شيئاً ، أو نسبوا شظية من الحدثان — إلى غير قدرتنا — فى الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم ، فإن الله — سبحانه — لا يغفر الشِرْكَ بحالٍ ، وإن كان (يغفر)[1] مادونه لِمنْ أراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾

---

(١) وردت (يقفر) والصواب (يغفر) طبقاً للآية (إن الله لا يغفر أن يشرك به . . . إلخ) .

يعنى إنْ أعرض قومُك — يا محمد — فليس كلُّ من (. . . . . .)[1] على الجحود أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزَّهنا — عن الجحود — قلوبَهم ، وعَجَنَّا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل شمّة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين هـدى الله فَبِهُدَاهم
اقْتَدِه قُلْ لا أسألـكم عليه أجراً
إنْ هو إلا ذكرى للعالَمين ﴾

أولئك الذين طهَّر اللهُ عن الجحد أسرارَهم ، ورَفَعَ على الكافة أقدارَهم ، فاقْتَفِ — يا محمد — هداهم ، فإنَّ مَنْ سلك الجادَّة أَمِن من العناء .

قوله جل ذكره : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه إذ قالوا
ما أنزل اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شيءٍ قُلْ
مَنْ أنزل الكتابَ الذى جاء به
موسى نوراً وهدىً للناسِ تجعلونه
قراطيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُون كثيراً
وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم
قلِ اللهُ ثم ذَرْهم فى خوضِهم يلعبون ﴾

مَنْ توهَّم أنَّ العلومَ[2] تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة فى نعته ، كما أنَّ الإدراك غير جائزٍ فى وصفه ، وكما أن الإشراف مُحالٌ على ذاته .

ثم قال : « قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً » أى سَلْهم عن الأحوال ، وخاطِبْهم فى معانى أحكام الرسوم والأطلال ، فَإِنْ بقوا فى ظلمة (الحيرة)[3] فَقُلْ : الله تعالى ، ثم ذَرْهُم . يعنى صَرِّح بالإخبار عن التوحيد ، ولا يهولنَّك تماديهم فى الباطل ، فإنَّ تمويهاتِ الباطلِ لا تأثير لها فى الحقائق .

---

(١) مشتبهة .

(٢) يقصد بها علوم العقل .

(٣) وردت (الجبرة) والخطأ فى النقط .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتاب أنزلناهُ ، مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الذى بين يديه ولِتُنذِرَ أُمَّ القرى ومَنْ حوْلها والذين يؤمِنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافِظون ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخَطرِ جليلُ الأَثَرِ ، فيه سلوة[1] عند غلبات الوجد ، ومن بقى عن الوصول تذلّل للرسول ، وقيل :

وكُتْبُكَ حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاءٌ للذى أنا كاتِمُ
كأنى ملحوظٌ من الجِنِّ نظرةً ومِنْ حوالَّ الرُّقى والتمائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كَذِبًا أو قال أُوحِىَ إلىَّ ولم يُوحَ إليه شىء ومَنْ قال سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل اللهُ ولو ترى إذ الظّالِمون فى غمراتِ الموتِ والملائكةُ باسِطو أيديهم أخرِجوا أنفُسَكم اليومَ تُجزَوْن عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على اللهِ غيرَ الحقِّ وكنتم عن آياتِهِ تستكبِرون ﴾

يعنى إن الذين يَنزِلون منزلة المُحدَّثين ، ولم تُلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب — فالحقُّ — سبحانه عنهم برىء . والمتَّبِعُ بما لم ينَلْ كلابسِ ثوبى زور ، وفى معناه أنشدوا :

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) وردت (صلوة) بالصاد وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جئتمونا فُرَادَىٰ كما خلقناكم أوَّلَ مرة وتركتم ماخَوَّلناكُم وراءَ ظهورِكم وما نرى معكم شُفعاءَكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطَّعَ بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾

دَخَلْتَ الدنيا بخرقةٍ ، وخَرَجْتَ منها بخرقة ، ألاَ وتلك الخرقة أيضاً (. . . . .)[1] ، وما دخلت إلا بوصف التجرد ، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرد . ثم الأثقالُ والأوزارُ ، والأحمالُ والأوضارُ لا يأتى عليها حَصْرٌ ولا مقدار ؛ فلا مالكم أغنى عنكم ولا حالكم يَرْفَعُ منكم ، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم ؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكم ، وتَفَرَّق وَصلُكم ، وتبدَّد شملُكم ، وتلاشى ظنُكم ، وخانكم — فى التحقيق — وسعُكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوى يخْرِج الحىَّ مِنَ الميت ومخرِجُ الميتِ مِنَ الحىِّ ذلكم الله فأنَّى تُؤفكون ﴾

موجِد ما فى العالَم من الأعيانِ والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّط العَدَمَ على ما يريد من مصنوعاته ، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته ، فلا لحكمه ردٌّ ، ولا لحقِّه جحدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فالقُ الإصباحِ وجعل الليل سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْبَاناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ﴾

وكما فَلَقَ صبحَ الكونِ فأشرقَتْ الأنوارُ كذلك فَلَقَ صبحَ القلوبِ فاستنارت به الأسرار ، وكما جعل الليل سَكَناً لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كدِّ التصرف عن أسبابِ المَعَاش

(١) مشتبهة .

كذلك جعل الليلَ سكَناً للأحباب يَسْكنونَ فيه إلى روْح المناجاة إذا هدأت العيونُ من الأغيار .

وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان[1] معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَت لم تنقص ولم تزِدْ ، والقمر لا يبقى ليلةً واحدةً على حالة واحدة فأبداً فى الزيادة والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم يتناقص حتى لا يُرى ، ثم يأخذ فى الظهور ، وكذلك دأبُه دائماً إلى أنْ تنْقضَ عليه العادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا
بها فى ظلماتِ البرِّ والبحر قد فصَّلْنا
الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها فى الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها فى معرفة ربِّ الأرضين والسموات .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنشأكم مِنْ نَفْسٍ واحدة
فمستقر ومستودَعٌ قد فصَّلنا الآيات
لقومٍ يفقهون ﴾

ذكَّرهم وصفَهم حين خلَقَهم من آدم عليه السلام . وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع ، فَمِنْ عَبْدٍ مُسْتَقَرُّ قلبِه أوطانُ الشهواتِ والمنى ، ومن عبدٍ مستقره موقع الزهد والتُّقى ، ومن عبدٍ مستقره — حيث لا مسكن ولا مأوى — وراء الورى[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً
فأخرجنا به نباتَ كل شىء فأخرجنا

---

(١) وردت (بحسان) بالميم والصواب أن تكون (بحسبان)

(٢) أى فى حال الفناء يتلاشى فى الوجود الذى لا تحده حدود .

منه خَضِراً نُخْرِجُ منــه حبّاً مُتراكِباً ، ومِنَ النخلِ مِنْ طلعها قِنوانٌ دانية وجنّاتٍ من أعناب والزيتون والرُّمّان مُشْتَبِهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثَمَرِه إذا أثمر وينعِهِ إنَّ فى ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾

تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطارُ الكون ، وتباين النبات فى اللون والطَّعم واختلفت الأشياء ، ودلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُستَقِل .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخَلَقَهم وخرقوا [1] له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفون ﴾

سُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبةٌ لأرباب الغفلة عن الله تعالى عجِّلَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿ بديعُ السمواتِ والأرضِ أنّى يكونُ له ولد ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شئ وهو بكل شئ عليم ﴾

البديع الذى لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما فى وصفه مستحق .

والواحد يستحيل له الوَلَدُ لاقتضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلكم اللهُ ربُّكم لا إله إلا هو

---

(١) خرقَ الإفكَ = اختلقه ، أو من خرق الثوبَ إذا شقه فيكون المعنى : (اشتقوا له) وإشارة القشيرى تعتمد على المعنيين .

خالقُ كُلِّ شيءٍ فاعبدوه وهو على
كل شيءٍ وكيل ﴾

تعرَّف إليهم بآياته ، ثم تعرَّف إليهم بصفاته ، ثم كاشفهم بحقائق ذاته .

فقوله : « لا إله إلا هو » تعريف للسادات والأكابر ، وقوله : « خالق كل شيء » تعريف للعوام والأصاغر .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تدركه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ
وهو اللطيف الخبير ﴾

قَدَّسَ الصمديةَ عن كل لحوقٍ ودَرَكٍ ، فأنَّى بالإدراك ولاحدَّ له ولا طرف ؟!
« وهو اللطيف » الذى لا يخفى عليه شيء ، « الخبير » الذى أحاط علمُه بكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قد جاءكُم بصائرُ من ربِّكم فَمَنْ
أَبْصَرَ فَلِنفْسِهِ ومَنْ عَمِىَ فعليها
وما أنا عليكم بحفيظ ﴾

أَوْضحَ البيانَ وألاحَ الدليلَ ، وأزاحَ العِلَل وأنارَ السبيلَ ، ولكن قيل :

وما انتفاعُ أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُصَرِّف الآياتِ وَلِيقولوا
دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَه لقومٍ يعلمون ﴾

أوقع الفتنةَ فى قلوبهم فَخَنَسَتْ عليهم الأحوال : فَمِنْ شُبْهةٍ دَاخَلَتْهم ومن حَيْرةٍ مَلَكَتْهُم .
ومن تحقيق أدركه قوم ، وتعريفٍ توقف على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك
عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل ﴾

العَجَبُ ممن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده ، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع فى ملكه مراده ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يدعون مِنْ دونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بغير علمٍ﴾

يعنى خَاطِبْهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفى الشبهة ، ولا تُكَلِّمْهم على موجب نوازع النَّفْس والعادة ، فيَحْمِلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابِقْهُم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة فى غَيِّهم ، فسيكون فِعْلُكَ سبباً وعِلَّةً لزيادةِ كفرِهم وفسقهم .

قوله جل ذكره : ﴿كذلك زيَّنا لكلِّ أمةٍ عملَهم ثم إلى ربِّهم مَرْجِعهم فينبئُهم بما كانوا يعملون﴾

لبَّسْنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيحَ جميلاً ، ولم يَرَوْا لسوءِ حالتهم تبديلا ، فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافى والبَلا .

قوله جل ذكره : ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانِهم لئِنْ جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وما يشعِرُكُم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ .

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغْنِي وضوحُ الأدلة لمن لا تساعده سوابقُ الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهُم فى طغيانهم يعمهون﴾

العَجَبُ ممن تَبْقَى على قلبه شبهةٌ فى مسألة القَدَر[1] ، والحقُّ — سبحانه — يقول :

(١) يشير القشيرى بذلك إلى القدرية الذين يقولون بخلق الأفعال ، فسموا قدرية من قبيل تسمية الشيء بضده ، بينما سمى خصومهم بالجبرية .

ويوصف القدرية بأنهم مجوس هذه الأمة ، لأنه كما أن أتباع زرادشت يعارضون خالق الخير بمبدإٍ ثان هو علة الشر كذلك هم — أى القدرية — يُخرِجون أعمال الإنسان السيئة من دائرة خلق الله ، فالله ليس هو الذى يخلق المعصية بل إرادة الإنسان المستقلة .

« ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به » ، لا بل من حقائق التقليب بقاء إشكال هذا الأمر — مع وضوحه — على قلوب مَنْ هو مِنْ جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة وكلمهم
الموتى وحشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلاً
ما كانوا لِيُؤْمِنوا إلا أن يشاء اللهُ
ولكنَّ أكثرهم يجهلون ﴾

لأن الآيات وإنْ توالت ، وشموس البرهان وإنْ تعالَتْ فَمَنْ قَصَمَتْه العِزَّةُ وكَبَسَتْه القِسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالا ، ولم يستنجز إلا للشقوة حالاً .

قوله جل ذكره ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدُوّاً
شياطينَ الإنسِ والجنِّ يوحِي بعضُهم
إلى بعضٍ زُخْرُفَ القوْلِ غروراً
ولوشاء ربُّكَ ما فعلوه فَذَرْهُم
وما يفترون ﴾

كلما كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى ، والمطالبات أقوى ، فلمَّا كانت رتبُ الأنبياءِ — عليهم السلام — أشرفَ كانت العداوة معهم أشد وأصعب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِتَصْغَى إليه أفئدةُ الذين
لا يؤمنون بالآخِرة وليرضَوْه
وليقترفوا ما هم مقترِفون ﴾

وكانت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباء[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغيرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وهو الذى

---

(١) الأنصباء جمع نصيب وهو الحصة من الشيء (المنجد) .

أنزل إليكم الكتابَ مُفَصَّلاً والذين
آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ
مِنْ ربك بالحقِّ فلا تكونَنَّ مِنَ
الممتَرِين ﴾

قلْ لهم أترون أنى — بعد ظهور البيان ووضوح البرهان — أَذَرُ اليقين ، وأوثر التخمين وأفارق الحقَّ ، وأقارن[1] الحظ ؟ إن هذا محال من الظن .

قوله جل ذكره : ﴿ وتمَّتْ كلمة ربِّك صِدْقا وَعَدْلاً
لا مُبَدِّل لكلماته وهو السميع العليم ﴾

تقدَّستْ عن التغيير ذاتُه ، وتنزهت عن التبديل صفاتُه . والتمام ينفى النقصان . وكلُّ نقصانٍ فمن الحدَثِ أصلُه ، وأنَّى بالنقص — والقِدَمُ وصفُه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثر مَنْ فى الأرض
يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون
إلا الظن وإنْ همْ إلا يَخْرُصُون ﴾

أهلُ الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخَطَراً ، وأمَّا الأعداء ففيهم كثرة . فإنْ لاحظتَهُم — يا محمد — فَتَنُوكَ ، وإنْ صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ربَّك هو أعلم مَنْ يَضِلُّ عن سبيله
وهو أعلم بالمُهْتَدِين ﴾

تقاصرتِ علومُ الخَلْق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَّفهم من أمره ، والذى لا يخفى عليه شىء فهو الواحدُ — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ فكُلوا مما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه إنْ
كنتم بآياته مُؤمنين ﴾

هذا فى حكم التفسير مختص بالذبيحة ، وفى معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة ، فإنمن

---

(١) ربما كانت فى الأصل (أفارق) بالقاف ، وكلاهما صحيح فى السياق .

أُكل على الغفلة فما دامت تلك القوةُ باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النَّفْس أو وساوس الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَكُمْ ألا تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ
اللهِ عليه وقد فصَّل لكم ما حَرَّمَ
عليكم إلا ما اضطُرِرْتم إليه وإنَّ
كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم
إنَّ ربَّك هو أعلم بالمعتدين ﴾

يعنى أى شىء عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذى يضركم لو استدمتم الذكر ؟

وقد تبيَّن لكم الفَرْقُ بين أُنْس الذكر ووحشة الغفلة فى الحال والوقت ، (ألاَ)[1] تعرفوا حكم الثواب والعقاب فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ وذروا ظاهِرَ الإثم وباطنه إنَّ
الذين يكسِبون الإثمَ سَيُجْزَوْن
بما كانوا يقترفون ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرٌ بينك وبين الله ، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه .

ويقال باطن الإثم خَفِيُّ العقائد و (. . . .)[2] الألحاظ .

ويقال باطن الإثم ما تُمليه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المعرفة — الإغماض عَمَّا لَكَ فيه حظ ، ويقال باطن الإثم — على لسان أهل المحبة — دوام التغاضى عن مطالبات الحب ؛ وإنَّ بِناء مطالبات الحب على التجنى والقهر[3] ، قال قائلهم :

---

(١) وردت (إلى) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) مشتبهة .

(٣) وفى هذا المعنى أنشدوا :

بنى الحب على القهر فلو عدل المحبوب يوما لَسَمِج
ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق يطلب تأليف الحجج

إذا قلتُ : ما أذنبتُ ؟ قالت مجيبةً :

حياتُك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

ويقال أسبغتُ عليكم النِّعم ظاهراً وباطناً ، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً ، فإنَّ من شرط الشكر تركَ استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرُ اسمُ الله عليه وإنَّه لفِسْق وإنَّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم لِيجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ .

ما كانت (....)[1] من الأحوال عاصيًا ولربَّه ناسياً فتوقِّيه شرط عند أصحاب (...)[2].

ثم قال : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » فهذا يدل على أنَّ مَنْ توقَّى ذلك اتحدت لله خواطرُه ، وانقطعت عنه خواطر الشيطان . وأصلُ كل قسوةٍ متابعةُ الشهوات ، ومَنْ تعوَّد متابعتَها فليودِّعْ صفوةَ القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ أوَ مَنْ كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى النَّاسِ كَمَنْ مثَلُه فى الظلمات لَيْسَ بخارجٍ منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ .

الإيمان عند هؤلاء القوم حياةُ القلب بالله . وأهل الغفلة إذْ ألهمْ الذكر فقد صاروا أحياءً بعد ما كانوا أمواتاً ، وأربابُ الذكرِ لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة . والذى هو فى أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفى روْح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو فى (أسْرِ)[3] الظلمات ، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات .

---

(١) مشتبهة .

(٢) مشتبهة .

(٣) وردت (أصر) بالصاد وقد آثرنا (أسر) لتلائم (رهين) الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

لَبَّسنا عليهم حقائق التوحيد ، وسوَّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات ؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكرون ، وهم فى التحقيق مخادعون ، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى نُؤْتَى مِثْلَ ما أوتى رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلمُ حيث يجعل رسالتَه سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ .

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، وزوال الشبهة (فالتعلُّل)[1] باستزادة البصيرة (إعلام)[2] عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدى ؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمَنْ جاء بنوعٍ من تسويلات النَّفْس يوجب مقاساة الهوان . وملازمةُ الحدود ، وتركُ التعدى على الحقِّ قضيةُ التوفيق :

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلام ﴾ .

المُسْلِمُ لا يتحرك فى باطنه عِرْقٌ للمنازعة مع التقدير ، فإن الإسلام يقتضى تسليم الكل بلا استثنار ، ومَنْ استثقل شيئاً من التكاليف أو بقى منه نَفَسٌ لكراهية شىء فيعدُّ غير مستسلمٍ لحُكْمِه .

ويقال نورٌ فى البداية هو نور العقل ، ونورٌ فى الوسائط هو نور العلم ونور فى النهاية هو

---

(١) وردت (فالتعليل) والسياق يتطلب (التعلل) فبها يقوى ويتضح .

(٢) وردت (إقلام) ولا معنى لها ، ونرجح أنها فى الأصل (إعلام) أى علامة .

نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

ويقال أول أثر لأنوار الغيب فى العبد يُنَبِّهه إلى نقائص قَدَرِه ومساوىء غيِّه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غَلَباتُ الأنوار على سِرِّهِ حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد ، كالناظِرِ فى قُرصِ الشمس تُستَهْلَكُ أنوار بصره فى شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّه يجعل صدرَه ضَيِّقًا حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ فى السماءِ كذلك يجعل الله الرِّجسَ على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى فى غير مراد الحق سبحانه[1] ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه فى أسْرِ الحدثان والأعلال ، ولا عقوبةَ أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا صراطُ ربِّك مستقيماً قَدْ فصَّلنا الآيات لقومٍ يذَّكَّرون ﴾ .

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّدٌ بجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأنَّ المُجْرِى

---

(١) تبدو فى هذه العبارة رائحه الجبرية . . نعم ، ولكنها جبرية الحب ، فالإرادة والمريد والمراد كلها تدور فى فلك الحب ، وهذا فرق بين النزعتين الكلامية البحتة والصوفية ، عند تصديهما لهذا الموضوع .

واحدٌ لاشريك له ، ثم تركُ الاعتماد ونفى الاستناد ، لاعلى (حركاته)[1] يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل)[2] ينتظر مايفتيح به التقدير ، فإن زاغ صاحبُ الاستقامة لحظةً ، والتفت يمنةً أو يسرةً سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُم دارُ السلامِ عِنْدَ ربِّهِم ﴾ .

دار السلام أى دار السلامة ، ومَنْ كان في رِقِّ شيءٍ من (الأغراض)[3] والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة مَنْ تحرر عن رِقِّ المُكَوَّنَات ، والآية تشير إلى أنَّ القومَ فى الجنة لكنهم ليسوا فى أَسْرِ الجنة ، بل تحرروا من رِقِّ كل مُكَوَّن .

ويقال مَنْ لم يُسلِّمْ — اليوم — على نفسه وروحه وكلِّ ماله من كل كريمة وعظيمة تسليمَ وداعٍ لايجد — غداً — ذلك الفَضْل ، فمن أراد أن يُسلِّم عليه ربُّه — غداً — فَلْيُسَلِّمْ على (الكون)[4] بجملته ، وأولا على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ — اليوم — لسانُه عن الغيبة ، وجَنانه عن الغيبة ، وأبشاره وظواهره من الزَّلَّة ، وأسراره وضمائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدْرِ تلك الدار لكونها في محل الكرامة ، واختصاصها بعِنْدِية الزُّلفة ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجار ، قال قائلهم :

إنِّى لأحسد داراً فى جِوارِكُم   طوبى لمن أضحى لدارك جاراً
يا ليت جارَكَ يعطينى من داره شِبراً   إذاً لأعطيه بِشِبْرٍ داراً[5]

ويقال : وإن كانت الدارُ منزهةً عن قبول الجار، وليس القرب منه بتدانى الأقطار، فإطلاقُ هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنِسٌ ، بل لو جاز القربُ فى وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا

---

(١) وردت (حرقاته) والصواب أن تكون (حركاته) لتتلاءم مع (سكناته) .
(٢) أضفنا (بل) ليتضح المعنى وهى غير موجودة فى النص .
(٣) (الأغراض) جمع غرض ، وليس بمستبعدان تكون (الأعراض) بالعين جمع عرض ، وكلاهما مقبول .
(٤) وردت (السكون) وهى خطأ من الناسخ .
(٥) البيت الثانى مكسور ولكننا حرصنا على إثباته كما جاء فى النسخة .

كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لِأَجْلِ قلوب الأحباب يُطْلق هذا ويقع العلماء فى كد التأويل ، وهذا هو أمارة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أجلِكَ حُمِّلْتُ الأ　　ذى الذى لا أستطيع

قوله جل ذكره : ﴿ وهو وليُّهم بما كانوا يعملون ﴾[1] .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : « وهو وليهم » لأنه إذا كان — سبحانه — هو وليَّهم فإنَّ المنازل بأسْرِها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها　　وليس فى الدار لى همٌّ ولا وَطَرُ

هو وليُّهم فى دنياهم ، ووليُّهم فى عقباهم ، هو وليهم فى أولاهم وفى أخراهم * وليهم الذى استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً * وليهم الذى هو أَوْلَى بهم منهم * وليُّهم الذى آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه فى جميع أحوالهم * وليهم الذى تطلب رضاهم ، وليهم الذي لم (يَكِلْهُم)[2] إلى هواهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .

وليهم الذى بأفضاله يلاطفهم ، وبجماله وجلاله يكاشفهم .

وليُّهم الذى اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب ، فحرَّرهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، وليُّهم الذى هو مؤنِس أسرارهم .

مَشاهِدُه مُعْتكَفُ أبصارهم ، وحضْرَته مَرْتَع أرواحهم .

وليُّهم الذى ليس لهم سواه ، وليهم الذى لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجدون إلا إياه ، لا فى بدايتهم يقصدون غيره ، ولا فى نهايتهم يجدون غيره ، ولا فى وسائلهم يشهدون غيره[3]

قوله جل ذكره : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشرَ الجنِّ قد استكثرتم منَ الإنسِ وقال أولياؤهم من الإنسِ ربَّنا استمتع

(۱) وقع الناسخ فى ثلاثة أخطاء كتابية ونقلية فى هذه الآية إذ كتبها (فهو وليهم اليوم بما كانوا يكسبون) اذ التبست عليه مع آية اخرى .

(۲) وردت (يكلمهم) بزيادة ميم وهى خطأ فى النسخ .

(۳) لاحظ هنا هذا الترتيب : قصود ثم شهود ثم وجود .

بعضُنا ببعضٍ وبلغنا أَجلنا الذى
أَجَّلتَ لنا ، قال : النار مثواكم
خالدين فيها إلا ما شاء اللهُ إنَّ ربَّكَ
حكيم عليم ﴾

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم ، لـكنْ سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً
بما كانوا يكسبون ﴾

يعنى نجمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون يفرُّ بعضهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ يامعشرَ الجنِّ والإنس ألم يأتِـكم رُسُلٌ
منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم
لقاء يومِـكُم هذا قالوا شَهِدْنا على
أنفسنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشَهِدوا
على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

عرَّفهم أنه أزاح لهم العِلَلَ من حيث التزام الحجة ، لـكنه حكم لهم بالشقوة فى الأزل ، (فَلبَّسَ)[1] عليهم المحجة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك أن لمْ يـكن ربُّكَ مُهْلِكَ القُرى
بِظُلْمٍ وأهلُها غافِلون ﴾

متى يصحُّ فى وصفه توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخَلْقُ خلقُه ؟
ومتى يقبح منه تصرُّفٌ فى شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟

---

(١) وردت (فليس) وهى خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك
بغافلٍ عما يعملون ﴾

المحسن فى روْح الثواب متنعِّم ، والمذنب فى نوْح العذاب متألم .

قوله جل ذكره : ﴿ وربُّك الغَنِيُّ ذو الرحمة إنْ يشأ
يذْهِبْكم ويستخلِف مِنْ بعدِكم مايشاء
كما أنشأكم مِنْ ذرية قومٍ آخَرين ﴾

« الغنيُّ » يشير إلى كشفه ، « وذو الرحمة » يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله « الغنىُّ » عن جلاله ، وبقوله : « ذو الرحمة » عن أفضاله ؛ فبجلاله يكاشفهم فيُفْنِيهم ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غِناه يوجب محوَهم ، وسماع رحمته يوجب صحوهم ، فهم فى سماع هذه الآية مترددون بين بقاءٍ وبين فناءٍ ، وبين إكرام وبين اصطلام ، وبين تقريبٍ وبين تذويب ، وبين اجتياحٍ وبين ارتياح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم
بِمُعْجِزِين ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قِصَر الأمل ، ومَنْ قصُرَ أملُه حَسُنَ عملُه ، وكل ما هو آتٍ فقريبٌ أجَلُه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم
إنى عاملٌ فسوف تعلمون مَنْ تكون له
عاقبةُ الدار إنه لا يُفْلِحُ الظالمون ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان فى صيغة الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرثِ والأنعام
نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا
لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل

إلى اللهِ وما كان لله فهو يصل إلى
شركائهم ساء ما يحكمون ﴾

لما بَنَوْا قاعدة أمرِهم على موجب الهوى صارت فروعُهم لائقةً بأصولهم ؛ فهو كما قيل :

إذا كان القضاء إلى ابن آوى فتعويل الشهود إلى القرود

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين
قتلَ أولادِهم شركاؤهم ليردوهم
وليَلبِسُوا عليهم دينَهم ولو شاء اللهُ
ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك ؛ إذْ الأشكالُ يتناصرون ، فالنَّفْسُ لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مُدَّعيةٌ تتوهم أن منها شيئاً ، وأصلُ كلِّ شِرْكٍ الدعوى ، والشيطانُ لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوانٌ يتناصرون .

ثم قال : « ولو شاء الله ما فعلوه » صَرَّح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار (بسابق)[1] القضية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ
لا يَطْعَمُها إلا مَنْ نشاء بزعمهم
وأنعامٌ حُرِّمت ظهورُها ، وأنعام
لا يذكرون اسمَ اللهِ عليها افتراءً
عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون *
وقالوا ما في بطون هذه الأنعام
خالِصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا
وإنْ يكن ميتةً فهم فيه شركاء ،
سيجزيهم وَصْفَهُم إنه حكيم عليم ﴾

---

(١) وردت (بسائق) وهي خطأ من الناسخ إذ المقصود بما سبق من القضاء .

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمور شرعوها على الوجه الذى اعتادوا ، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجة من إذن رسول ، والاشارة فيه أن من (نحا نحوهم)[1] فى زيادة شىء فى الدين ، أو نقصان شىءٍ من شرع المسلمين فمضاهٍ لهم فى البطلان ، ينخرط فى سلكهم فى الطغيان .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خسِرَ الذين قتلوا أولادَهم سَفَهًا بغير عِلْمٍ وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشيةُ الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل التحقيق : من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى أنشَأَ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ والنَّخلَ والزرعَ مختلِفاً أُكُلُهُ والزيتونَ والرُّمَّان متشابِهاً وغيرَ متشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذا أثمر ﴾

يعنى كما أنشأ فى الظاهر جناتٍ وبساتينَ كذلك أنشأ فى السِّر جناتٍ وبساتين ، ونزهة القلوب أتم من جنات الظاهر ، فأزهار القلوب مونِقة ، وشموس الأسرار مشرقة ، وأنهار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال ، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت فى كونها أحوالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وآتوا حقَّه يَوْمَ حصاده ﴾

---

(١) وردت (نجا نجوم) وهى خطأ من الناسخ .

حَقٌّ الواجبِ يومَ الحصادِ إقامة الشكر ، فأمَّا إخراج البعض فبيانه على لسان العلم[1] ، وشهودُ المنعِم فى عين النعمة أتمٌّ من الشكر على وجود النعمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يُحِبُّ المسرفين ﴾

الإسراف — على لسان العلم — مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كلٌّ ما أنْفَقْتَه فى حظٍّ نَفْسِكَ — ولو كانت سمسمة ، وما أنفقته فى سبيله — سبحانه — فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الأنعامِ حَمُولَةً وفَرْشاً ﴾

يعنى تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية فى الفضيلة على المخلوقات . وكما سخَّر الأعيان للإنسان كذلك سخَّر الأزمان فى تصريف الحدثان لخواصِّ الإنسان[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكم عدو مبين * ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . . . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائعٌ فى جميع ما يحصل به الانتفاع .

وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكَرَم بل الجود فى وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان ، وللسِّر رزق وهو الشهود الذى يكون للعبد وهو قرين العيان .

---

(١) أى إخراج مقدر على حسب المعروف فى الزكاة .

(٢) يشير بذلك إلى ما يحدث على أيدى الأولياء من كرامات .

قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدَّب العبدُ باستدامة السكون والتزام حُسْنِ الخُلُق، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تُؤْذِي[1] ولا (بـ . . . وها)[2] ، يعني كذلك سبيل من وَطِيء هذا البساط .

وكذلك « فى الإبل آيات » منها انقيادها لمن جَرَّ زِمَامَها ، واستناختها حيثما تُنَاخ ، بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحَمْل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها فى السير .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّماً
على طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أَنْ يكون مَيْتَةً
أو دَمًا مسفوحاً أو لحمَ خِنزيرٍ فإنَّه
رِجْسٌ أو فِسْقًا أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به
فَمَنْ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ
ربَّكَ غفورٌ رحيم ﴾

بيَّن أنَّ الشارِعَ اللهُ ، والمانعَ عن الخلْق هو الله ، وما كان من غيرِ الله فضائعٌ باطِلٌ عند الله . بيَّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمْنا كُلَّ ذِي
ظُفُرٍ ومنَ البقرِ والغنمِ حرَّمنا عليهم
شُحُومَهُمَا إلا ما حَمَلَتْ ظهورُها
أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ ذلك
جزيناهم ببغيهم وإنَّا لصادقون ﴾

---

(١) فى هذه الإشارة الدقيقة نلمح أن القشيرى يدعو إلى إيثار الكتمان وعدم البوح بالأسرار ، وعلى ذلك كبار الشيوخ . يقول الشبلى . على أثر محنة الحلاج « كنت وابن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر وأنا كتمت » .

(٢) مشتبهة ، وربما كانت (بعدوِّها) ، وعندئذ قد تكون العبارة فلا بصاحها تؤذى ولا بعدوها.

بيَّن أن ما حرَّم عليهم ضيَّعوه ؛ إذ لمَّا لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَه العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم — فأهملوه ولم يحافظوا عليه ، فاستوجبوا عظيم الوِزْر وأليم الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كذَّبوك فَقُلْ ربُّكم ذو رحمةٍ واسعة ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة ، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة . والصورة الإنسانية جامعة (لهم)(١) ولكن القسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم .

قوله جل ذكره ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا مِنْ شيءٍ كذلك كَذَّبَ الذين مِنْ قبلهم حتى ذاقوا بأسَنا ، قُلْ هل عندكم مِنْ عِلْمٍ فتخرجوه لنا ؟ إنْ تتبعون إلا الظنَّ وإنْ أنتم إلاَّ تخرُصُون ﴾

كذبت أقوالُهم لأنها لم تَصْدُرْ عن تصديق ، فَذُمُّوا على جهالتهم وإن كانت (. . . .)(٢) فى التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ فلله الحجةُ البالغةُ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾

صَرَّحَ بأن إرادته — سبحانه — لا تتقاصر عن مراد ، وليس عليه اعتراض .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أنَّ اللهَ حَرَّم هذا فإن شَهِدوا

---

(١) وردت (له) والصواب أن تكون (لهم) لتشمل الأولياء والأعداء .

(٢) مشتبهة .

فلا تَشْهَدْ معهم ، ولا تتبع أهواءَ
الذين كذبوا بآيتنا والذين لا يؤمنون
بالآخِرةِ وهم بَرِبِّهم يَعْدِلون ﴾

أشار إلى أنَّ مَنْ تجرَّد عن برهانٍ يُصَرِّحه وبيانٍ (يُوَضِّحُه)[1] فغيرُ مقبول من فاعله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّم ربُّكم عليكم
أَلا تشرِكوا به شيئاً ، وبالوالدين
إحساناً ، ولا تقتلوا أولادَكم مِنْ
إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ،
ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها
وما بَطن ، ولا تقتلوا النفْسَ التى
حرَّم الله إلا بالحقِّ ذلكم وصاكم به
لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتى هى أحسنُ حتى يبلغَ
أشدَّه وأوفوا الكيل والميزانَ
بالقِسْطِ لا نُكَلِّف نَفْساً إلّا وُسْعَها
وإذا قلتم فاعدِلوا ولو كان ذا قُربَى
وبعهدِ الله أوْفُوا ذلكم وصَّاكم به
لَعَلَّكم تَذَكَّرون * وأنَّ هذا
صِراطى مستقيمًا فاتبعوه ، ولاتتبعوا
السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيله، ذلكم
وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾

(١) وردت (يوضعه) والصواب أن تكون بالحاء ليقوى المعنىوالموسيق اللفظية ونرجح أن الناسخ اشتبه عليه شكل الحاء فظنها عيناً .

هذه أشياء عشرة تضمنتها هذه الآية أولها الشِرْك فإنه رأس المحرمات ، والذى لا يقبل معه شىء من الطاعات ، وينقسم ذلك إلى شِرك جَلِىٍّ وشِرْك خَفِىٍّ ؛ فالجلىُّ عبادةُ الأصنامِ ، والخفىُّ ملاحظةُ الأنامِ ، بعين استحقاق الإعظام .

والثانى من هذه الخصال ترك العقوق ، وتوقير الوالدين بحفظ ما يجب من أكيدات الحقوق .

وبعد ذلك قتل الأولاد خشية الإملاق ، وإراقة دمائهم بغير استحقاق .

ثم ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا وما استتر ، ويدخل فى ذلك جميع أقسام الآثام .

ثم قتل النفّس بغير الحق ، وذلك إنما يكون لفقد شفقة الخلق .

ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم .

ثم بذل الإنصاف فى المعاملات والتوقى من جميع التبعات[1] .

ثم الصدق فى القول والعدل فى الفعل .

ثم متابعة السبيل بما تشير إليه لوائح الدليل .

فَمَنْ قابل هذه الأوامر بجميل الاعتناق سعد فى داريه وحظى بعظائم منزلته .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تَماماً على الذى أَحْسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ وهدىً ورحمةً لَعَلَّهم بلقاء ربِّهم يؤمنون ﴾

يهوِّن عليهم مشقة مقاساة التكليف بما ذكر من التعريف بأنَّ الذين كانوا قبلنا كانوا فى الضعف والعجز مثلنا ، ثم صَبرُوا فظَفِروا ، وأَخْلَصُوا فخَلَصُوا .

---

(١) أى الاحتراز عما فيه تبعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مُبَارَكٌ
فاتَّبِعُوه ، واتقوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

إنزال الكتاب عليهم تحقيق للإيجاب ، وإذا بَقِىَ العبدُ عن سماع الخطاب تسلى بقراءة الكتاب ، ومن لم يجدْ فى قراءة القرآن كمالَ العيشِ والأُنس فلأَنَّه يقرأُ ترسماً لا تحققاً [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ أنْ تقولوا إنَّما أُنْزِلَ الكتابُ
على طائفتين مِنْ قبلنا وإن كُنَّا
عن دِرَاسَتِهِم لغافلين * أو تقولوا
لو أنَّا أُنْزِل علينا الكتابُ لكُنَّا
أهدى منهم فقد جاءكم بَيِّنَةٌ مِن
ربكم وهدى ورحمةٌ ﴾

أزاح كلَّ عِلَّة ، وأبدى كل وصلة ، فلم يُبْقِ لك تعللا ، ولا فى آثار الالتجاء إلى العذر موضعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أظْلَمُ ممن كذَّب بآياتِ الله
وصَدَفَ عنها سنجزى الذين
يَصْدِفون عن آياتنا سوءَ العذابِ
بما كانوا يصدِفون ﴾

عقوبةُ كلِّ جُرْمٍ مؤجلة ، وعقوبة التكذيب معجلة ، وهى ما يوجب بقاءهم فى أَسْرِ الشك حتى لا يستقر قلبهم على شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أنْ تأتيَهم الملائكةُ
أو يأتِىَ رَبُّكَ أو يأتِىَ بعضُ آياتِ
ربِّكَ يومَ يأتى بعضُ آياتِ ربك

(1) يمكن ان يصلح هذا الرأى لتحديد موقف القشيرى من قضية « السماع » ومدى تأثير القرآن والشعر فى الوجدان الصوفى . أنظر قصة يوسف بن الحسين الرازى (الرسالة ص ١٧١) .

لا ينفع نَفْسـاً إيمانُها لم تـكن آمنت
مِنْ قبلُ أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيراً
قل انتظروا إنَّا مُنتظِرون ﴾

أخبر أنه بعدما (أزاح)[1] لهم العلل اقترحوا ما ليس لهم ، و (اغتروا)[2] بطول السلامة لهم ، ثم بيَّن أنه إذا أمضى عقوبة عبدٍ حُـكْماً فلا معارِضَ لتقديره ، ولا مُناقِضَ لتدبيره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا
شِيَعاً لستَ منهم فى شىءٍ إنَّما أمْرُهم
إلى الله ثم يُنَبِّئُهُمْ بما كانوا يفعلون ﴾

اتفقوا بأبدانهم وافترقوا بقلوبهم ، (فـكانوا)[3] مجتمعين جهراً بجهر ، متفرقين — فى التحقيق — سِرّاً بسِرٍّ .

قوله : « لستَ منهم فى شىءٍ » . لا نجمعك وإياهم ، يعنى شِقُّكَ شِقُّ الحقائق ، وشِقُّهم شِقُّ الباطل ، و (لا اجتماعَ)[4] للضدين .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ جاء بالحسنةِ فله عشر أمثالها ﴾

هذه الحسنات للظاهر ، وأمَّا حسنات القلوب فللواحد مائة إلى أضعاف مضاعفة .

ويقال الحسنة مِنْ فضله تعالى تَصْدُر ، وبلطفه تحصل ، فهو يُجْرِى ، ثم يَقْبَلُ ويثنى ، ثم يجازى ويُعطى .

ويقال إحسانه — الذى هو التوفيق — يوجِبُ إحسانك الذى هو الوفاق ، وإحسانه — الذى هو خَلق الطاعة — يوجِبُ لك نعت الإحسان الذى هو الطاعة ؛ فالعناء منك فِعْلُه والجزاء لك فَضْلُه[5] .

---

(١) وردت (ذمح) وذبح العلة وإزاحتها كلاهما مقبول ولـكننا آثرنا أزاح لأنه استعملها فى هذا السياق قبل قليل .

(٢) وردت (اعتروا) بالعين والصواب (اغتروا) بالغين .

(٣) وردت (فـكا . . .) فأكملناها .

(٤) وردت و (الاجتماع) والمعنى يرفضها ويقبل و (لا اجتماع) .

(٥) تعبر هذه الفقرة عن موقف القشيرى بالنسبة لقضية وجوب المثوبة والعقوبة على الله بالنسبة للمطيع والعاصى ، فبينما يقول المعتزلة بهذا الوجوب ، يرفض القشيرى كل وجوب على الله ، ويعود بالأمر كله إلى الفضل الإلهى .

ويقال إحسان النفوس تَوْفِيَة الخدمة ، وإحسان القلوب حفظ الحرمة ، وإحسان الأرواح مراعاة آداب الحشمة .

ويقال إحسان الظاهر يوجب إحسانه فى السرائر ، فالذى منك مجاهدتُك ، والذى إليك مشاهدتك .

ويقال إحسان الزاهدين ترك الدنيا ، وإحسان المريدين رفض الهوى ، وإحسان العارفين قطع المنى ، وإحسان الموحدين التخلِّى عن الدنيا والعقبى ، والاكتفاء بوجود المولى .

ويقال إحسان المبتدئين الصدق فى الطلب ، وإحسان أصحاب النهاية حفظ الأدب ، فشرطُ الطلبِ ألا يبقى ميسورٌ إلاَّ بذَلْتَه ، وشرط الأدب ألا تسمولك هِمَّةٌ إلى شىءٍ إلا قطعتَه وتركته .

ويقال للزهاد والعبَّاد ، وأصحاب الأوراد وأرباب الاجتهاد جزاء محصور معدود ، ولأهل المواجيد لقاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ جآءَ بالسيئة فلا يُجْزَى إلا مثلَها وهم لا يُظْلمون ﴾

يعنى (يُكالُ)(1) عليه بالكيل الذى يكيل ، ويُوقَفُ حيث يرضى لنفسه بأن يكون له موقفا .

قوله جل ذكره : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صِراط مستقيم ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

أرشده إلى الطريق الصحيح . ولا يكون الإرشاد إليه إلا بانسداد الطرق أجمع إلى ماسواه . ومَنْ وَجَدَ سبيلا إلى مخلوق عرج في أوطان الحسبان لأن الأغيار ليس لها من الإبداع شظية ، ومن سلك إلى مخلوق سبيلاً وأبرم فيهم تأميلاً أو قدَّم عليهم تعويلاً ، فقد استشعر تسويلاً ، وجُرِّعَ تضليلا .

---

(1) وردت (يقال) وهى خطا فى النسخ .

و « الصراط المستقيم » ألاَّ ترى من دونه مثبتاً لذرةٍ ولا سنة .

و « الدين القيم » مالا تمثيلَ فيه ولا تعطيل ، ولا نفى للفَرْقِ الذى يشير إلى العبودية ، ولا ردّ للجمع الذى هو شهود الربوبية[1] .

والحنيف المائل إلى الحق ، الزائغ عن الباطل ، الحائل عن ضد الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّ صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله ربّ العالمين * لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾

مَنْ كوشِفَ بحقائق التوحيد شَهِدَ أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمُنَقِّل إياه من وصفٍ إلى وصف ، و (...)[2] عليه فنون الحدثان — واحدٌ لا يشاركه قسيم ، وماجدٌ لا يضارعه نديم .

ويقال مَنْ عَلِمَ أنه بالله علم أنه لله ، فإذا علم أنه لله لم يَبْقَ فيه نصيب لغير الله ؛ فهو مستسلمٌ لحكم الله ، لا مُعْتَرِضٌ على تقدير الله ، ولا معارِضٌ لاختيار الله ، ولا مُعْرِضٌ عن اعتناق أمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أبغى ربًّا وهو ربُّ كلِّ شىءٍ ولا تَكسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليها ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾

---

(١) من اقوال القشيرى التى توضح مقصوده هنا : ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية ومايليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحق ـ سبحانه ـ أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة ، ومن أشهده الحق ـ سبحانه ـ ما يوليه من أفعال نفسه ـ سبحانه ـ فهو عبد يشاهد الجمع ؛ فإثبات الخلق من باب التفرقة ، واثبات الحق من نعت الجمع ، ولابد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له (الرسالة ص ٣٨) .

(٢) مشتبهة وهى قريبة من (المجرى) .

كيف أوثِر عليه بَدَلاً وإنى لا أجد عن حكمه حِوَلا ، وكيف أقول بغيرٍ أو ضد أو شريك ؟ أو أقول بدونه معبودٌ أو مقصود ؟ وإنْ لا حظتُ يمنةً ما شاهدتُ إلا مُلكه ، وإنْ طالعتُ يَسْرةً ما عايَنْتُ إلا مُلكَه ! بل إنى إنْ نظرتُ يمنةً شهدت يُمْنَه ، وإنْ نظرتُ يَسْرَةً وجدتُ نحوى يُسْرَه[1] !

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائفَ فى الأرض
ورفع بعضَكم فوق بعضٍ درجاتٍ
ليبلوَكم فيما آتاكم إنَّ ربَّك سريعُ
العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾

صير التوبة إليكم ، وقَصَرَ حكم عصركم عليكم ، فأنتم المقصودون اليوم دون من هو سواكم . ثم إنه جعلكم أصنافا ، وخلقكم أخيافاً[2] فمِنْ مُسَخَّرٍ له ، مُرَفَّهٍ ، مُرَوَّحٍ ، يتعب لأَجْله كثيرٌ . ومن مُعَنَّيً ، وذى مشقةٍ أُدِيرَ عليه رأسُه . وجاء البلاء ليختبركم فيما آتاكم ، ويمتحنكم فيما أعطاكم . إنَّ حسابه لكم لاحِقٌ ، وحكمه فيكم سابق . والله أعلم .

السورة التى يذكر فيها الأعراف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الباء مكسورة فى نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارة للأسماء ، وهى صغيرة القامة فى الخط ، ونَقْطُها الذى تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القِلَّة ، ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف ، فهى تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه .

والسين « من بسم الله » حرفٌ ساكنٌ فالإشارة من الباء ألا تَذَرَ — فى الخضوع والتذلل ، والجهد والتوسل — ميسوراً ، ثم تسكن منتظراً للتقدير ؛ فإنْ مَنَّ القبولَ بفضله

---

(١) وردت (يمنه ويسره) بتاء مربوطة والصواب أن تكونا (اليمن واليُسر) مضافتين لله — سبحانه .

(٢) يقال هم إخوة أخياف : أى أنَّ أمهم واحدة والآباء شتى فهم مختلفون (المنجد) .

فذلك المأمول ، وإنْ ردَّ بحكمٍ فله الحكم ، فتوافق تقديره بالموافقة فى الرضا به ، إذا الميم تشير إلى مِنته إن شاء ، ثم إلى موافقتك لتقديره بالرضا به إنْ لم يَمُنّ .

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق بلطائف المكاشفات بما يختصهم الحق — سبحانه — بذلك من دون الخلق ، فهم على بيانٍ مما يخفى على الخلْق ، فالغيب لهم كشف ، والخبرُ لهم عيان ، وما للناس عِلْم فلهم وجود .

والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البَسط بما (. . . .)[1] فيه من وجوه المراعاة ! وصنوف لطائف المناجاة ، فهم فى جنات النعيم ، وعيشِ بسطٍ وتكريم ، ودوام روْحٍ مقيم .

والميم تشير إلى محبة الحق — سبحانه — لهم بدءاً فإنها هى الموجبة لحابِّهم ، إذ عنها صَدَرَ كلُّ حب فبمحبته لهم أحبوه ، وبقصده إليهم طلبوه ، وبإرداته لهم أرادوه .

ويقال نزهة أسرار الموحدين فى الإناخة بعقوة بسم الله ، فَمَنْ حَلَّ تلك الساحة رَتَعَ فى حدائق القُدْس ، واستروح إلى نسيم الأُنْس .

ويقال بسم الله موقف الفقراء بقلوبهم ؛ فللأغنياء موقفهم عرفات ، وللفقراء موقفهم المكاشفات والمشاهدات .

ويقال قالة « بسم الله » ربيع الأحباب ؛ أزهارها لطائف الوصلة ، ونَوْرُها زوائد القربة .

قوله جل ذكره : ﴿ المص ﴾ .

هذه الحروف من المتشابه فى القرآن على طريقة قومٍ من السَّلَف ، والحق — سبحانه — مستأثر بعلمها دون خلقه . وعلى طريقة قومٍ فلها معانٍ تُعْرَف ، وفيها إشارات إلى أشياء توَصف : فالألِف تشير إلى أُلفة الأَرواح العطرة أصابت الشكلية مع بعض الأَرواح العطرة ، فهى — فى التحقيق — فى ذلك المعنى كالمتحدة ؛ فمنه تقع الألفة بين المتشاكلين ، ولأجل اتحاد المقصود يتفق القاصدون .

ويقال ألِفَ القلبُ حديثَه فلم يحتشم من بَذْل روحه .

---

(١) مشتبهة .

ويقال الألف تجرَّد مَنْ قَصَدَه عن كل غَيْرٍ فلم يتصل بشيء ، وحين استغنى عن كل شيء اتصل به كل شيء على جهة الاحتياج إليه .

ويقال صورة اللام كصورة الألف ولكن لما اتصلت بالحروف تعاقبتها الحركات كسائر الحروف ؛ فمرةً أصبحت مفتوحة ، ومرةً (مسكونة)[1] ، ومرة مرفوعة ، وأمّا الألف التي هي بعيدة عن الاتصال بالعلاقات (فباقية على وصف التجرد عن تعاقب الحركات عليها فهي على سكونها الأصلي)[2] .

وأمّا الصاد فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين فى القصد ، وصدق أحوال العارفين فى الوجد ، وتشير إلى صدق قلوب المريدين وأرباب الطلب ، إذ العطش نعت كلِّ قاصد ، كما أن الدهشة وصف كلِّ واجد .

ويقال الصاد تبدى محبةً للصدورِ وهو بلاء الأحباب .

ويقال الصاد تطالبك بالصدق فى الود ، وأمارة الصدق فى الود بلوغ النهاية والكمال ، حتى لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالمنع .

قوله جل ذكره : ﴿ كتابٌ أُنْزِلَ إليك فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه لتنذرَ به وذِكْرى للمؤمنين ﴾ .

كتاب الأحباب تحفة الوقت ، وشفاء لمقاساة ألم البعد ، وهو لداء الضنى مُزِيل ، ولشفاء الشكِّ مُقِيل ، وقال تعالى : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » ولم يقل : فى قلبك ؛ فإن قلبه — عليه السلام — فى محل الشهود ، ولذلك قال : ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»[3] وكذلك قال موسى عليه السلام : « رب اشرح لى صدرى »[4] . وقال للمصطفى صلوات الله

---

(١) وردت (مسكوه) بسقوط النون وهى خطأ فى النسخ .

(٢) ما بين القوسين موجود فى الهامش اثبتناه فى موضعه من المتن حسب العلامة المميزة .

(٣) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٤) آية ٢٥ سورة طه .

عليه : « ألم نشرح لك صدرك »[1] . فإن القلب فى محل الشهود ، وهو أبداً بدوام أنس القرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « تنام عينى ولا ينام قلبي »[2] وقال : « أسألك لذة النظر »[3] وصاحب اللذة لا يكون له حرج .

قوله جل ذكره : ﴿ اتَّبِعُوا ما أُنزِل إليكم من ربِّكم ولا تتبعوا مِنْ دونه أولياء قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾ .

اسْتَسْلِموا لمطالبات التقدير ، قِفُوا حيثما وقفتم ، وتحققوا بما عرفتم ، وطالعوا بما كوشفتم ، ولا تلاحظوا غيراً ، ولا تركنوا إلى عِلَّةٍ ، ولا تظنوا أن لكم من دونه وسيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسُنا بياتاً أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذْ جاءهُم بَأْسُنا إلاَّ أنْ قالوا إنَّا كنا ظالمين ﴾ .

يعنى كم من قرية ركنوا إلى الغفلة ، واغتروا بطول المهلة ، باتوا فى (خَفْضِ)[4] الدعة وأصبحوا وقد صادفتهم البلايا بغتة ، وأدركتهم القضيةُ فجأة ، فلا بلاء كُشِف عنهم ، ولا دعاء سُمِع لهم ، ولا فرار نَفَعَهم ، ولا صريخ أنقذهم . فما زالوا يفزعون إلى الابتهال ، ويصيحون : الويل ! ويدعون إلى كشف الضر ، ويبكون من مسٍّ السوء ؟ ! بادوا وكأنه لاعين ولا أثر ، ولا لأحدٍ منهم (خبر)[5] . تلك سُنَّةُ الله فى الذين خَلَوْا من الكافرين ، وعادته فى الماضين من الماردين .

---

(١) آية ١ سورة الشرح .

(٢) فى رواية سعيد بن منصور فى سننه عن ابن سعد بن الحسن مرسلا : (تنام عيناى ولا ينام قلبى) ص ١٢٠ الجامع الصغير .

(٣) وردت ضمن دعاء طويل رواه النسائى فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر — هكذا (. . . وأسألك لذة النظر الى وجهك) .

(٤) وردت (حفض) بالحاء والصواب أن تكون (خفض العيش) بالخاء .

(٥) وردت (خير) بالياء والصواب أن تكون (خبر) بالباء .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » : سؤال تعنيف وتعذيب .

« ولنسألن المرسلين » : سؤال تشريف وتقريب .

« فلنسألن الذين أرسل إليهم » عن القبول فيتقنَّعون بذل الخجل .

« ولنسألن المرسلين » عن البلاغ فيتكلمون ببيان الهيبة ، فالكلُّ بسِمةِ العبودية والتوقير ، والحقُّ بنعت الكبرياء والتقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ فلنقُصَّنَّ عليهم بِعِلْمٍ وما كنَّا غائبين ﴾

فلنخبرنهم يومَ الفصلِ ما هم عليه اليوم ، ونوقفهم على ما أسلفوه ، ونقيمنهم فى مقام الصَّغارِ ومحل الخزى ، وسيعلمون أنه لم يَغِبْ عن علمنا صغير ولا كبير .

ويقال أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَه بتخويف العباد بعلمه مرة كما خوَّفهم بعقوبته تارة ؛ فقال تعالى : « واتقوا يوماً »[1] يعنى العذاب الواقع فى ذلك اليوم ، وقال فى موضع آخر : « ويحذِّركم الله نفسه »[2] وهذا أبلغ فى التخويف ، وقال « ألم يعلم بأن الله يرى »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ والوزن يومئذٍ الحقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك هم المفلحون * وَمَنْ خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يَظْلِمُون ﴾

يَزِنُ أعمالهم بميزان الإخلاص ، وأحوالهم بميزان الصدق . فَمَنْ كانت أعمالُهم بالرياء

(١) آية ٤٨ سورة البقرة
(٢) آية ٢٨ سورة آل عمران
(٣) آية ١٤ سورة العلق

مصحوبة لم يَقْبَلْ أعمالَهم ، ومَنْ كانت أحوالُهم بالاعجاب مشوبةً لم يرفع أحوالَهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد مكنَّا كم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾

سَهَّلنا عليكم أسباب المعيشة ، ويسَّرنا لكم أحوال التصرف ، ثم أراد منكم أنْ تتخذوا إليه سبيلاً ، ولم يعتصِ عليه مراد .

« قليلا ما تشكرون » لاستعمالكم — فى الخلاف — أبدانكم ، ولإنفاقكم — بالإسراف — أحوالكم ، ولاستغراقكم — فى الحظوظ — أوقاتكم . فلا نعمة الفراغ شكرتم ، ولا من مسِّ العقوبة شكوتم . . . خسرتم وما شعرتم !

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صَوَّرناكم ثُمَّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

ثَبَّتْنَاكم على النعت الذى أردناكم ، وأقمناكم فى الشواهد التى اخترنا لكم ؛ فمِنْ قبيحٍ صورته خَلْقاً ومن مليح ، ومن سقيم حالته خُلُقاً[1] ، ومن صحيح . ثم إنا نعرفكم سابق آيادينا إلى أبيكم ، ثم لاحقَ خِلافه بما بقى عِرْقٌ منه فيكم ، ثم ما علمنا به (من مكان يحسدكم)[2] ويعاديكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ما مَنَعَكَ ألا تسجُدَ إذ أمَرْتُكَ قال أنا خيرٌ منه خلقتنى مِن نارٍ وخلقته من طين ﴾

أى لولا قهر الربوبية جرى عليك وإلا فما مُوجِبُ امتناعك عن السجودِ لآدم لو كُنْتَ تُعَظِّم أمرى ؟ فيتحقق الموحدِّون أن موجِبْ امتناعه عن السجود الخذلانُ الحاصلُ ، ولوساعده التوفيق لم يبرح بعد من السجود .

---

(١) ضبطنا خلقاً وخلقاً حسبما يتطلبه السياق .

(٢) هكذا فى ص ونرجح أن الناسخ قد اخطأ فى النقل ؛ فما بين قوسين لا معنى له ، وربما كانت فى الأصل (ثم ما علمنا بمن كان يحسدكم ويعاديكم) والمقصود إبليس كما فى الآية .

قال : « أنا خير منه » ادَّعى الخيرية ، وكان الواجب عليه — لولا الشقوة — أنْ يُؤْثِرَ التذلّلَ على التكبُّر ، لا سيما والخطاب الوارد عليه من الحقّ .

ثم إنه وإنْ سَلَكَ طريق القياس فلا وجه له مع النَّفس لأنه بِحَظٍ ، فلم يزِدْه قياسُه إلا فى استحقاق نفيه إذ ادَّعى الخيرية بجوهره[1] ، ولم يعلم أن الخيرية بحكمه — سبحانه — وقسمته .

قوله جل ذكر : ﴿ قال فاهبطمنها فما يكونُ لَكَ أن تتكبَّر فيها فاخرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغرين ﴾ .

فارِقْ بساطَ القربة ، فإنَّ التكبُّرَ والترفُّعَ على البساط تركٌ للأدب ، وتركُ الأدبِ يوجِب الطرد .

ويقال مَنْ رأى لنفسه محلاً أو قيمة فهو متكبِّر ، والمتكبِّر بعيد عن الحق سبحانه ، ورؤية المقام قَدْحٌ فى الربوبية إذ لا قَدْرَ لغيره تعالى ، فَمَنْ ادَّعى لنفسه محلاً فقد نازع الربوبية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال أنظِرنى إلى يومِ يُبعثُون * قال إنَّكَ مِنَ المُنظَرين ﴾ .

أجاب دعاءه فى الحال ولكن كان ذلك مكراً به لأنه مكَّنه من مخالفة أمره إلى يوم القيامة ، فلم يَزِدْه بذلك التمكين إلا شِقوةً . ليعلمَ الكافةُ أنه ليس كل إجابة للدعاء نعمةً ولطفاً بل قد تكون بلاء ومكراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فَبِما أغويتَنى لَأَقْعُدَنَّ لهم صِراطك المستقيم ﴾ .

جَاهَرَ الحقيقةَ بالخلاف بعدما أظهر من نفسه غايةَ الخلوص فى العبودية ، فَعُلِمَ أن جميع ما كان منه فى (سالف)[2] حاله لم يصدر عن الإخلاص والصدق .

---

(١) حيث اعتبر النار خيراً من الطين .

(٢) وردت (سالك) والصواب ان تكون (سالف) اى سابق عهده قبل عصيانه .

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بينِ أيديهم ومِنْ خلفِهم
وعن أيْمانِهم وعن شَمَائِلِهم ولا تجدُ
أكثرَهم شاكرين﴾ .

أخبر أنه يأخذ عليهم جوانبهم ، ويتسلطُ عليهم من جميع جهاتهم ، ولم يَعْلَمْ أن الحقَّ سبحانه قادر على حفظهم عنه ، فإنَّ ما يكيد بهم مِنَ القدرةِ حَصَلَ ، وبالمشيئة يوجد ، ولو كان الأمر به أو إليه لَكَانَ أوْلى الخلقِ بأنْ يؤَثِّرَ فيه كَدْحُه نَفْسَه ، وحيْث لم ينفعه جهدُه في سالِفِ أحواله لم يضرهم كيده بما توعدهم به من سوء أفعاله .

قوله جل ذكره : ﴿قال اخْرُجْ منها مذءوماً مَدْحوراً لمن
تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنم منكم
أجمعين﴾ .

أخرجه من درجته ، ومن حالته ورتبته ، ونقله إلى ما استوجبه من طرده ولعنته ، ثم تخليده أبداً في عقوبته ، ولا يذيقه ذرةً من بَرْدِ رحمته ، فأصبح وهو مقدَّمٌ على الجملة ، وأمسى وهو أبعد الزُّمرة ، وهذه آثار قهر العِزَّة . فأىُّ كَبِدٍ يسمع هذه القصة ثم لا يتفتت ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجُك الجنةَ
فَكُلا مِنْ حيثُ شِئْتُما ولا تَقْرَبا
هذهالشجرة فتكونامن الظالمين﴾ .

لما أسكن آدمَ الجنةَ خَلَق معه سببَ الفتنةِ ، وهو ما أكرمه به من الزوجة . وأى نقصٍ يكون في الجنة لو لم يخلق فيها تلك الشجرة التي هي شجرة المحنة لولا ما أخفى من سِرِّ القسمة ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿فوسوس لهما الشيطانُ﴾ .

نِسْبَتُه ما حَصَلَ منهما إلى الشيطان من أمارات العناية ، كانت الخطيئةُ منهما لكنَّه تعالى قال : «فوسوس لهما الشيطان» .

ويقال التقى آدمُ بإبليس بعد ذلك فقال له : ياشَقِىُّ ! وسوستَ إلىَّ وفعلتُ ! ، فقال إبليس لآدم . ياآدم ! هَبْ أنِّى كنتُ إبليسَك فَمَنْ كان إبليسى !؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبْدِىَ لهما ما ووري عنهما مِنْ سوءاتِهما ﴾ .

وفى ذلك دلالة على عناية زائدة حيث قال : «ليبدىَ لهما» فلم يطلع على سوأتهما غيرهما .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلاَّ أنْ تكونا مَلَكَين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

تاقت أنفسهما إلى أن يكونا مَلَكين — لا لأن رتبة الملائكة كانت أعلى من رتبة آدم عليه السلام — ولكن لانقطاع الشهوات والمنى عنهما .

ويقال لمَّا طمعا فى الخلود وقعا فى الخمود ، ووقعا فى البلاء والخوف ؛ وأصلُ كلِّ محنةٍ الطمعُ .

ويقال إذا كان الطمع فى الجنة — وهى دار الخلود — أوْجَبَ كُلَّ تلك المحن فالطمع فى الدنيا — التى هى دار الفناء — متى يسلم صاحبه من ذلك ؟ ويقال إن يكونا إنما ركنا إلى الخلود فلا لنصيبِ أنفسهما ، ولكن لأجْل البقاء مع الله تعالى ، وهذا أوْلى لأنه يوجب تنزيه محلِّ النبوة . وقيل ساعاتُ الوصال قصيرة وأيام الفراق طويلة ، فما لبثا فى دار الوصلة إلَّا بعضًا من النهار ؛ دَخَلاَ ضحوةَ النهار وخَرَجَا نِصْفَ النهار ! ويقال إن الفراقَ عينٌ تصيب أهلَ الوصلة ، وفى معناه قال قائلهم :

إنْ تكُنْ عينٌ أصابتك فما   إلا لأنَّ العين تصيب الحسَنَا

ويقال حين تمَّتْ لهما أسباب الوصلة ، ووَطَّنَا نفوسهما على دوام القربة بدا الفراق من مكامنه فأباد من شملهما (ما)[1] انتظم ، كما قيل :

(١) وردت (فانتظم) والصواب (ما انتظم)

حين تمَّ الهوى وقلنا سُررْنا ، وحسِبْنا مِنْ الفراق أمِنَّا
بَعَثَ البَيْنُ رُسْلَه فى \ خفاءٍ فأبادوا من شملنا ما جمعنا

قوله جل ذكره : ﴿ وقاسَمَهُما إنِّى لكما لَمِنَ الناصحين * فدَلَّاهما بغرور ﴾

(حُسْنُ ظنِّ آدم — عليه السلام — حَمَلَه على سكون قلبه إلى يمين العدو لأنه لم يخطر بباله أن يكذب فى يمينه بالله ، ثم لمَّا بان له أنه دلَّاهما بغرورٍ تاب إلى الله بصدق الندم ، واعترف بأنه أساء وأجرم ، فَعلِمَ — سبحانه — صِدْقَه فيما ندم ، فتداركه بجميل العفو والكرم)[1]

قوله جل ذكره : ﴿ فلمَّا ذاقا الشجرةَ بَدَتْ لهما سوءاتُهُمَا ﴾

لم يحصل استيفاء من الأكل والاستمتاع به للنفس حتى ظهرت تباشيرُ العقاب ، وتنغُّصِ الحال ، وكذا صفة مَنْ آثر على الحق — سبحانه — شيئاً يبقيه عنه ، فلا يكون له بما آثر استمتاع . وكذلك مَنْ إدَّخر عن الله — سبحانه — نَفْسَه أو مالَه أو شيئاً بوجهٍ من الوجوه — لا يبارك الله فيه ، قال تعالى فى صفة الأعداء : « خسر الدنيا والآخرة » .

ويقال لمَّا بَدَتْ سوأتهما احتالا فى السَّتْرِ ، وطَفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة فبعدما كانت كسوتهما حُلَلَ الجنة ظلَّا يستتران بورق الجنة ، كما قيل :

لله دَرُّهُمُ مِنْ فِتْيَةٍ بكروا مثل الملوك ، وراحوا كالمساكين
وأنشدوا : لا تعجبوا لمذلتى فأنا الذى عَبَثَ الزمان بهجتى فأذَلَّها

ثم إن آدم عليه السلام لم يساعده الإمكان فى الاستتار بالورق إذ كانت الأشجار أجمع كلُّها تتطاول وتأبى أن يأخذ آدم — عليه السلام — شيئاً من أوراقها . وقبل ذلك كان لا يلاحِظ الجنة فكان يتيه على الكون بأسره ولكنه صار كما يقال :

وكانت — على الأيام — نفسى عزيزة فلمَّا رأت صبرى على الذلِّ ذلَّتِ

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن .

ولمّا أُخرِج آدمُ من الجنة وأُسْكِن الأرض كُلِّف العملَ والسعىَ والزرع والغرسَ ، وكان لا يتجدد له حال إلا تجدّد بكاؤه ، وجبريل — عليه السلام — يأتيه ويقول : « أهذا الذى قيل لك : « إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى » ؟

فَلِمْ تعرِف قدره . « فَذُقْ جزايا خِلافِك » فكان يسكن عن الجزع . ويقال بل الحكم بالخنوع كما قيل :

وجاشَتْ إلىَّ النفسُ أوَّلَ مرةٍ وزيدت على مكروهها فاستقرتِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وطَفِقاَ يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربُّهما ألَمْ أنْهَكُماَ عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إنَّ الشيطان لكما عدو مبين ﴾

كانت لا تصل يدُه إلى الأوراق حين أراد قطافها ليخصفها على نفسه ، فلو لم تصل يده إلى تلك الشجرة — التى هى شجرة المحنة — لكان ذلك عنايةً بشأنه ، ولكن وصلت يده إلى شجرة المحنة ، تتمةً للبلاء والفتنة ، ولو لم تصل يده إلى شجرة الستر — إبلاغاً فى القهر — لَمَا خالف الأمر ، ولمَاَ حَصَلَ ما حَصَل .

« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » : فكان ما دَاخَلَهما من الخجل أشدَّ من كل عقوبة ؛ لأنهما لو كانا فى الغيبة عند سماع النداء فإن الحضور يوجب الهيبة ، فلما ناداهما بالعتاب حَلَّ بهما من الخجل ماحلّ ، وفى معناه أنشدوا :

واخجلتا من وقوفى وَسْطَ دَارِهِمُ إذ قال لى مغضبا : من أنت يارجل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قالا ربَّناَ ظلمنا أنفُسُناَ وإنْ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾

اعترفا بالظلم جهراً ، وعرفا الحكم فى ذلك سِرّاً ؛ فقولهما : « ربنا ظَلَمْناَ أنفسنا » اعتراف بالظلم من حيث الشريعة ، وعرفان بأن المدارَ على الحكم من حيث الحقيقة ، فَمَنْ لم يعترف بظلم الخَلْق طوى الشريعة[1] ، ومن لم يعرف جريان حكم الحق فَقَدْ جَحَدَ الحقيقة ؛

(١) حتى يكون الشر منسوباً للإنسان كَسْبًا .

فلمَّا أقرَّا بالظلم قالا : « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » نطقا على عين التوحيد حيث لم يقولا بظلمنا خسِرْنا ، بل قالا : فَعَلْنا فإنْ لم تغفر لنا خسرنا ، فبِتَرْكِ غفرانك نخسر لا رتكاب ظلمنا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال اهبطوا بعضُكم لبعضٍ عدو ﴾

أهْبَطَهم ، ولكنه أهبط إبليسَ عن رتبته فوقع في اللعنة ، وأهبط آدم عن بقعته فتداركته الرحمة .

ويقال لم يُخْرِج آدم عليه السلام من رتبة الفضيلة وإنْ أُخرِجَ عن دار الكرامة ، فلذلك قال الله تعالى : « ثم اجتباه ربُّه » وأما إبليس — لعنةُ الله عليه — فإنه أُخْرِجَ من الحالة والرتبة ، فلم ينتعش قط عن تلك السَّقْطة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم في الأرض مُسْتَقَرٌ ومتاع إلى حين ﴾

« ولكم في الأرض مستقر » هذا عامٌ « ومتاع إلى حين » : أراد به إبليسَ على الخصوص .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فيها تَحْيَوْن وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُون ﴾

أخبر أنه يستقبلهم اختلافُ الأحوالِ في الدنيا ، ويتعاقب عليهم تفاوتُ الأطوار ، فَمِنْ عُسْرٍ ومن يُسْر ، ومن خير ومن شر ، ومن حياةٍ ومن موت ، ومن ظَفَرٍ ومِنْ فَوْت . . . إلى غير ذلك من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتِكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ ذلك منْ آياتِ الله لعلهم يذَّكَّرون ﴾

سترناكم عن الأسباب الظاهرة ، ويَسَّرنا لكم ما تدفعون به صنوفَ المضار عنكم بما مَكَّنَّا لكم من وجوه المنافع .

ثم قال : « ولباسُ التقوى ذلك خير » فإن اللباس الظاهر يقى آفاتِ الدنيا ، ولباسُ التقوى يصون عن الآفات التى توجب سخط المولى ، ولباس التقوى بجميع أجزاء العبد وأعضائه . وللنَّفْس لباسٌ من التقوى وهو بذل الجهد والروح والقلب ، لباس من التقوى وهو صدق القصد بنفى الطمع . وللروح لباس من التقوى وهو ترك العلائق وحذف العوائق . وللسرِّ لباسٌ من التقوى وهو نفى المساكنات والتصاون من الملاحظات .

ويقال تقوى العُبَّاد ترك الحرام ، وتقوى العارفين نفى مساكنة الأنام . ويقال للعوام التقوى ، وللخواص لباس التقوى عن شهود التقوى .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطانُ
كما أخْرَجَ أبويكم من الجنة ينزع
عَنْهُمَا لِباسَهُمَا ليريَهما سوءاتِهما ﴾

من أصغى إلى وساوس نفسه بأسماع الهوى وجد الشكَّ بين وسواس الشيطان وهاجِس النَّفْس ، ويتناصر الوسواس والهاجس وتصير خواطرُ القلبِ وزواجِرُ العلمِ مغمورةً مقهورةً — فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجس والوساوس صاحبها ، وينخرط فى سلك موافقة الهوى فيسقط فى مهواة الزلة ، فإذا لم يحصل تداركٌ بوشيك التوبة صارت الحالةُ قسوةً فى القلب ، وإذا قسا القلبُ فارقته الحياة وتمَّ له البلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث
لا ترونهم إنَّا جعلنا الشياطين أولياء
للذين لا يؤمنون ﴾

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق — سبحانه — بقلبه ، فيستغيث إليه من كيده ، فيُدْخِلُه — سبحانه — فى كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا فعلوا فاحِشةً قالوا وجدنا عليها
آباءنا والله أمَرَنا بها ، قُلْ إن اللهَ

لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله
مالا تعلمون ﴾

استروحوا فى التعلل إلى سلوكهم نهجَ أسلافِهم ، فاستمسكوا بحبلٍ واهٍ فزلّت بهم أقدامُ الغرور ، وقعوا فى وهدة المحنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بالقِسْطِ ﴾

القِسط العدل ، ويقع ذلك فى حق الله تعالى ، وفى حق الخلْق ، وفى حق نفسك ؛ فالعدلُ فى حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير فى المأمور بهِ أو إقدامٍ على المنهِّى عنه ، ثم ألا تدخرَّ عنه شيئاً مما خوَّلك ، ثم لا تؤْثِرَ عليه شيئا فيما أحلَّ لك . وأمَّا العدل مع الخلْق — فعلى لسان العلم — بذلُ الإنصاف ، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف . وأمَّا العدل فى حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها ، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها ، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال فى كل نَفَس .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد
وادعوه مخلصين له الدِّين ﴾

الإشارة منه إلى إستدامة (شهوده فى كل حالة ، وألا تنساه لحظةً فى كلِّ ما تأتيه وتذره وتقدمه)[1] وتؤخره .

قوله جل ذكره : ﴿ كما بدأ كم تعودون * فريقاً هَدَى
وفريقاً حَقَّ عليهم الضلالةُ إنهم
اتخذوا الشياطينَ أولياء مِنْ دون
الله ويَحْسَبون أنهم مُهْتَدون ﴾

من كانت قِسمتهُ — سبحانه — له بالسعادة كانت فطرته على السعادة ، وكانت حالته بنعت السعادة ، ومن كانت حالته بنعت السعادة كانت عاقبته إلى السعادة ، ومن كانت القسمة له بالعكس فالحالة بالضد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان بحالةٍ لقى الله بها » .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص .

وجملة العلم بالقضاءِ والقَدَرِ أن يتحقق أنه علم ما يكون أنه كيف يكون ، وأراد أن يكون كما علم . وما عَلِمَ ألا يكون — مما جاز أن يكون أراده ألا يكون — أخبر أنه لا يكون . وهو على وجه الذى أخبر ، وقضى على العبد وقدَّر أجرى عليه ما سبق به الحكم ، وعلى ما قضى عليه حصل العبد على ذلك الوصف .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدمَ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾

على لسان العلم : يجب سَتْرُ العَوْرة فى الصلاة ، وعلى موجِب الإشارة : زينة العبد بحضور الحضرة ، ولزوم السُّدَّة ، واستدامة شهود الحقيقة .

ويقال زينة نفوس العابدين آثار السجود ، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود ؛ فالعابد على الباب بنعت العبودية ، والعارف على البساط بحكم الحرية . وشتَّان بين عبدٍ وعبد !

قوله جل ذكره : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسْرِفوا إنَّه لا يحبُّ المسرفين ﴾

الإسراف ما تناولته لَكَ ولو بقدر سمسمة .

ويقال الإسراف هو التعدى عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيباً لك أو حظاً بأى وجهٍ كان .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينةَ اللهِ التى أخرج لعبادِهِ والطيبات مِنَ الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفَصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾

الإشارة منها إلى زينة السرائر ؛ فزينة العابدين آثار التوفيق ، وزينة الواجدين أنوار التحقيق ، وزينة القاصدين ترك العادة ، وزينة العابدين حسن العبادة .

ويقال زينةُ النفوس صدارُ الخدمة ، وزينة القلوب حفظ الحرمة ، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة .

ويقال زينة اللسان الذكر وزينة القلب الشكر .

ويقال زينة الظاهر السجود وزينة الباطن الشهود .

ويقال زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات ، وزينة القلوب دوام المواصلة من حيث المشاهدات .

ومعنى قوله : « قل من حرم زينة الله التى . . . . » يعنى إن الله لم يمنع هذه الزينة عمن تعرض لوجدانها ، فمن تصدى لطلبها فهى مباحة له من غير تأخير قصود .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيِّباتِ مِنَ الرِّزق ﴾

أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه ، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى .

ويقال أرزاق المريدين إلهام ذكر الله ، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنَّما حرَّم ربى الفواحش ما ظَهَر منها وما بَطَن والإثمَ والبغْىَ بغير الحقِّ وأنْ تشرِكوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطانا وأنْ تقولوا على اللهِ مالا تعلمون ﴾

ما ظهر منها الزَّلَّةُ ، وما بطن منها الغفلةُ .

ويقال ما ظهر منها كان بنسيان الشريعة ، وما بطن بإشارة الحقيقة .

ويقال لقومٍ تركُ الرخص يكون علة ، والأوْلى بهم والأفضل لهم الأخذ به . وقومٌ لو ركنوا إلى الرُّخص لقامت عليهم القيامة .

ويقال فاحشة الخواص تتبع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بذرة أو سِنَّة .

ويقال فاحشة الأحبابِ الصبر على المحبوب[1] .

---

(١) لأنهم عندئذ يستطيعون الصبر بعيداً عن رضا محبوبهم عزّ وجلّ . (الرسالة ص ١٦٢)

ويقال فاحشةُ الأحبابِ أن تبقى حيّاً وقد منيت بالفراق ، قال قائلهم :

لا عيشَ بَعْد فراقهم هذا هو الخطب الأَجَلُّ

ويقال فاحشة قومٍ أن يلاحظوا غيراً بعين الاستحقاق ، قال قائلهم :

يا قُرَّةَ العين سَلْ عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مذ غبت عن عيني ؟

ويقال فاحشةُ قومٍ أنْ تبقى لهم قطرةٌ من الدمع ولم يسكبوها للفرقة ، أو يبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنَفَّسُوا به فى حسرة ، وفى معناه أنشدوا :

لئن بَقِيَتْ فى العين منِّى دمعةٌ فإنى إذاً فى العاشقين دخيلُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلِّ أُمةٍ أَجلٌ فإذا جاء أجلُهم لا يستأخِرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾

لكلِّ قومٍ مدةٌ مضروبةٌ ، فإذا تناهت تلك المدة زالت تلك الحالة ؛ فلنعمةِ المُتْرَفين مُدَّةٌ ، فإذا زالت فليس بعدها إلا الشِّدّة ، ولمحنةِ المستضعفين مدةٌ فاذا انقضت تلك المدة زالت تلك الشدة .

ويقال إذا سقط قرصُ الشمس زال سلطانُ النهار فلا يزداد بعده إلا تراكم الظلمة ، فإذا ارتحلت عساكرُ الظلام بطلوع الفجر فبعد ذلك لا تبقى فيه للنهار تهمةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى آدم إمَّا يَأْتِيَنَّكم رُسُلٌ منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

إذا أتاكم الرُّسُلُ فلا تركنوا إلى مجوزاتِ الظنون ، واحملوا الأمرَ على الجِدِّ فإنَّا — مع استغنائنا عن الأغيار ، وتَقَدُّسِنا عن المنافع والمضار — نُطَالِبُ بالقليل والكثير ، ونحاسِبُ على النقير والقطمير .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا
عنها أولئك أصحاب النار هم فيها
خالدون ﴾

مَنْ قَابَلَ ربوبيتَنا بالجُحْدِ ، وحكمنا بالرد ، لَقِيَ الهوانَ ، وقاسى الآلام والأحزان ، ثم العَجْزُ يلجئه إلى الخنوع ، ولكن بعد ألا ينفع ولا يسمع[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله
كذبا أو كذَّب بآياته أولئك ينالهم
نصيبهم من الكتابِ حتى إذا
جاءتهم رُسُلُنا يتوفونهم قالوا أين
ما كنتم تَدْعُون من دون الله ؟
قالوا ضَلُّوا عنا ، وشَهِدوا على
أنفُسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾

يصيبهم من الكتاب ما سبق لهم به الحكم ، فمن جرى بسعادته الحكمُ وقع عليه رقم السعادة ، ومن سبق بشقاوته الحكمُ حُقَّ عليه عَلَمُ الشقاوة .

ويقال من سبقت له قسمة السعادة فلو وقع فى قَعْرِ اللَّظى تداركتْه العنايةُ وأخرجتْه الرحمةُ ، ومَنْ سَبَقَتْ له قسمةُ الشقاوةِ .. فلو نزل الفراديس تداركته السخطة وأخرجته اللعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ادخلوا فى أُمَمٍ قد خَلَتْ من
قبلكم مِنْ الجنِّ والإنسِ فى النار
كُلَّما دَخَلتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أختها
حتى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً قالت

(١) توضح هذه العبارة فى ضوء ما سيرد بعد قليل هكذا : (ولكن بعد الا ينفعهم بكاء ولا يسمع لهم دعاء) .

أخراهم لأولاهم رَبَّنا هؤلاء أضلونا فآتِهِمْ عذاباً ضعفاً من النارِ ، قال لكلٍ ضِعْفٌ ولكنْ لا تعلمون * وقالت أولاهم لأُخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذابَ بما كنتم تكسِبُون ﴾

آثار إعراض الحق عنهم أورثَتْ لهم وحشةَ الوقت ؛ تبرَّم بعضُهم ببعض ، وضاق كلٌ واحدٍ منهم عن كل شيء حتى عن نفسه ، فدعا بعضهم على بعض ، وتبرَّأ بعضهم من بعض ، وكذلك صفة المطرودين .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كَذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماء ولا يدخلون الجنَّة حتى يَلِجَ الجملُ فى سَمِّ الخياط وكذلك نجزى المجرمين * لهم من جهنم مهاد ﴾

فلا دعاؤهم يُسمَع ، ولا بكاؤهم ينفع ، ولا بلاؤهم يكشف ، ولا عناؤهم يُرْفَع .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنْ فوقهم غواشٍ وكذلك نجزى الظالمين ﴾

كما أحاطت العقوبات بهم فى الدنيا فتَدَنَّس بالغفلة باطنُهم ، وتلوَّثَ بالزَّلة ظاهرهم[1] ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ؛ فَمَنْ فوقهم عذاب ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم فى القلب من ضيق العيش واستيلاء الوحشة ما يفى ويزيد على الكل .

---

(١) نذكِّر أن القشيرى منذ قليل أوضح أن (ما ظهر من الفواحش هى الزلة وما بطن منها هى الغفلة)

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لا نُـكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَاَ أولئك
أصحاب الجنَّة هم فيها خالدون ﴾

رفعنا عن ظاهرهم وباطنهم كلفة العمل فيسَّرنا عليهم الطاعاتِ بحسن التوفيق ، وخَفَّفْنَاَ عنهم العباداتِ بتقليل التـكاليف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونَزَعْناَ ما فى صدورهم من غِلٍّ ،
تجرى من تحتهم الأنهار ﴾

طهرنا قلوبهم من كل غش ، واستخلصنا أسرارهم عن كل آفة . وطَهَّرَ قلوب العارفين من كل حظ وعلاقة ، كما طهَّر قلوب الزاهدين عن كل رغبة ومُنْية ، وطهَّر قلوب العابدين عن كل تهمة وشهوة ، وطهَّر قلوب المحبين عن محبة كل مخلوق وعن غل الصدر — كل واحد على قدر رتبته .

ويقال لمـَّا خَلَق الجنة وَكَلَ ترتيبها إلى رضوان ، والعرش ولى حفظه إلى الجملة[1] ، والـكعبة سلّم مفتاحها إلى بنى شيبة ، وأمَّا تطهير صدور المؤمنين فتولاَّه بنفسه .

وقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ » .

ويقال إذا كان نزع الغل من الصدور مِنْ قِبَله فلا محلّ للغرم الذى لزمهم بسبب الخصوم حيث كان منه سبحانه وجه أدائه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا الحمـــد لله الذى هدانا لهذا
وما كُـنَّا لنَهتدِيَ لولا أن هدانا الله
لقد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق ﴾

فى قولهم اعترافٌ منهم وإقرارٌ بأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من جزيل تلك العطيات،

---

(١) هل المقصود بها جملة الملائـكة إشارة إلى قوله تعالى : « والملائـكة من حول العرش يسبحون بحمد ربهم . . . ؟

وعظيم تلك الرتب والمقامات بجهدهم واستحقاق فعلهم ، وإنما ذلك أجمع ابتداء فضل منه ولطف .

قوله جل ذكره : ﴿ ونودوا أَنْ تلكم الجنة أُورِثْتمُوها بما كنتم تعملون ﴾

تسكينٌ لقلوبهم ، وتطييبٌ لهم ، وإلا فإذا رأوا تلك الدرجات علموا أن أعمالهم المشوبة بالتقصير لم توجب لهم كل تلك الدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النارِ أن قد وجدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقاً فهل وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ ربُّكم حقاً ؟ قالوا : نعم ، فأَذَّنَ مُؤَذِنٌ بينهم أن لعنَةُ اللهِ على الظالمين * الذين يَصُدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرةِ كافرون ﴾

اعترف أهل النار بحقيقة الدِّين ، وأقروا بسوء ما عملوا ، ولكن حين لم ينفعهم إقرارٌ بحالٍ من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وبينَهما حِجابٌ ﴾

ذلك الحجاب الذى بينهما حصل من الحجاب السابق ؛ لمَّا حُجِبوا فى الابتداء[1] فى سابق القسمة عما خُصَّ به المؤمنون من القربة والزلفة حُجِبوا فى الانتهاء عما خُصَّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال حجاب وأى حجاب ! لا يُرفَع بحيلة ولا تنفع معه وسيلة .

حجابٌ سبق به الحكم قبل الطاعة والجُرْم .

---

(١) وردت فى (الابتداع) والصواب أن سابق القسمة فى (الابتداء) قبل الطاعة والجرم — كما سيأتى بعد قليل ، وكما نعرف من مذهب القشيرى فى هذا الخصوص .

قوله جل ذكره: ﴿وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كُلاًّ بسيماهم﴾

هؤلاء الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم فأشرفوا على مقادير الخلْق بأسرارهم، ويشرفون غداً على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

ويقال يعرفونهم غداً بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم؛ فأقوامٌ موسومون بأنوار القرب، وآخرون موسومون[1] بأنوار الرد والحجب.

قوله جل ذكره: ﴿ونادَوْا أصحابَ الجنَّةِ أَن سلامٌ عليكم لم يَدْخُلُوها وهم يطمعون﴾

سَلِمُوا اليومَ عن النكرة والجحود، وأكرموا بالعرفان والتوحيد.

وسلموا غداً من فنون الوعيد، وسَعِدُوا بلطائف المزيد. وتحققوا أنهم بلغوا من الرتب مالم يَسْمُ إليه طَرْفُ تأميلهم، ولم يُحِطْ بتفصيله كُنْهُ عقولهم.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا صُرِفَتْ أبصارُهم تِلقاءَ أصحابِ النَّارِ قالوا ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

إنما يصرف أبصارهم اليومَ تقديراً عليهم عظيم المِنّة التي بها نجاتُهم، فيزيدون في الاستغاثة وصدق الابتهال، فتكمل بهم العارفة[2] بإدامة مالاطفهم به من الإيواء والحفظ.

قوله جل ذكره: ﴿ونادى أصحابُ الأعرافِ رِجالاً يعرفونَهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكُم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاءِ الذين أقسمتم لا ينالُهُمُ اللهُ برحمةٍ، ادخلوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾

(١) قال أحمد بن عطاء: (الوسم يظهر على المقبولين والمطرودين) اللمع ص ٤٢٧.

(٢) العارفة هي الفضل والمعروف والمنة.

ذلك مايرون عليهم من غبار الرد وأمارات البعد ، وهى مما لا يخفى على ذى عينين، فيقولون لهم : هل يُغْنِي عنكم ماركنتم إليه من أباطيلكم ، وسكنتم إليه من فاسد ظنونكم ، وباطل تأويلكم ؟ فشاهِدوا — اليومَ — تخصيصَ الحق لمن ظننتم أنهم ضعفاؤكم ، وانظروا هل يغنى عنكم الذين زعمتم أنهم أولياؤكم وشركاؤكم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أنْ أفيضوا علينا من الماءِ أو مما رزقكم اللهُ قالوا إنّ اللهَ حرّمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينَهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياةُ الدنيا فاليوم ننساهم كما نَسُوا لِقاَء يومِهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾

دلّت الآية على أن من أواخر مايبقى على الإنسان الأكلَ والشربَ؛ فإنهم فى تلك العقوبات الشديدة يقع عليهم الجوعُ والعطش حتى يتضرعون كلَّ ذلك التضرع ؛ فيطلبون شربة ماء أو لقمة طعام وهم فى غاية الآلام ، والعادة — اليومَ — أن من كان فى ألم شديد لا يأكل ولا يشرب ، وهذا شديد .

ثم أَبْصِرْ كيف لا يسقيهم قطرةً — مع استغنائه عن تعذيبهم ، وقدرتِه على أن يعطيهم مايريدونِ ! ولكنه قهر الربوبية وعِـزُّ الأحدية ، وأنه فعّالٌ لِما يريد . فكما لم يرزقهم — اليومَ — من عرفانه ذرة ، لا يسقيهم غداً فى تلك الأحوال قطرة ، وفى معناه أنشدوا :

وأقْسَمْنَ لا يسقيننا — الدهرَ — قطرةً ولو فُجِّرت من أرضهن بحورُ

ويقال إنما يطلبون الماء ليبكوا به بعدما نفدت دموعهم ، وفى هذا المعنى قيل :

يا نازحاً نَزَفَتْ دمعى قطيعتُه هَبْ لى من الدمعِ ما أبكى عليكَ به .

وفى هذا المعنى أنشدوا .

جرف البكاء دموعَ عينك فاستعِرْ عيناً لغيرك دمعها مدرار

مَنْ ذا يُعيرك عينَه تبكى بها　　أرأيتَ عيناً للبكاء تُعار ؟

قوله جل ذكره : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً
وغرَّتهم الحياةُ الدنيا فاليومَ ننساهم
كما نسُوا لِقاءَ يومهم هذا وما كانوا
بآياتنا يجحدون ﴾ .

كما تركوا أمره وضيَّعوه تركهم فى العقوبة ، ولا (. . .)[1] فيما يشكون ، فتأتى عليهم الأحقاب ، فلا كشف عذاب ، ولا بَرْد شراب ، ولا حسن جواب ، ولا إكرامٌ بخطاب . ذلك جزاءُ لِمَنْ لم يعرف قَدْرَ الوصلةِ فى أوقات المهلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جئناهم بكتابٍ فصَّلناه على علمٍ
هُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمِنون ﴾ .

أنزلنا عليهم من الكتاب وأوحينا إليهم من الخطاب ما لو قابلوه بالتصديق وصاحَبُوه بالتحقيق لوجدوا الشفاء من محنة البعاد ، ونالوا الضياء بقرب الوداد ، ووصلوا فى الدنيا والعقبى إلى جميل المراد ، ولكنه — سبحانه — أبَى القسمة فى نصيبهم إلا الشِّقْوة .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا تأويلَه يومَ
يأتى تأويلُه يقول الذين نَسُوه مِنْ
قَبْلُ قد جاءت رُسُلُ ربنا بالحقِّ
فهل لنا مِنْ شفعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ
فنعمل غير الذى كُنَّا نعملُ
قد خَسِروا أنفُسَهم وضَلَّ عنهم
ما كانوا يفترون ﴾

إذا كُشِفَ جلالُ الغيب ، وانتفت عن قلوبهم أغطيةُ الرَّيْب ، فلا بكاء لهم يَنْفَع ، ولا دعاء منهم يُسْمَع ، ولا شكوى عنهم تُرْفَع ، ولا بلوى من دونهم تُقْطَع .

---

(١) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن ربَّكم اللهُ الذى خَلقَ السمواتِ
والأرضَ فى ستَّةِ أيامٍ ثم استوى
على العرشِ يُغْشِى الليلَ النهارَ يطلبه
حَثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ
مُسخرات بأمرِه ألاَ له الخلقُ والأمرُ
تبارك اللهُ ربُّ العالَمين ﴾

تعرّف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهى أفعاله ، وتعرّف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله ، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية[1] التى هى جماله وجلاله ، فشتان بين قومٍ وقوم !

ثم كما يدخل فى الظاهر الليلَ على النهار والنهارَ على الليل فكذلك يدخل القبض على البسط والبسط على القبض . ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونهار القلوب : فَمِنْ عبدٍ أحواله أجمع قبض ، ومن عبدٍ أحواله أجمع بسط ، ومن عبدٍ يكون مرة بعين القبض ومرة بعين البسط كما أن بعض أقطار العالم فيها نهار بلا ليل ، وفى بعضها ليل بلا نهار ، وفى بعضها ليل يدخل على نهار ونهار يدخل على ليل .

« ألا له الخلق والأمر » : فمنه الخير والشر ، والنفع والضر ، فإن له الخلْقَ والأمر .

« تبارك الله رب العالمين » هذه الكلمة مجمع الدعاء لاشتمالها على إفادة معنى قِدَمِه ودوامِ ثبوته من حيث يُقال بَرَكَ الطيرُ على الماء .

وأفادت معنى جلاله الذى هو استحقاقه لنعوت العزِّ لأنه قد تبارك أى تعظَّم . وأشارت إلى إسداد النِّعم وإتاحة الإحسان من حيث إن البَرَكة هى الزيادة فهى مجمع الثناء والمدح للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ ادعُوا ربَّكم تضرعا وخُفية

(١) لاحظ حرص القشيرى الشديد حين يقرر أن أقصى حالات المشاهدة لا تكون مشاهدة الذات — فقد جلت الصمدية أن يستشرف من شهود ذاتها عبد ، إنما هى مشاهدة نعوت الذات : الجمال والجلال .

إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا
في الأرض بَعْدَ إصْلاَحِهاَ وادعوه
خوفاً وطمعاً ﴾

الأمر بالدعاء إذنٌ — في التسلّي — لأرباب المحنة ، فإنهم إلى أن يصلوا إلى كشف المحنة ووجود المأمول استروحوا إلى روْح المناجاة في حال الدعاء ، والدعاء نزهةٌ لأرباب الحوائج ، وراحةٌ لأصحاب المطالبات ، ومعجل من الأُنس بما (. . . .)[1] إلى القلب عاجل التقريب . وما أخلص عبدٌ في دعائه إلا رَوَّحَ — سبحانه — في الوقت قلبَه .

ويقال علَّمهم آداب الدعاء حيث قال : « تضرعاً وخفية » وهذا أدب الدعاء ؛ أن يَدْعُوا بوصف الافتقار والانكسار ونشر الاضطرار . ومن غاية ما تقرر لديك نعت كرمه بك أنه جعل إمساكَكَ عن دعائه — الذى لابد منه — اعتداءً منك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها
وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾

من الإفساد بعد الإصلاح إهمالُ النفس عن المجاهدات بخلع عذارها حتى تتبع هواها بعدما كَبَحْتَ لجامَها مدةً عن العَدْوِ في ميدان الخلاف ، ومن ذلك إرسالُ القلب في أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة ، ومن ذلك الرجوعُ إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق ، ومن ذلك استثمارُ محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه ، ومن ذلك الجنوحُ إلى تتبع الرُّخص في طريق الطلب بعد حمل النَّفْس على ملازمة الأَوْلى والأَشَق ، ومن ذلك الانحطاطُ بحَظٍّ إلى طلبِ مقامٍ منه أو إكرام ، بعد القيام معه بترك كل نصيب .

وفي الجملة : الرجوعُ من الأعلى إلى الأدنى إفسادٌ في الأرض بعد الإصلاح .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين ﴾

يقال المحسنين عملاً والمحسنين أملاً ، فالأول العابدون والثاني العاصون[2] .

ويقال المحسن من كان حاضراً بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناسياً لحقِّه .

ويقال المحسن القائم بما يلزم من الحقوق .

---

(١) مشتبهة . (٢) تأمل كيف يفسح الصوفية صدورهم ويفتحون أبواب الأمل أمام العصاة .

ويقال المحسن الذى لم يخرج (. . . .)[1] عن إحسانه بقدر الإمكان ولو بشطر كلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو الذى يرسل الرياحَ بُشرى
بين يدى رحمته ﴾

تباشير القرب تتقدم فيتأدّى نسيمُه إلى مشام الأسرار ، وكذلك آثار الإعراض تتقدم فتوجد ظلمة القبض فى الباطن ، فظلُّ الوحشة يتقدمها ، ونسيم الوصلة بعدها ، وفى قريبٍ منه قال قائلهم :

ولقد تشمَّمْتُ القضاء لحاجتى ... فإذا له من راحتيك نسيم

قوله جل ذكره : ﴿ حتىَّ إذا أَقَلَّتْ سحاباً ثِقالاً
سُقْناه لبلدٍ ميِّتٍ فأنزلنا به الماء
فأخرجنا به مِنْ كل الثمرات كذلك
نخرج الموتى لعلكم تذكَّرون ﴾

الإشارة منه أنه يحصل بالمهجور ما يتأذى به الصدر ويُبَرِّحُ به الوجد ويَنْحلُ به الجسم ، بل يُبْطِلُ كلَّه البعدُ ، فيأتيه القُرب فيعود عود وصاله بعد الذبول طرياً ، ويصير دارس حاله عقيب السقوط نديا ، كما قال بعضهم :

كُنَّا كمن أُلْبِسَ أكفانه ... وقرِّب النعشُ من اللَّحد
فجالتْ الروحُ فى جسمه ... وردَّه الوصلُ إلى المولد

قوله جل ذكره : ﴿ والبلد الطِّيبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذن
ربِّه والذى خبُث لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً
كذلك نُصَرِّف الآياتِ لقومٍ
يشكرون ﴾

إذا زكا الأصلُ نما الفرع ، وإنْ خبُث الجوهر لم يَطبْ ما تحلَّل منه ، وإن طاب العنصر

---

(١) مشتبهة .

فالجزء يحاكى أصلَه ، والأَسِرَّةُ تدل على السريرة ، فَمَنْ صفا باطنُ قلبه زكا ظاهرُ فعله ، ومن كان بالعكس فحاله بالضد .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال
ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ
غَيْرُه ، إنى أخاف عليكم عذابَ
يوم عظيم﴾

بَلَّغَ الرسالةَ فلم ينجعْ فيهم ما أظهر من الآلاء ، لأنَّ محرومَ القسمة لا ينفعه مجهودُ الحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿قال الملأُ من قومه إنا لنراك
فى ضلال مبين * قال ياقوم ليس
بى ضلالة ولكنى رسولٌ مِنْ ربِّ
العالمين﴾

قوله « ليس بى ضلالة » : نسبوا نوحاً — عليه السلام — إلى الضلالة ، فتولىَّ إجابتهم بنفسه فقال « ياقوم ليس بى ضلالة » ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — نُسِبَ إليه فتولىَّ الحق — سبحانه — الردَّ عنه فقال : « ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى »[1] فشتّان بين مَنْ دافع عن نفسه ، وبين مَنْ دَافَع عنه ونفى عنه ربُّه[2] !

قوله جل ذكره : ﴿أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربى وأنصح لكم
وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ .

إنى أعلم أَنِّى وإنْ بالغت فى تبليغ الرسالة فمَنْ سبقت له القسمة بالشقاوة لا ينفعه نصحى ، ولا يُؤَثِّرُ فيه قولى ، فمَنْ أسقطته القسمةُ لم تنعشه النصيحة .

قوله جل ذكره : ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءكم ذِكْرٌ مِنْ ربِّكم

---

(١) آية ٢ سورة النجم .

(٢) من عادة القشيرى أن يلتمس نوعاً من المقارنة بين المصطفى صلوات الله عليه وبين سائر الأنبياء عليهم السلام ليظهر علو مقامه ورفعة مرتبته بينهم .

على رجلٍ منكم لِيُنْذِرَكُمْ ولتتقوا
ولعلكم تُرحمون ﴾

عجبوا مِنْ كوْنِ شخصٍ رسولَ اللهِ ، ولم يتعجبوا من كون الصنمِ شريكاً لله ، هذا فَرْطُ الجهالة وغاية الغباء !

قوله جل ذكره : ﴿ فكذَّبوه فأنجيناه والذين معه
فى الفُلكِ وأغرقنا الذين كذَّبوا
بآياتنا إنَّهم كانوا قوماً عَمِين ﴾

تسربلوا غِبَّ التكذيب لمَّا ذاقوا طعم العقوبة ، فلم يسعدوا بما حملوه ولم يصلوا إلى ما أمَّلوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قومِ
اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره
أفلا تتقون * قال الملأُ الذين كفروا
مِنْ قومه إنا لنراك فى سفاهةٍ
وإنَّا لنظنك من الكاذبين * قال
ياقوم ليس بى سفاهةٌ ولكنى رسولٌ
مِنْ ربِّ العالمين * أُبلغكم رسالات
ربى وأنا لكم ناصِحٌ آمين *
أَوَعجبتم أنْ جاءكم ذِكرٌ مِنْ ربِّكم
على رجلٍ منكم لينذِركم ﴾

أخبر أنهم سلكوا طريق أسلافهم وإخوانهم ، فوقعوا فى وهدتهم ، ومُنُوا بمثل حالتهم .
فلا خيرَ فيمن آثر هواه على رضاءِ الله ، ولا رَبحَ مَنْ قَدَّم هواه على حقِّ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء مِنْ بعد
قومِ نوحٍ ﴾

جعل الله الخلقَ بعضهم خَلَفاً عن بعض، فلا يُفْنِي فوجاً منهم من جنسٍ إلا أقام فوجاً منهم مِنْ ذلك الجنس . فأهل الغفلة إذا انقرضوا خَلَفَ عنهم قوم ، وأهل الوصلة إذا درجوا خلف عنهم قوم ، ولا ينبغى للعبد أن يسمو طَرْفُ[1] تأميله إلى محل الأكابر فإن ذلك المقام مشغول بأهله ، فما لم تنتهِ نوبةُ أولئك لا تنتهى النوبة إلى هؤلاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وزادكم في الخلق بَسْطَةً ﴾

كما زاد قوماً على من تقدمهم فى بسطة الخَلْقِ زاد قوماً على من تقدمهم فى بسطة الخُلُق ، وكما أوقع التفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المبانى أوقع التباين بين قوم وقوم فيما يرجع إلى المعانى .

قوله جل ذكره :﴿ فاذكروا آلاء اللهِ لعلكم تفلحون ﴾

النَّعماء عام ، والآلاء خاص ، فتلك تتضمن ترويح الظواهر ، وهـذه تتضمن التلويح فى السرائر ، تلك بالترويح بوجود المبار ، وهذه بالتلويح بشهود الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبدَ اللهَ وحدَه ونَذَرَ ما كان يعبد آباؤنا فَأْتِنا بما تَعِدنا إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادقين ﴾

طاحوا فى أودية التفرقة فلم يجدوا قراراً فى ساحات التوحيد ، فَشَقَّ عليهم الإعراضُ عن الأغيار ، وفى معناه قال قائلهم :

أراكَ بقيةً من قوم موسى ... فهم لا يصبرون على طعام

ويقال شخص لا يُخْرِجُه من غش التفرقة ، وشخص لا يحيد لحظةً عن سَنَنِ التوحيد [فهو لا يعبد إلا واحداً ، وكما لا يعبد إلا واحداً لا يشهد إلا واحداً ، قال قائلهم :

لا يهتدى قلبى إلى غيركم ... لأنه سُدَّ عليه الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ قال قد وَقَعَ عليكم مِنْ ربِّكم

(١) وردت (طرق) بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

رِجْسٌ وغَضَبٌ أتجادلونني في أسماءٍ
سَمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها
مِنْ سلطان فانتظروا إنّي معكم من
المُنتَظِرِين ﴾

إذا أرادَ اللهُ هوانَ عبدٍ طَرَحَهُ في مفازات التفرقة ؛ وإنَّ من علامات غضبه وإعراضه ردَّ العبد إلى شهود الأغيار ، وتغريقَه إياه في بحار الظنون ، إذ لا تحصيل للأغيار في معنى الإثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمةٍ منّا وقطعنا
دابِرَ الذين كَذَّبوا بآياتنا وما كانوا
مؤمنين ﴾

لا رتبةَ فوق رتبة النبوة ، ولا درجة أعلى من درجة الرسالة .

وأخبر — سبحانه — أنه نجّى هوداً برحمته ، وكذلك نجّى الذين آمنوا معه برحمته ، ليُعْلَمَ أنَّ النجاةَ لا تكون باستحقاق العمل ، وإنما تكون بابتداء فضلٍ من الله ورحمته ؛ فما نَجا مَنْ نَجا إلا بفضل الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً قال يا قوم
اعبدوا اللهَ مالكم مِنْ إلهٍ غيره
قد جاءتكم بيِّنةٌ مِنْ ربِّكم هذه
ناقةُ اللهِ لكم آيةً فذروها تأكل
في أرضِ اللهِ ولا تمسُّوها بسوءٍ
فيأخُذَكُمْ عذابٌ أليم ﴾

غاير الحقُّ — سبحانه — بين الرسل من حيث الشرائع ، وجمع بينهم في التوحيد ؛ فالشرائع(1)] التي هي العبادات مختلفة ، ولكن الكل مأمورون بالتوحيد على وجه واحد .

---

(1) كل هذه المساحة فيما بين القوسين موجودة في الهامش بخط دقيق جداً .

ثم أخبر عن إمضاءِ سُنَّتِه تعالى بإرسال الرسل عليهم السلام ، وإمهال أُمَمِهم ريثما ينظرون فى معجزات الرسل .

ثم أخبر عما دَرَجُوا عليه فى مقابلتهم الرسل بالتكذيب تسليةً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله — فيما كان يقاسى من بلاء قومه .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ جَعَلَكُم خلفاء من بعد عادٍ وَبَوَّأَكُم فى الأرضِ تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبالَ بيوتاً فاذكروا آلاءَ الله ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين ﴾

أزاح علتهم فى بسط الدلالة ، ووسع عليهم حالتهم بتمكينهم من العطايا على ما دعت إليه حالتُهم .. فلا الدليلَ تأمَّلُوه ، ولا السبيل لازموه ، ولا النعمة عرفوا قدرها ، ولا المِنَّة قدَّموا شكرها ، فصادفهم من البلاء ما أدرك أشكالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ الذين استكبروا مِنْ قومه للذين استُضْعِفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ ربِّه قالوا إنا بما أُرْسِلَ به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنَّا بالذى آمنتم به كافِرون * فعقروا الناقه وعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم وقالوا يا صالح ائْتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من المرسَلين * فأَخَذَتْهم الرَّجفةُ فأصبحوا فى دارِهم جاثمين * فتولَّى عنهم وقال يا قومِ لقد أبلغتُكم رسالةَ ربى و نصحتُ لكم ولكن لا تحبون النَّاصحين ﴾

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَه ألا يخص بأفضاله ، وجميل صنعه وإقباله — فى الغالب من عباده — إلاَّ مَنْ يسمو إليه طَرْفُه بالإجلال ، وألاَّ يوضحَ له قَدْرَه بين الأضراب والأشكال ؛ فأنصار كلِّ نبي إنما هم ضعفاء وقته ، ويلاحظهم أهل الغفلة بعين الاحتقار ، ولكن ليس الأمر كما تذهب إليه الأوهام ، ولا كما يعتقد فيهم الأنام ، بل الجواهر مستورة فى معادنها ، وقيمة المَحَالِّ بساكنيها ، قال قائلهم :

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ غمده   إذا كان عَضْباً حيث وجهته وترا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّه »[1] .

قوله تعالى : « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » الحيلة تدعو إلى وفاق الهوى ؛ فتستثقل النفْسُ قولَ الناصحين ، فيخرجون عليهم وكأن الناصحين هم العائبون ، قال قائلهم :

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحةٍ   وقد يستفيد البغضة المتنصح

قوله جل ذكره : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ ماسَبَقَكُم بها مِنْ أحَدٍ مِنَ العالمين * إنَّكُم لتأتون الرجالَ شهوةً مِنْ دون النِّساءِ بل أنتم قومٌ مُسْرِفون * وما كان جوابَ قومِه إلا أنْ قالوا أخْرِجوهم من قريتكم إنَّهم أناسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبةُ المجرمين﴾

---

(١) فى رواية الترمذى (كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك) . الجامع الصغير ص ٢٣٧

أباح الحقُّ — سبحانه — فى الشرع ما أزاح به العذر ، فمن تَخَطَّ هذا الأمر وجرى على مقتضى الهوى استقبل هوانه ، واستوجب إذلاله ، واستجلب — باختياره — صغره .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلى مدين أخاهم شُعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربِّكم فأوْفوا الكيلَ والميزان ولا تبخسوا النَّاسَ أشياءهم ولا تُفْسِدُوا فى الأرضِ بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم مؤمنين ﴾

خسَّت هِممُ قومِ شعيبٍ فقنعوا بالتطفيف فى المكيال والميزان عند معاملاتهم ، ثم إنّ الحق — سبحانه — لم يُساهِلْهم فى ذلك ليُعْلَمَ أنَّ الأقدار ليست من حيث الأخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقعدوا بكلِّ صِراطٍ توعِدون وتَصُدّون عن سبيل اللهِ مَنْ آمن به وتبغُونها عِوَجاً ﴾

من المعاصى مالا يكون لازماً لصاحبه وحدَه بل يكون متعدِّياً عنه إلى غيره . ثم بِقَدْرِ الأثر فى التعدِّى يحصل الضر المبتدىء[1]

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فَكثَّرَكُمْ وانظروا كيف كان عاقبةُ المُفْسِدِين * وإنْ كان طائفة منكم آمنوا بالذى أُرْسِلْتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا

(١) مثلما يحدث فى حالة البدعة ، فصاحب البدعة يحمل وزر ابتداعه ووزر من اقتدى به (أنظر رأى القشيرى فى كتاب التحبير تحت « البديع ») وهنا قد تكون (المبتدى) أى البادىء بالابتداع وقد تكون (المقتدى) ويقصد بها من اقتدى به ، فكلاهما يناله الضر هذا جزاء اتباعه وذاك لابتداعه .

فاصبروا حتى يحكُمَ اللهِ بيننا وهو
خير الحاكمين ﴾

مَنَّ عليهم بتكثير العدد لأن بالتناصر والتعاون تمشى الأمور ويحصل المراد .

ويقال كما أن كل أمرٍ بالأعوان والأنصار (خيراً أو شراً ، فلا نعمة فوق اتفاق الأنصار فى الخير ، ولا محنة فوق اتفاق الأعوان)[1] فى الشر .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ الذين استكبروا من قومه
لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيبُ والذين آمنوا
معك من قريتنا أوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلّتنا
قال أوَ لَوْ كُـنَّا كارهين ﴾

كما أن (أهل)[2] الخير لا يميلون إلا إلى أشكالهم فأهل الشر لا ينصرون إلا من رأوا بأنه يساعدهم على ما هم عليه من أحوالهم ، والأوحد فى بابه مَنْ بايَنَ نهج أضرابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أنْ
يشاء اللهُ ربُّنا وسِعَ ربُّنا كلَّ شىءٍ
عِلماً على الله توكَّلنا ، ربَّنا افتحْ
بيننا وبين قومنا بالحقِّ وأنت خيرُ
الفاتحين ﴾

نطقوا عن صحة عزائمهم حيث قالوا : « قد افترينا على الله كذبا إن عُدْنا فى ملتـكم » ، ثم أقروا بالشكر حيث قالوا : « بعد إذ نَّجانا الله منها » ، ثم تبرأوا عن حولْهم وقوتهم حيث قالوا : « ومايكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا » يعنى إنْ يُلْبِسنا لِبـاسَ الخذلان نُرَدُّ إلى الصغر والهوان .

ثم اشتاقوا إلى جميل التوكل فقالوا : « على الله توكَّلنا » أى به وَثِقْنا ، ومنه الخيرَ أَمَّلْنا .

---

(١) ما بين القوسين موجود فى الهامش أثبتناه فى موضعه من المتن .
(٢) وضعنا (أهل) ليتضح المعنى وهى غير موجودة فى المتن .

ثم فوضوا أمورهم إلى الله فقالوا : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » فتداركهم الحقُّ — سبحانه — عند ذلك بجميل العِصْمة وحسن الكفاية [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لَئِنْ اتبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون * فأَخَذَتْهم الرَّجْفة فأصبحوا فى دارِهم جاثمين ﴾

تواصوا فيما بينهم بتكذيب نبيِّهم ، وأشار بعضهم باستشعار وقوع الفتنة بمتابعته ، وكانوا مخطئين فى حكمهم ، مبطلين فى ظنهم ، فعُلِمَ أنَّ كل نصيحة لا يجب قبولها ، وكل إشارة [2] لا يَحْسُنُ اتباعُها .

قوله تعالى : « الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها » كانت لهم غلبتهم فى وقتهم ، ولكن لما اندرست أيامُهم سَقَطَ صِيتُهم ، و (خمد) [3] ذكرهم ، وانقشع سحابُ مَنْ تَوَهَّم أنَّ منهم شيئا .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾

الحقُّ غالِبٌ فى كل أمر ، والباطل زاهق بكل وصف ، وإذا كانت العِزَّةُ نعتَ مَنْ هو أزلىُّ الوجود ، وكان الجلال حقَّ مَنْ هو المَلِك فأى أثر للكثرة مع القدرة ؟ وأى خطر للعلل مع الأزل ؟ ولقد أنشدوا فى قريبٍ من هذا :

استقبلنى وسيفه مسلول وقال لى واحدنا معذول

قوله جل ذكره : ﴿ فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتُكم

---

(١) لاحظ من هذه الفقرة ترتيب السلوك : صحة العزم ثم الشكر ثم التبرى عن الحول والقوة ثم التوكل ثم التفويض .

(٢) إشارة هنا معناها مشورة أى نصيحة .

(٣) وردت (خمر) بالراء ، وقد صوبناها (خمد) ذكرهم وليس بمستبعد أن تكون (خمل) ذكرهم فخمود الذكر وخموله بمعنى متقارب .

رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم فكيف
آسَى[1] على قومٍ كافرين ﴾

بَيَّنَ أنه راعى حدَّ الأمر ؛ فإذا خرج عن عهدة التكليف فى التبليغ فما عليه من إقرارهم أو إنكارهم ، من توحيدهم أو جحودهم ؛ إنْ أحسنوا فالميراثُ الجميلُ لهم ، وإن أساءوا فالضررُ بالتألم عائدٌ عليهم ، ومَالِكُ الأعيان أوْلى بها من الأغيار ، فالخَلْقُ خَلْقُه والمُلْكُ مُلْكُه ؛ إن شاء هداهم ، وإن شاء أغواهم ، فلا تأسَّفَ على نفيٍ وفقد ، ولا أثر من كَوْنٍ ووجود[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ مِنْ نبيٍّ
إلاَّ أَخَذْنَا أهلَها بالبأساءِ والضَّراءِ
لعلَّهم يضَّرَّعون * ثُمَّ بَدَّلْنَا
مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوْا
وقالوا قدمَسَّ آباءنا الضراء والسَّراء
فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

حرَّكهم بالبلاء الأهْوَنِ تحذيراً من البلاء الأصعب ، فإذا تمادوا فى غيهم ، ولم ينتبهوا من غفلتهم مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراجِ ، ووسَّع عليهم أسبابَ التفرقة مكراً بهم فى الحال ، فإذا وَطَّنُوا — على مساعدة الدنيا — قلوبَهم ، وركنوا إلى ما سوَّلت لهم من امتدادها ، أبرز لهم من مكامن التقدير ما نَغَّصَ عليهم طيبَ الحياة ، واندق بغتةً عُنُقُ السرور ، وشَرِقُوا بما كانوا ينهلون من كاسات المنى ، فتبدَّل ضياء نهارهم بِسُدْفَةِ الوحشة ، وتكدَّر صافى مشربهم بيد النوائب ، كما سبقت به القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو أنَّ أهل القُرى آمنوا واتقوا

---

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبها (عسى) بالعين .

(٢) ربما كان (ووَجْد) فالوجد يقابل الفقد ، ولكن حيث هو هنا لا يتحدث عن طائفة الصوفية ، وإنما يتحدث عموماً ، فالوجود مرادف للكون .

لفتحنا عليهم بركاتٍ منَ السماء
والأرضِ ، ولكن كذَّبوا فأخذناهم
بما كانوا يكسبون * أفأمِنَ أهلُ
القُرى أن يأتيَهم بأسُنا بياتاً
وهم نائمون ﴾

او آمنوا بالله ، واتَّقُوا الشِرْكَ لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض بأسبابِ العطاء — ولكن[1] سَبَقَ بخلافه القضاء — وأبوابِ الرضاء ، والرضاء أتمُّ من العطاء .

ويقال ليست العِبْرة بالنعمة إنما العبرة بالبركة فى النعمة ، ولذا لم يَقلْ أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال : باركنا لهم فيما خوَّلنا .

قوله جل ذكره : ﴿أوَ أمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيَهم
بأسُنا ضُحًى وهم يلعبون ﴾

أكثر ما ينزل البلاء ينزل فجأةً على غفلةٍ من أهله ، ويقال مَنْ حَذِرَ البيات لم يجدْ روحَ الرُّقاد .

ويقال رُبَّ ليلةٍ مُفْتَتَحةٍ بالفَرَحِ مختتمةٌ (بالترح)[2] . ويقال رُبَّ يومٍ تطلع شمسه من أوج السعادة قامت ظهيرته على قيام الفتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ أفأمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرون ﴾

يقال مَنْ عرفَ علوَّ قدره — سبحانه — خشى خفيَّ مكره ، ومَنْ أمِنَ خفيَّ مكره نَسِيَ عظيم قَدْرِه .

قوله جل ذكره : ﴿أوَ لَمْ يَهْدِ للذين يرِثون الأرضَ

---

(١) وردت (وإن سبق . . .) وعند ذلك يضطرب السياق فوجدنا ان الأوفق ان تكون (ولكن سبق . . .) لأنهم فى الآية كذبوا . . ، ثم وضعنا الجملة المبدوءة بلكن بين علامتى جملة اعتراضية ، فانتظم السياق ، ونرجح ان ما صنعناه قريب من الأصل او هو الأصل .
(٢) وردت (بالطرح) بالطاء ، وهى خطأ من الناسخ فالترح ضد الفرح .

مِنْ بعدِ أهلِهَا أَنْ لو نشاءُ أَصَبْنَاهُمْ
بذنوبِهِم ونطبعُ على قلوبِهِم فَهُمْ
لا يَسْمعون ﴾

أَوَ لا يعلم المغترون بطول سترنا أَنْ لو أردنا لعجَّلنا لهم الانتقام ، أو بلغنا فيهم الاصطلام ، ثم لا ينفعهم ندم ، ولا يُشكى عنهم ألم .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك القرى نَقُصُّ عليكَ مِنْ
أنبائِهـا ولَقَدْ جاءَتْهم رُسُلُهم
بالبَيِّناتِ فما كانوا ليؤمِنـوا
بما كَذَّبوا مِنْ قبلُ كذلك يطبع
اللهُ على قلوبِ الكافرين ﴾

سلـكوا طريقاً واحداً فى التمرد ، واجتمعوا فى خطٍ واحد فى الجحد والتَّبَلُّد ؛ فلا للايمان جَنَحُوا ، ولا عن العدوان رجعوا ، وكذلك صفة من سَبَقَتْ بالشقاءِ قِسمتُه ، وحقت بالعذاب عليه كَلِمتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما وجدنا لأكثرِهم مِنْ عَهْدٍ
وإنْ وَجدْنا أكثرَهم لفاسقين ﴾

نجم فى الغدر طارِقُهم ، وأفَلَ من سماء الوفاء شارِقُهم ، فَعَدِمَ أكثرُهم رعاية العهد ، وحقت من الحق لهم قسمة الرد والصد .

ويقال : شـكا مِنْ أكثرِهم إلى أقلِّهم ، فالأكثرون مَنْ ردَّتْهم القسمة ، والأقلون مَنْ قَبِلَتْهم الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا
إلى فرعونَ وملأه فظلموا بها فانظر
كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾

لـما انقرضت أيامُهم ، وتقاصر عن بساط الإجابة إقدامُهم[1] بعث موسى نبيَّه ، وضمَّ

---

(١) ويجوز أن تكون (أقدامهم) فالقشيرى يستعمل وطء القَدَم للبساط كثيراً

إليه هارون صفيَّه ، فقُوبِلا بالتكذيب والجحود ، فسلك بهم مسلك إخوانهم في التعذيب والتبعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنى رسولٌ من ربِّ العالمين * حقيقٌ عَلَى ألا أقولَ على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربِّكم فأرسِلْ معى بنى إسرائيل * قال إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إنْ كُنْتَ مِنَ الصادقين ﴾

الرجوعُ إلى دعاء فرعون إلى الله بعد سماع كلام الله بلا واسطة صعبٌ شديد ، ولكنه لمَّا وَرَدَ الأمرُ قابله بحسن القبول ، فلما ترك اختيار نفسه أيّده الحق — سبحانه — بنور التأييد حتى شاهَدَ فرعونَ محواً في التقدير فقال : « حقيقٌ عَلَى ألا أقول على الله إلا الحق » فإذا لم يصح له أن يقول على الخلق ، فالخلق محوٌ فيما هو الوجود الأزلى فأىُّ سلطانٍ لآثار التفرقة في حقائق الجمع ؟

قوله : « قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين » : من المعلوم أن مجرَّد الدعوى لاحجة فيه ، ولكن إذا ظهر برهانٌ لم يبق غيرُ الانقياد لِماَ هو الحق ، فمَنْ استسلم (. . . .)[1] ، ومَنْ جَحَدَ الحقائق بعد لوح البيان سقط سقوطاً لا ينتعش .

قوله جل ذكره : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبينٌ ﴾

إنما أظهر له المعجزةَ مِنْ عَصاَه لطولِ (مقارنته)[2] إياها ، فالإنسانُ إلى ما ألِفَه أسْكَنُ بقلبه . فلَّما رأى ما ظهر في العصا من الانقلاب أخذ موسى عليه السلام في الفرار لتحققه بأن ذلك من قهر الحقائق ، وفى هذا إشارة إلى أنَّ السكونَ إلى شىءٍ غِرَّةٌ وغفلةٌ (إيش)[3]

---

(١) لابد ان كلمة هنا سقطت من الناسخ مثل (سلم) او (نجا) او نحوهما .

(٢) (مقارنته) هنا معناها مصاحبته لها بدليل قوله فيما بعد (إلى ما ألِفَه) .

(٣) (إيش) هذه كلمة دارجة استعملها القشيرى كثيراً فى رسالته ومعناها (اى شىء) .

ما كان ، فإنَّ تقلب العبد فى قَبْضِ القدرة ، وهو فى أَسْر التقلُّب ، وليس للطمع فى الكوْن مساغٌ بحال .

قوله جل ذكره : ﴿ ونزَعَ يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾

العصا — وإنْ كانت معه من زمنٍ — فيَدُه أخصُّ به لأنها عضو له ، فكاشَفَه أولاً[1] برَسْمٍ مِنْ رسْمِه ثم أشهده من ذاته فى ذاته ما عرَفَ أنه أوْلى به منه ، فلما رأى انقلابَ وصفٍ فى يده عَلِمَ أنه ليس بشىء من أمره بيده .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الملأُ من قومِ فرعونَ إنَّ هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾

إذا أراد الله هوان عبدٍ لا يزيد الحقّ حُجّةً إلا ويزيد لذلك المُبْطِل فيه شبهةً ؛ فكلّما زاد موسى — عليه السلام — فى إظهار المعجزات ازدادوا حيرةً فى التأويلات .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أَرْجِه وأخاه وأرْسِلْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾ .

توَهَّمَ الناسُ أنهم بالتأخير ، وتقديم التدبير ، وبذل الجهد والتشمير يُغَيِّرون شيئاً من التقدير بالتقديم أو بالتأخير ، ولم يعلموا أن القضاء غالبٌ ، وأنَّ الحكمَ سابقٌ ، وعند حلول الحكم فلا سلطانَ للعلم والفهم ، والتسرع[2] والحِلْم . كلا ، بل هو الله الواحد القهار العلاَّم .

---

(1) فى هذه الإشارة نلحظ تأثر القشيرى بالمكاشفة ، فالحق سبحانه يتجلى للعبد اولا بنعت من نعوت صفاته ثم يتجلى له بنعت من نعوت ذاته .

(2) وردت (التشرع) حيث التبست علامة التضعيف التى على السين على الناسخ ، والتسرع مقبول فى السياق لأنه يقابل الحلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاء السَّحَرَةُ فِرعونَ قالوا إن
لنا لأجراً إن كُنَّا نحن الغالبين *
قال : نَعَمْ وإنكم لَمِنَ المقربين *
قالوا يا موسى إما أن تُلْقِيَ وإمَّا أن
نكون نحن المُلْقِين * قال أَلْقُوا
فلما أَلْقَوْا سحروا أعين النَّاسِ
واسترهبوهم وجاءوا بِسَحْرٍ عظيم ﴾

ظنوا أنهم يَغلِبُون بما يسحرون ، ولم يعلموا أن تأثير القدرة فيهم أغلب من تأثيرسحرهم، وأنه لا يرد عنهم ما زَوَّرُوه فى أنفسهم من فنون مكرهم فكادوا وكِيدَ لهم ، فهو كما قيل :

ورمانى بأسهم صائباتٍ وتعمدته بسهم فطاشا

فبَيْنَاهم فى توهم أنَّ الغلبة لهم فُتِحَ عليهم — من مكامن القدرة — جيشٌ ، فوجدوا أنفسهم — فى فتح القدرة — مقهورين بسيف المشيئة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأوحينا إلى موسى أَنْ أَلقِ عَصَاك
فإذا هى تلقَفُ ما يأفِكونَ *
فوَقَعَ الحقُّ وبَطَلَ ما كانوا يعملون*
فغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين *
وأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا
آمَنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى
وهارون ﴾

مَوَّهُوا بسحرهم أنهم غَلَبُوا ، فَأَدْخَلَ الله — سبحانه — على تمويهاتهم قهرَ الحق ، وطاشت تلك الحِيَلُ ، وخاب منهم الأمل ، وجذب الحقُّ — سبحانه — أسرارهم على الوهلة فأصبحوا فى صدر المداوة ، وكانوا — فى التحقيق — من أهل الود . فسبحان مَنْ يُبْرِز

العدوَّ فى نعت الولى ؛ ثم يقلب الكتابَ ويُظْهِرُ الولىَّ فى نعت العدو ، ثم يأبى الحالُ إلا حصولَ المَقْضِىِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ قال فرعون ءامَنْتُم به قبل أنْ آذنَ لكم إنَّ هذا لَمَكرٌ مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأُقَطِّعنّ أيديَكم وأرجلَكم[1] مِنْ خِلافٍ ثم لأُصَلِّبنكم أجمعين ﴾

خاطبَهم معتقداً أنهم هم الذين كانوا[2] ، وهم يعلمون أن تلك الأسرار قد خرجت عن رِقِّ الأشكال ، وأن قلوبهم طهرت عن توهم التفرقة ، وأن شمسَ العرفان طلعت فى سماءِ أسرارهم ، فأشهدوا الحقَّ بنظر صحيح ، ولم يبقَ لتخويفات النفس فيهم سلطان ، ولا لشىء من العلل بينهم مساغ .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا إنَّا إلى ربِّنا مُنْقَلِبون ﴾

لمَّا كان مصيرهم إلى الله سَهُلَ عليهم ما لقوا فى مَسيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وما تَنْقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءتْنا ، ربَّنا أفْرِغْ علينا صَبْراً وتَوفَّنا مُسْلمين ﴾

لما عَمِلُوا لله ، وأوذوا فى الله ، صدقوا القصد إلى الله ، وطلبوا المعونة من قِبَلِ الله ، كذا سُنَّةُ مَنْ كان لله أن يكون كلُّه على الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الملأ من قومِ فرعون أتَذَرُ موسى وقومَه ليُفْسِدوا فى الأرضِ ويذَرَكَ وآلهتَكَ ، قال سَنُقَتِّل

(١) اخطأ الناسخ إذ كتبهما (ايديهم وارجلهم) .

(٢) نعرف من عبارات القشيرى : « كانوا لكنهم بانوا » و « العارف كائن بائن » .

أبناءهم و نَسْتَحْيِي نساءهم وإنا فوقهم
قاهِرون ﴾

لما استزادوا من فرعون فى التمكين من موسى وقومه استنكف أن يقر بعجزه ، ويعترف بقصور قدرته ، فتوعد موسى وقومَه بما عكس الله عليه تدبيره ، وغلب عليه تقديره.

قوله جل ذكره : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله
واصبروا إنَّ الأرضَ لله يورِثُها مَنْ
يشاء مِنْ عباده والعاقبةُ للمتقين ﴾

أحالهم على الله فإن رجوعَه إليه ، فقال لهم : إن رجوعى — عند تحيرى فى أمورى — إلى ربى ، فليكن رجوعُكم إليه ، وتوكَّلكم عليه ، وتَعَرَّضوا لنفحات يُسْرِه ، فإنه حَكَمَ لأهل الصبر بجميل العُقبى .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أُوذِينا مِنْ قبلِ أَنْ تأتِيَناَ ومِنْ
بعدِ ما جِئْتنا قال عسى ربكُم أَنْ
يُهْلِكَ عَدوَّكم ويستخلفكم فى الأرضِ
فينظرَ كيف تعملون ﴾

خفى عليهم شهودُ الحقيقة ، وغُشِيَ على أبصارهم حتى قالوا توالت علينا البلايا ؛ ففى حالك بلاء ، وقبْلكَ شقاء .. فما الفضل ؟ فأجابهم موسى — عليه السلام — بما علق رجاءهم بكشف البلاء فقال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فوقفهم على الانتظار . ومن شهد ببصر الأسرار شهد تصاريف الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أَخَذْنَا آلَ فرعونَ بالسِّنينَ
ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذَّكرون ﴾

شدَّد عليهم وطأة القدرة بعدما ضاعف لديهم أسباب النعمة ، فلا الوطأة أصلحتهم شدَّتُها ولا النعمة نبهتهم كثرتها ، لا بل إنْ مَسَّهم يُسْرٌ لاحظوه بعين الاستحقاق ، وإن مَسَّهم عُسْرٌ حملوه على التَّطَيُّرِ بموسى — عليه السلام — بمقتضى الاغترار .

قوله جل ذكره: ﴿فإذا جاءتهم الحسنةُ قالوا لنا هذه وإنْ تُصِبْهُم سيئة يَطَّيَّرُوا بموسى ومَنْ معه﴾

الكفورُ لا يرى فضل المنعم، فيلاحظ الإحسان بعين الاستحقاق، ثم إذا اتصل به شيء مما يكرهه تجنَّي وحمل الأمر على ما يتمنّي:

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعة ... ملَّ الوصال وقال كان وكانا
إن الكريم إذا حَبَاك بودِّه ... سَتَرَ القبيح وأظهر الإحسانا

قوله جل ذكره: ﴿ألا إنما طائرُهم عند اللهِ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون﴾

المتفرد بالإيجاد هو الواحد ولكن بصائرهم مسدودة، وعقولهم عن شهود الحقيقة مصدودة، وأفهامهم عن إدراك المعانى مردودة.

قوله جل ذكرهُ: ﴿وقالوا مهما تأتِنا به مِنْ[1] آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾

جعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم، وهتكوا بألسنتهم — فى العتوِّ — أستارهم.

قوله جل ذكرة: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾

جَنَّسَ عليهم العقوباتِ لمَّا نوَّعوا وجَنَّسوا فنونَ المخالفات، فلا إلى التكفير عادوا، ولا إلى التطهير تصدوا، وعوقبوا بِصَرْفِ قلوبهم عن شهود الحقائق

---

(١) سقطت (من) فى النسخ فأثبتناها.

وذلك أبلغُ مما اتصل بظواهرهم من فنون البلايا . . . . ونعوذُ بالله من السقوط عن عين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا وقع عليهم الرِّجزُ قالوا ياموسى ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِد عندَك لئن كَشَفْتَ عنَّا الرِّجْزَ لنؤْمِنَنَّ لك ولنُرْسِلنَّ معك بنى اسرائيل ﴾

لم يقولوا ادع لنا ربَّنا ، بل قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك ، فهم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلا بعداً وأجنبية .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هُمْ ينكثُون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾

أبرموا العهد ثم نقضوه ، وقدموا العهد ثم رفضوه ، وكما قيل :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسه
والشيخُ لا يترك أخلاقَه حتى يُوارى فى ثرى رمسه

قوله جل ذكره : ﴿ وَأورثنا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُون مشارِقَ الأرض ومغارِبَها التى باركنا فيها وتمَّتْ كلمةُ ربِّكَ الحُسْنى على بنى اسرائيل بما صَبَرُوا ودَمَّرْنا ما كان يَصْنَعُ فرعونُ وقومُه وما كانوا يَعْرِشون ﴾

مَنْ صبر على مقاساة الذُّلِّ فى الله وضع الله على رأسه قلنسوة العرفان ، فهو العزيز سبحانه ، لا يُشْمِتُ بأوليائه أعداءهم ، ولا يضيع من جميل عهده جزاءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحرَ

﴿فَأَتَوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لَهُم آلِهةٌ ، قال إنَّكم قومٌ تجهلون * إنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطِلٌ ما كانوا يعملون﴾

لم تَخْلُصْ فى قلوبهم حقائقُ التوحيد فتاقت نفوسهم إلى عبادة غير الله ، حتى قالو لنبيِّهم موسى — عليه السلام — : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وكذا صفة من لم يتحرر قلبُه من إثبات الأشغال والأعلال ، ومن المساكنة إلى الأشكال والأمثال .

ويقال مَنْ اِبتغى بالصنم أن يكون معبودَه متى يُتَوَهَّم فى وصفِه أنْ يُخلِصَ إلى اللهِ قصودَه ؟

قوله جل ذكره : ﴿قال أغيرَ الله أبغيكم إلٰهاً وهو فَضَّلكم على العالمين﴾

ذكَّرهم انفرادَه — سبحانه — بإنشائهم وإبداعهم ، وأنه هو الإله المتفرد بالايجاد ، ونَبَّهَهُم أيضاً على عظيم نعمته عليهم ، وأنه ليس حقٌّ إتمام النعمة عليهم مقابلتَهم إياها بالتولِّى لغيره والعبادة لِمَنْ سواه .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ أنجاكم مِنْ آلِ فرعون يسومونكم سوءَ العذابِ يُقَتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاءٌ مِنْ ربِّكم عظيم﴾

ما ازداد موسى — عليه السلام — فى تعديد إنعام الله عليهم ، وتنبيهم على عظيم آلائه إلا ازدادوا جحداً على جحد ، وبُعْداً بالقلوب — عن محل العرفان — على بُعْد ، وهذه أمارة من بلاه — سبحانه — فى السابق بالقطع والرد .

قوله جل ذكره : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة

وأَتْممْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ ميقاتُ ربِّه
أربعين ليلة ﴾

عِدَةُ الأحباب عزيزة ، فإذا حصلت المواعدة بين الأحباب ، فهى عذبة حلوة كيفما كانت ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

أمطلينـا وسَوِّفى وعِدِينـا ولا تَفِى

ويقال عَلَّلَ الحقُّ — سبحانه — موسى بالوعد الذى وعده بأن يُسْمِعَه مرةً أخرى كلامَه ، وذلك أنه فى المرة الأولى ابتلاه بالإسماع من غير وعد ، فلا انتظار ولا توقع ولا أمل ، فأُخذ سماعُ الخطاب بمجامع قلب موسى — عليه السلام — فعلَّق قلبه بالميقات المعلوم ليكون تأميله تعليلاً له ، ثم إن وعد الحقِّ لا يكون إلا صدقاً ، فاطمأن قلبُ موسى — عليه السلام — للميعاد ، ثم لمَّـا مضت ثلاثون ليلة أتى كما سَلَفَ الوعد فزاد له عشراً فى الموعد . والمطل فى الإنجاز غير محبوب إلا فى سُنَّةُ الأحباب ، فإن المطل عندهم أشهى من الإنجاز ، وفى قريب من هذا المعنى أنشدوا :

أقيمى لعمرك لا تهجرينا ومَنِّيناً المنى ، ثم امطلينا
عِدينا موعداً ما شِئْتِ إنَّا نحبُّ وإنْ مطلت تواعدينا
فإما تنجزى وعدَكِ أو فإنا نعيش نؤمل فيك حينا

قوله جل ذكره : ﴿ وقال موسى لأخيـه هٰرون اخْلُفْنى فى قومى وأَصْلِحْ ولا تَتَّبِـعْ سبيلَ المُفسدين ﴾

كان هارون — عليه السلام — حمولاً بحسن الخُلُق ؛ لمَّـا كان المرورُ إلى فرعونَ استصحب موسى — عليه السلام — هارونَ ، فقال الله — سبحانه — : « أشركه فى أمرى » بعد ما قال : « أخى هارون هو أفصح منى لساناً » . ولمَّـا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه ، فقال : « اخلُفنى فى قومى » وهذا غاية تَحْملٍ من هارون ونهاية التصبر والرضاء ، فلم يَقُلْ : لا أقيم فى قومك . ولم يقل : هلَّا تحملنى مع نفسك كما

استصحبتنى حال المرور إلى فرعون ؟ بل صبر ورضى بما لزم ، وهذه من شديدات بلاء الأحباب ، وفى قريب منه أنشدوا :

قال لى من أحب والبين قد حلَّ وفاقاً لزفرتى وشهيقى :
ما تُرى فى الطريق تصنع بعدى قلت : أبكى عليك طول الطريق

ثم إن موسى لمـا رجع من سماع الخطاب ، فرأى من قومه ما رأى من عبادة العِجْل أخذ برأس أخيه يجره إليه حتى استلطفه هارون — عليه السلام — فى الخطاب ، فقال : « يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » .

ويقال لو قال هارون — عليه السلام : إن لم تعوضنى عما فاتنى من الصحبة فلا تعاتبنى فيما لم أذنب فيه بحال ذرةً ولا حبَّةً .. لـكان موضع هذه القالة .

ويقال الذنبُ كان من بنى إسرائيل ، والعتاب جرى مع هارون ، وكذا الحديث والقصة ، فما كلُّ مَنْ عصى وجنى استوجب العتابَ ، فالعتابُ ممنوعٌ عن الأجانب .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أرِنى أنْظُرْ إليكَ ، قال لن ترانى ولـكن انظُرْ إلى الجَبَلِ فإنْ استقرَّ مكانه فسوف ترانى ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبلِ جعله دَّكاً وخرَّ موسى صَعِقاً ﴾

جاء موسى مجىء المشتاقين مجىء المُهيَّمين ، جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يَبْقَ من موسى شىء لموسى . آلافُ الرجال قطعوا مسافاتٍ طويلة فلم يذكرهم أحد ، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأُ الصبيان : « ولمـا جاء موسى »

ويقال لمَّـا جاء موسى لميقاتِ باسطِ الحقِّ — سبحانه — سقط بسماع الخطاب ، فلم يتمالك حتى قال : « أرنى أنظر إليك » ، فإنَّ غَلَباتِ الوجد عليه استنطقته بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دَنَتْ الخيامُ من الخيـام

ويقال صار موسى — عليه السلام — عند سماع الخطاب بعين السُّكْر فنطق ما نطق ، والسكران لا يُؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس فى نص الكتاب معه عتاب بحرف ؟

ويقال أخذته عِزَّةُ السَّماعِ فخرج لسانه[1] عن طاعته جرياً على مقتضى ما صحبه مِنَ الأَرْيَحِيَّةِ وبَسْطِ الوصلة .

ويقال جمع موسى — عليه السلام — كلماتٍ كثيرةً يتكلم بها فى تلك الحالة ؛ فإن فى القصص أنه كان يتحمل فى أيام الوعد كلمات الحق ، ويقول لمعارفه : ألكم حاجة إلى الله ؟ ألكم كلام معه ؟ فإنى أريد أن أمضى إلى مناجاته .

ثم إنه لما جاء وسمع الخطاب لم يذكر — مما دبَّره فى نفسه ، وتحمله من قومه ، وجمعه فى قلبه — شيئاً ولا حرفاً ، بل نطق بما صار فى الوقت غالباً على قلبه ، فقال : ربِّ : أرِنى أنظر إليك ، وفى معناه أنشدوا :

فيا ليلَ كم من حاجةٍ لى مهمة إذا جئتُكم ليلى فلم أدرِ ماهيا

ويقال أشدُّ الخلقِ شوقاً إلى الحبيب أقربُهم من الحبيب ؛ هذا موسى عليه السلام ، وكان عريق الوصلة ، واقفاً فى محل المناجاة ، محدقة به سجوفُ التولى ، غالبة عليه بوادِهُ الوجود ، ثم فى عين ذلك كان يقول : « ربِّ أرنى أنظر إليك » كأنه غائبٌ عن الحقيقة . ولكن ما ازداد القومُ شَرْباً إلا ازدادوا عطشاً ، ولا ازدادوا تباً إلا ازدادوا شوقاً ، لأنه لا سبيل إلى الوصلة إلا بالكمال ، والحقُّ — سبحانه — يصونُ أسرار أصفيائه عن مداخلة الملال[2] .

ويقال نطق موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال : « ربِّ أرنى أنظر إليك » ولأقلَّ

---

(١) تعليل القشيرى لموقف الإفصاح الذى وقفه موسى يوضح كيف يلتمس هذا الباحث مبررا لشطحات الصوفية — بطريق غير مباشر ، ويعزو ذلك تارة للسكر الروحى وتارة لوقوع العبد تحت تأثير العزة الإلهية ، فيخرج اللسان عن طاعته .

(٢) وفى ذلك أنشدوا :

فما مل ساقينا وما مل شارب عقار لحاظ كأسه يسلب اللبا

من نظرة — والعبد قتيل هذه القصة — فقوبل بالردِّ ، وقيل له : « لن ترانى » وكذا قهر الأحباب ولذا قال قائلهم :

جَوْرُ الهوى أحسن من عَدْلِه وبخله أظرف من بذله

ويقال لمَّا صرَّح بسؤال الرؤية ، وجهر صريحاً رُدَّ صريحاً فقيل له : « لن ترانى » ، ولما قال نبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — بِسِرِّه فى هذا الباب ، وأشار إلى السماء منتظراً الرد والجواب من حيث الرمز نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها »[1] فردَّه إلى شهود الجهات والأطلال إشارة إلى أنه أعزُّ من أن يطمح إلى شهوده — اليومَ — طَرْفٌ ، بل الألحاظ مصروفة موقوفة — اليومَ — على الأغيار[2] .

ويقال لما سَمَتْ همَّتُه إلى أسنى المطالب — وهى الرؤية — قوبل « بِلَنْ » ، ولمَّا رجعَ إلى الخلْق وقال للخضر « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَني مما علمت رشدا » ، قال الخضر : « إنك لن تستطيع معى صبراً »[3] فقابله بلن ، فصار الردُّ موقوفاً على موسى — عليه السلام من الحق ومن الخلْق ، ليكون موسى بلا موسى ، ويكون موسى صافيا عن كل نصيب لموسى من موسى ، وفى قريب منه أنشدوا :

(. . . . . .)[4] نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البيْن فينـا ينعق

ويقال طلب موسى الرؤية وهو بوصف التفرقة فقال : « ربِّ أرنى أنظر إليك » فأجيب بلن لأن عين الجمع أتم من عين الفَرْق . فزع موسى حتى خَرَّ صعقاً ، والجبل صار دَكّاً . ثم الروْح بعد وقوع الصعقة على القالب مكاشفته بما هو حقائق الأحدية ، ويكون الحقُّ — بعد امتحاء معالم موسى — خيراً لموسى من بقاء موسى لموسى ، فعلى الحقيقة : شهود الحقائق بالحقِّ أتمُّ من بقاء الخلْق بالخلْق ، كذا قال قائلهم :

---

(١) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٢) من هذا — ومما أوضحه فى رسالته — نعرف أن القشيرى لا يرى بجواز رؤيه الله بالبصر فى هذه الدنيا .

(٣) آية ٦٧ سورة الكهف .

(٤) هنا لفظتان مطموستان ونعرف أنهما «أبنى أبينا ...» .

ولوجهها من وجهها قمرٌ ولعينها من عينها كحل

ويقال البلاء الذى ورد على موسى بقوله : « فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى » « ولما تجلَّى ربُّه للجبل جعله دَكّاً » أتمُّ وأعظم منه قولُه : « لن ترانى » لأن ذلك صريحٌ فى الرد ، وفى اليأس راحة . لكنَّه لما قال فسوف أطْمعُهُ فيما مُنِعه فلما اشتد موقفُه جعل الجبل دكاً ، وكان قادراً على إمساك الجَبَل ، لكنه قهر الأحباب الذى به جرَتْ سُنَّتُهم .

ويقال فى قوله : « أنظُرْ إلى الجبل » بلاء شديد لموسى لأنه نُفِيَ عن رؤية مقصوده ومُنِيَ برؤية الجبل ، ولو أُذِنَ له أنْ يُغمِضَ جفنَه فلا ينظر إلى شىء بعدما بقى عن مراده من رؤيته لكان الأمرُ أسهلَ عليه ، ولكنه قال له : « لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل » .

ثم أشدُّ من ذلك أنه أعطى الجبل التَّجلىَ ؛ فالجبل رآه وموسى لم يَرَه ، ثم أَمَرَ موسى بالنظر إلى الجبل الذى قدم عليه فى هذا السؤال ، وهذا — والله — لصعبٌ شديد !! ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر إليك فإذا لم أرَكَ لا أنظر إلى غيرك بل قال : لا أرفع بصرى عما أمرتنى بأن أنظر إليه ، وفى معناه أنشدوا :

أريدُ وصالَه ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

ويقال بل الحق سبحانه أراد بقوله : « ولكن انظر إلى الجبل » تداركَه قلبَ موسى — عليه السلام — حيث لم يتركه على صريح الرد بل علله برفق كما قيل :

فذرينى أفنى قليلا قليلا

ويقال لما رُدَّ موسى إلى حال الصحو وأفاق رجع إلى رأس الأمر فقال : « تُبْتُ إليك » يعنى إن لم تكن الرؤية هى غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فَقَبِلَه — تعالى — لسمو همته إلى الرتبة العلية .

قوله جل ذكره : ﴿ تُبْتُ إليك ﴾

هذه إناخة بعقوة العبودية ، وشرط الإنصاف ألا تبرحَ محلَّ الخدمة وإنْ حيل بينك وبين وجود القربة ؛ لأن القربةَ حظُّ نفسك ، والخدمةَ حقُّ ربك ، وهى تتم بألا تكون بحظ نفسك .

قوله جل ذكره: ﴿قال يا موسى إنى اصطفيتكَ على النَّاسِ برسالاتى وبكلامى فَخُذْ ما آتيْتُكَ وكُنْ مِنْ الشاكرين﴾

هذا الخطاب لِتَدَارُكِ قلب موسى — عليه السلام — بكل هذا الرِّفق، كأنه قال: يا موسى، إنى منعتُكَ عن شيء واحد وهو الرؤية، ولكنى خصصتُك بكثيرٍ من الفضائل؛ اصطفيتُك بالرسالة، وأكرمتُك بشرف الحالة، فاشكرْ هذه الجملة، واعرفْ هذه النعمة، وكنْ من الشاكرين، ولا تتعرضْ لمقام الشكوى، وفى معناه أنشدوا:

إنْ أعرضوا فهم الذين تَعَطَّفُوا وإنْ جَنَوْا فاصبرْ لهم إن أخلفوا

وفى قوله سبحانه: «وكن من الشاكرين» إشارة لطيفة كأنه قال: لا تكن من الشاكين، أى إنْ منعتُكَ عن سُؤْلِك، ولم أُعْطِك مطلوبَك فلا تَشْكُنِى إذا انصرفتَ.

قوله جل ذكره: ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شىءٍ﴾

وفى الأثر: أن موسى عليه السلام كان يسمع صريرَ القلم، وفى هذا نوع لطف لأنه إنْ منع منه النظر أو منعه من النظر فقد علله بالأثر[1].

قوله جل ذكره: ﴿فَخُذْها بقوة﴾

فيه إشارة إلى أن الأَخْذَ يُشير إلى غاية القرْبِ، والمراد هاهنا صفاء الحال، لأن قربَ المكانِ لا يَصِحُّ على الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأْمُرْ قومَك يأخذوا بأحسنها﴾

فَرْقٌ بين ما أمر به موسى من الأخذ وبين ما أمره أن يأمر به قومه من الأخذ، أَخْذُ موسى عليه السلام من الحق على وجهٍ من تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأَخْذُهم أخذُ قبولٍ من حيث التزام الطاعة، وشتان ما هما!.

(١) نلاحظ أن القشيرى كان ممتعاً أشد ما يكون الإمتاع حين استغل موقف شهود موسى استغلالا جميلا أوشك أن يحيط بكل جوانب هذه اللحظات الحاسمة فى الحياة الروحية، فاجتمعت إشاراته لتكون درساً فى غاية الدقة والإفادة.

قوله : « بأحسنها » يعني بِحُسْنِها ، ويحتمل أن تكون الهمزة للمبالغة يعنى : بأحسنها ألا تعرِّج على تأويل وارجعْ إلى الأَوْلَى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ سأُرِيكم دار الفاسقين ﴾

يعنى عليها غَبَرةُ العقوبة ، خاوية على عروشها ، ساقطة على سقوفها ، مُنْهَدٌّ بنيانُها ، عليها قَتَرَةُ العِقاب .

والإشارة من دار الفاسقين إلى النُّفوس المتابعة للشهوات ، والقلوب التى هى معادن المنى وفاسد الخطرات ، فإنَّ الفِسقَ يوجب خرابَ المحل الذى يجرى فيه ؛ فمن جرى على نفسه فِسْقٌ خربت نفسه . وآية خراب النفوس انتفاء ما كان عليها وفيها من سكان الطاعات ، فكما تتعطل المنازل عن قطانها إذا تداعت للخراب فكذلك إذا خربت النفوس بعمل المعاصى فتنتفى عنها لوازم الطاعات ومعتادها ، فبعد ما كان العبد يتيسر عليه فعل الطاعات لو ارتكب شيئاً من المحظورات يشق عليه فعل العبادة ، حتى لو خُيِّر بين ركعتى صلاة وبين مقاساة كثيرٍ من المشاق آثر تحمل المشاقِّ على الطاعة . . وعلى هذا النحو ظلمُ القلوب وفسادُها فى إيجاب خراب محالها .

قوله جل ذكره : ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبَّرون فى الأرضِ بغير الحقِّ وإنْ يروا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها ﴾

سأَحْرِمُ المتكبرين بركاتِ الاتباع حتى لا يقابلوا الآياتِ التى يُكاشَفُون بها بالقبول ، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُون به بسمع الإيمان .

والتكبُّر جحدُ الحق — على لسان العلم ، فَمَنْ جَحَدَ حقائقَ الحقِّ فجحودُه تكبُّره واعتراضُه على التقدير مما يتحقق جحودُه فى القلب .

---

(١) يوجه القشيرى هذه الإشارة نحو موضوع الرخص ، فمن المعلوم أنه يرى ان من الأفضل الا يلجا المريد للرخصة ، وفعل الأولى عنده هو ترك الرخصة لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة ، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه .

ويقال التكبُّر توهمُ استحقاقِ الحقِّ لك .

ويقال من رأى لنفسه قيمةً فى الدنيا والآخرة فهو متكبِّر .

ويقال مَنْ ظنَّ أنَّ شيئاً منه أو له أو إليه — من النفى والإثبات — إلا على وجه الاكتساب فهو متكبِّر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشدِ لا يتخذوه سبيلاً وإنْ يروا سبيل الغَىِّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة حَبِطَتْ أعمالُهم هل يجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون ﴾

تبيَّن بهذا أنه لا يكفى شهودُ الحقِّ حقاً وشهودُ الباطلِ باطلاً بل لا بُدَّ من شهود الحق من وجود التوفيق للحق ، ومنع شهود الباطل من وجود العصمة من اتباع الباطل .

ويقال إنَّ الجاحدَ للحقِّ — مع تحققه به — أقبحُ حالةً من الجاهل به المُقصِّرِ فى تعريفه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّخَذَ قومُ موسى مِنْ بعدِه مِنْ حُلِيِّهم عِجْلاً جَسَداً له خُوارٌ ﴾

لم يُطَهِّرْ قلوبَهم — فى ابتداء أحوالهم — عن توهم الظنون ، ولم يتحققوا بخصائص القِدَمِ وشروط الحدوث ، فعثرت أقدام فكرهم فى وهاد المغاليط لما سلكوا المسير .

ويقال إن أقواماً رضوا بالعِجْلِ أن يكونَ معبودَهم متى تشم أسرارُهم نسيمَ[1] التوحيد ؟ هيهات لا ! لا ولا مَنْ لاحظ جبريلَ وميكائيلَ والعرشَ أو الثَّرى ، أو الجنَّ أو الورى .
وإنَّ مَنْ لِحَقَه ذلك أو وجد من قبيل ما يقبل نعوت الحدثان ، أو صحَّ فى التجويز أن ترتقى إليه صواعد التقدير وشرائط الكيفية فغيرُ صالحٍ لاستحقاق الإلهية .

---

(١) وردت (تشيم) وهى خطأ فى النسخ .

ويقال شتَّان بين أمة وأمة ! أمة خرج نبيهم عليه السلام من بينهم أربعين يوماً فعبدوا العِجْلَ ، وأمة خرج نبيُّهم — عليه السلام — من بينهم وأتى نيف وأربعمائة سنة فمن ذكر بين أيديهم أن الشموس والأقمار أو شيئاً من الرسوم والأطلال تستحق الإلهية أحرقوه بهممهم .

ويقال لا فصلَ بين الجسم والجسد ، فكما لا يصلح أن يكون المعبود جسماً لا يصلح أن يكون متصفاً بما فى معناه ، ولا أن يكون له صوت فإن حقيقة الأصوات مُصَاكَّةُ الأجرام الصلبة ، والتوحيد الأزلى ينافى هذه الجملة .

ويقال أَجْهِلْ بقومٍ آمنوا بأن يكونَ مصنوعهُم معبودَهم ! ولولا قهر الربوبية وأنه تعالى يفعل ما يشاء — فأىُّ عقلٍ يُقِرُّ مثل هذا التلبيس ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يَهْدِيهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾

جعل من استحقاقه[1] نعوت الإلهية صحة الخطاب وأن تكون منه الهداية ، وهذا يدل على استحقاق الحق بالنعوت[2] بأنه متكلِّمٌ فى حقائق آزاله ، وأنه متفرِّدٌ بهداية العبد لا هاديَ سواه . وفيه إشارة إلى مخاطبة الحق — سبحانه — وتكليمه مع العبد ، وإنَّ الملوكَ إذا جلَّتْ رتبتهم استنكفوا أن يخاطبوا أحداً بلسانهم حتى قال قائلهم :

وما عَجَبٌ تناسى ذِكْرِ عبدٍ على المولى إذا كَثُرَ العبيدُ

وبخلاف هذا أجرى الحقُّ — سبحانه — سنّتَه مع عباده المؤمنين ، أما الأعداء فيقول لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون »[3] وأمَّا المؤمنون فقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا يكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان »[4] ، وأنشدوا فى معناه .

وما تزدهينا الكبرياء عليهمُ إذا كلَّمونا أن نكلمهم مَرَدَّا

---

(١) وردت (استحقاقهم) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يشير القشيرى بذلك إلى معارضة المعتزلة الذين ينفون الصفات الإلهية منعاً للتعدد ، واقتضاء حامل ومحمول .

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) فى رواية مسلم عن عدى بن حاتم قال رسول الله (ص) :
« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان) ص ٧٠٣ حـ ٢ ط الحلبى .

قال تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحرُ قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا سُقِطَ فى أيديهم ورأوا أنهم
قد ضلُّوا قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفرْ
لنا لنكونن من الخاسرين ﴾

حين تحققوا بقبح صنيعهم تجرَّعوا كاساتِ الأسف ندماً ، واعترفوا بأنهم خسِروا إنْ لم يتداركهم من الله جميلُ لُطْفِه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا رَجَعَ موسى إلى قومِه غضبانَ
أسِفاً قال بئسما خلَفْتمونى مِنْ بَعْدِى
أعَجِلْتُم أمْرَ ربِّكم ﴾

لو وجد موسى قومه بألف ألف وِفاقٍ لكان متنغِّصَ العيش لِمَا منى به من حرمان سماع الخطاب والرد إلى شهود الأغيار . . فكيف وقد وجد قومه قد ضلوا وعبدوا العجل ؟ !
ولا يُدْرَى أيُّ المحن كانت أشدَّ على موسى :

أفِقدانُ سماع الخطابِ ؟ أو بقاؤه عن سؤال الرؤية ؟ أو ماشاهد من افتتان بنى اسرائيل ، واستيلاء الشهوة على قلوبهم فى عبادة العجل ؟ سبحان الله ! ما أشدَّ بلاءه على أوليائه !

قوله جل ذكره : ﴿ وألقى الألواحَ وأخَذَ برأسِ أخيه
يجرُّه إليه قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم
استضعفونى وكادوا يقتلوننى
فلا تُشمِتْ بى الأعداء ولا تجعلْنى
مع القومِ الظالمين * قال ربِّ اغفرْ لى
ولأخى وأدْخِلْنا فى رحمتك وأنت
أرحمُ الراحمين ﴾

---

(١) آية ١٠٩ سورة الكهف .

إن موسى عليه السلام وإنْ كان سَمِعَ من الله فِتَنَ قومه فإنه لما شاهَدَهم أثَّرت فيه المشاهدةُ بما لم يؤثر فيه السماع ، وإنْ عَلِمَ قطعاً أنه تأثر بالسماع إلا أن للمعاينة تأثيراً آخر .

ثم إن موسى لما أخذ برأس أخيه يجره إليه استلطفه هارونُ فى الخطاب .

فقال : « يا ابنَ أُمَّ » فَذَكَرَ الأمَّ هنا للاسترفاق والاسترحام .

وكذلك قوله : « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » يريد بهذا أنه قد توالت المحنُ علىَّ فَذَرْنى وما أنا فيه ، ولا تَزِدْ فى بلائى ، خلفتنى فيهم فلم يستنصحونى .. وتلك علىَّ شديدةٌ . ولقيتُ بَعْدَكَ منهم ما ساءنى ، ولقد علمت أنها كانت على عظيمة كبيرة ، وحين رجعتَ أخذتَ فى عتابى وجر رأسى وقصدْتَ ضربى ، وكنت أود منك تسليتى وتعزيتى . فرِفقاً بى ولا تُشْمِتْ بى الأعداء ، ولا تضاعِفْ علىَّ البلاء .

وعند ذلك رقَّ له موسى — عليه السلام ، ورجع إلى الابتهال إلى الله والسؤال بنشر الافتقار فقال : « ربِّ اغفر لى ولأخى وأدْخِلْنا فى رحمتك » وفى هذا إشارة إلى وجوب الاستغفار على العبد فى عموم الأحوال ، والتحقق بأنَّ له — سبحانه — تعذيبَ البرىءِ ؛ إذ الخلْقُ كُلُّهم مِلْكُه ، وتصَرُّفُ المالكِ فى مِلْكه نافذٌ .

ويقال : ارتكابُ الذَّنْبِ كان من بنى اسرائيل ، والاعتذارُ كان من موسى وهارون عليهما السلام ، وكذا الشرط فى باب خلوص العبودية .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اتخذوا العِجْلَ سينالهم غَضَبٌ مِنْ ربهم وذِلَّةٌ فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾

يعنى إن الذين اتخذوا العِجْلَ معبوداً سَيَنالُهم فى مستقبل أحوالهم جزاء أعمالهم . والسين فى قوله « سينالهم » للاستقبال ، ومَنْ لا يضره عصيان العاصين لا يبالى بتأخير العقوبة عن الحال ، وفَرْقٌ بين الإمهال والإهمال ، والحق — سبحانه — يمهل ولكنه لا يهمل ، ولا ينبغى لِمَنْ يذنب ثم لا يُؤَاخَذُ فى الحال أنْ يَغْتَرَّ بالإمهال .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين عَمِلوا السيئاتِ ثم تابوا

مِنْ بعدها وآمنوا إنَّ ربَّكَ مِنْ
بعدها لغفور رحيم ﴾

وَصَفَهُم بالتوبة بعد عمل السيئات ثم بالإيمان بعدها ، ثم قال : « من بعدها لغفور رحيم » .
والإيمان الذى هو بعد التوبة يحتمل آمنوا بأنه يقبل التوبة ، أو آمنوا بأن الحق سبحانه لم يُضِرْه عصيانٌ ، أو آمنوا بأنهم لا ينجون بتوبتهم من دون فضل الله ، أو آمنوا أى عَدُّوا ما سبق منهم من نقْض العَهْدِ شِرْكاً .

ويقال استداموا للإيمان فكان موافاتهم على الإيمان .

أو آمنوا بأنهم لو عادوا إلى ترك العهد وتضييع الأمر سقطوا من عين الله ، إذ ليس كل مرة تسلم الجرة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا سَكَتَ عن موسى الغضبُ
أخذ الألواحَ وفى نُسْخَتِها هُدىً
ورحمة للذين هم لربِّهم يرهبون ﴾

تشير إلى حسن إمهاله — سبحانه — للعبد إذا تغيَّر عن حدِّ التمييز ، وغَلَبَ عليه ما لا يطيق ردَّه من بواده الغيب .

وإذا كانت حالة الأنبياء — عليهم السلام — أنه يغلبهم ما يعطلهم عن الاختيار فكيف الظن بِمنْ دونهم[1] ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واختار موسى قومَه سبعين رَجُلا
لميقاتنا فلما أخذتْهم الرَّجفةُ قال ربِّ
لو شِئْتَ أهلكتَهم مِنْ قبلُ وإياى
أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منَّا ؟ إنْ
هِىَ إلا فِتْنَتُكَ تضلُّ بها من تشاء
وتهدى من تشاء ، أنتَ ولينُّا ،
فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين ﴾

(١) يستشفع القشيرى للواله إذا خرج عن حد التمييز إن كان صادقاً وله عذر .

شتان بين أمة وأمة ؛ أمة يختارهم نبيهم — عليه السلام ، وبين أمة اختارها الحق — سبحانه ، فقال : « ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين »[1] .

الذين اختارهم موسى قالوا : « أرِنَا الله جهرة حتى أخذتهم الصاعقة » والذين اختارهم الحق — سبحانه — قال الله تعالى فيهم : « وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة »[2] .

ويقال إن موسى — عليه السلام — جاهر الحق — سبحانه — بنعت التحقيق وفارق الحشمة وقال صريحاً : « إنْ هي إلا فتنتكَ » ثم وَكلَ[3] الحكمَ إليه فقال : « تُضِلُّ بها مَنْ تشاء وتَهْدِي مَنْ تشاء » ثم عقَّبها ببيان التضرع فقال : « فاغفر لنا وارحمنا » ، ولقد قدَّم الثناء على هذا الدعاء فقال : « أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا » .

قوله جل ذكره : ﴿ واكتُبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة ﴾

نَطَقَ بلسان التضرع والابتهال حيث صَفَّى إليه الحاجة ، وأخلص له فى السؤال فقال : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة » أى اهدنا إليك .

وفى هذه إشارة إلى تخصيص نبيِّنا — صلى الله عليه وسلم — فى التبرى من الحول والقوة والرجوع إلى الحقِّ لأن موسى — عليه السلام قال : « واكتب لنا فى . . . . » ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » ولا أقلَّ من ذلك ، وقال : « واكفلنى كفالة الوليد » ثم زاد فى ذلك حيث قال : « لا أُحصى ثناء عليك »[4] .

---

(١) آية ٣٢ سورة الدخان والمقصود أمة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(٢) آية ٢٢ سورة القيامة .

(٣) وردت (وقل) والصواب أن تكون (وكل) إليه الحكم .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اكفلنى كفالة الوليد ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وجهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا اليك » .

اللهم اكفلنى كفالة الوليد — علمها النبى (ص) لبعض أصحابه ، للشيخين من حديث البراء . اللهم امتعنى بسمعى وبصرى : الترمذى ، والحاكم عن أبى هريرة « ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين » الحاكم من حديث أنس قال : صحيح على شرط الشيخين ، وعلَّمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّا هُدْنا إليك ﴾

أى مِلْنا إلى دينك ، وصِرْنا لكَ بالكلية ، من غير أنْ نترك لأنفسنا بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ قال عذابى أصيب به مَنْ أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء ﴾

وفى هذا لطيفة ، حيث لم يقل : عذابى لا أُخْلِى منه أحَدَاً ، بل علَّقَه على المشيئة .
وفيه أيضاً إشارة ، أنَّ أفعاله — سبحانه — غيرُ مُعَلَّلَة بأكساب الخلْق ، لأنه لم يقل : عذابى أصيب به العصاة بل قال : « من أشاء » ، وفى ذلك إشارة إلى جواز الغفران لمن أراد لأنه قال : « أصيب به من أشاء » فإذا شاء ألا يصيب به أحداً كان له ذلك ، وإلا لم يكن حينئذٍ مختاراً .

ثم لمَّا انتهى إلى الرحمة قال : « ورحمتى وسعت كل شىء » لم يُعَلِّقها بالمشيئة ، لأنها نفس المشيئة ولأنها قديمة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم . فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعل علَّقه بالمشيئة ، بعكس الرحمة لأنها من صفات الذات .

ويقال فى قوله تعالى : « وسعت كل شىء » مجالٌ لآمالِ العُصَاة ، لأنهم وإن لم يكونوا من جملة المطيعين والعابدين والعارفين فهم « شىء »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾

أى سأوجبها لهم ، فيجب الثواب للمؤمنين من الله ولا يجب لأحدٍ شىء على الله إذ لا يجب عليه شىءٌ لعزِّه فى ذاته[2] .

قوله ها هنا : « للذين يتقون » أى يجتنبون أنْ يروا الرحمة باستحقاقهم ، فإذا اتقوا هذه الظنون ، وتيقنوا أن أحكامه ليست معللةً بأكسابهم — استوجبوا الرحمة ، ويحكم بها لهم .

---

(١) أى ضمن (شىء) التى فى الآية « ورحمتى وسعت كل شىء » .

(٢) أى بخلاف المعتزلة الذين يقولون بالوجوب (على) الله ، وشتان بين الوجوب (من) الله والوجوب (عليه) ؛ فالوجوب من الله فضل ، والوجوب على الله إلزام .

« والذين هم بآياتنا يؤمنون » أى بما يكاشفهم به فى الأنظار مما يقفون عليه بوجوه الاستدلال ، وبما يلاطفهم به فى الأسرار مما يجدونه فى أنفسهم من فنون الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يَتّبِعون الرسولَ النبيَّ الأُميَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المُنكرِ ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهم الخبائث ﴾

أظهر شرفَ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بقوله : « النبي الأمى » أى أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه مِنْ قِبَلِ نَفْسِه ، أو من تعلُّمه وتكلُّفه ، أو من اجتهاده وتصرُّفه . . بل ظهر عليه كلُّ ما ظهر مِنْ قِبَله — سبحانه — فقد كان هو أميّاً غير قارىءٍ للكتب ، ولا مُتَتَبِّعٍ للسِّيَرَ .

ثم قال : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » : والمعروف هو القيام بحق الله ، والمنكر هو البقاء بوصف الحظوظ وأحكام الهوى ، والتعريج فى أوطان المُنَي ، وما تصوِّره للعبد تزويراتُ الدعوى[1] . والفاصلُ بين الجسمين ، والمميِّزُ بين القسمين — الشريعةُ ، فالحَسَنُ من أفعال العباد ما كان بنعت الإذن من مالك الأعيان فلَهُم ذلك ، والقبيح ما كان موافقاً لِلنَّهْيِ[2] والزجرِ فليس لهم فعل ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ويضع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم ﴾

الإصرُ الثُّقلُ ، ولا شيء أثقلُ من كَدِّ التدبير ، فَمَنْ ترك كد التدبير إلى روْح شهود التقدير ، فقد وُضِع عنه كلُّ إصر ، وكُفِيَ كُلَّ وِزر وأمر .

والأغلالُ التى كانت عليهم هى ما ابتدعوه مِنْ قِبَلِ أنفسهم باختيارهم فى التزامِ طاعات

(١) يقصد بها دعوى النفس أنها على شيء وذلك زور وباطل .

(٢) وردت (المهى) وهى خطأ فى النسخ .

الله ما لم يُفْتَرضْ عليهم ، فوُكِلُوا إلى حَوْلِهِمْ ومُنَّتِهِم فيها ؛ فأهملوها ، ونقضوا عهودهم .

ومَنْ لَقِيَ — بخصائص الرضا — ما تجرى به المقادير ، وشَهِدَ الحقَّ فى أجناس الأحداث — فقد خُصَّ بكل نعمة وفضل .

قوله جل ذكره : ﴿ فالذين آمنوا به وعَزَّروه ونصروه واتبعوا النُّور الذى أُنْزِلَ معه أولئك هم المُفْلِحُون ﴾

اعترف لهم[1] بنصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإلا فالنبى صلى الله عليه وسلم كان الله حسيبه ، ومَنْ كان استقلاله بالحق لم يقف انتعاشه على نصرة الخلْق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُل يأيها النَّاسُ إنى رسولُ اللهِ إليكم جميعاً الذى له مُلْكُ السموات والأرضِ لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمِنوا بالله ورسولِه النبيِّ الأُمّى الذى يؤمِنُ باللهِ وكلماتِه ، واتبِعوه لعلكم تَهْتَدون ﴾

صَرِّحْ بما رَقَّيْنَاكَ إليه من المقام ، وأفصِحْ عما لقيناك به من الإكرام ، قُلْ إنى إلى جماعتكم مُرسَلٌ ، وعلى كافتكم مُفَضَّل ، ودينى — لِمَنْ نظر واعتبر ، وفكَّر وسَبَرَ — مُفَصَّل . فإلهى الذى لا شريكَ له ينازعه ، ولا شبيهَ يُضَارِعه له حقُّ التصرف فى مُلْكِه بما يريد من حكمه . ومن جملة ما حكم وقضى ، ونفذ به التقدير وأمضى — إرسالى إليكم لتطيعوه فيما يأمركم ، وتحذروا من ارتكاب ما يزجركم . وإنَّ مما أَمَرَكُم به أنه قال لكم : آمِنوا بالنبيِّ الأمّى ، واتبعوه لتُفْلِحوا فى الدنيا والعقبى ، وتستوجبوا الزُّلفى والحسنى ، وتتخلصوا من البلوى والهوى .

---

(١) (اعترف لهم) أى عرف لهم هذا العمل وأشاد به .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن قوم موسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلون ﴾

هم الذين سبقت لهم العناية ، وصدقت فيهم الولاية فبقوا على الحق من غير تحريف ولا تحويل ، وأدركتهم الرحمةُ السابقةُ ، فلم تتطرق إليهم مفاجأةُ تغيير ، ولا خفيُّ تبديل .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم اثنتى عَشْرةَ أسباطاً أُمَماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُه أنْ اِضرب بعصاك الحجَرَ فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم وظَلَّلْنا عليهم الغَمامَ ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى كلوا مِنْ طيباتِ ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون ﴾

فرَّقهم أصنافاً ، وجعلهم فى التحزب أخيافاً ، ثم كفاهم ما أهمهم ، وأعطاهم ما لم يكن لهم بُدٌّ منه فيما نابَهم ؛ فظللنا عليهم ما وقاهم أذى الحرِّ والبرد ، وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعى والكد ، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً ، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين ، ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق ، سبحانه وتعالى فيما يُمضى عليهم من فنون أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القريةَ وكُلُوا منها حيث شِئْتُمْ وقولوا حِطَّةٌ وادْخلوا البابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لكم خَطِيئاتِكمْ سَنَزِيدُ المحسنين ﴾

يخبر عما ألزمهم من مراعاة الحدود ، وما حصل منهم من نقض العهود . وعما ألزمهم من التكليف ، ولقّاهم به من صنوف التعريف ، وإكرامه من (شاء)[1] منهم بالتوفيق والتصديق ، وإذلاله من شاء منهم بالخذلان وحرمان التحقيق ، ثم ما عاقبهم به من فنون البلاء فما لقوا تعريفاً ، وأذاقهم من سوء الجزاء ، حُكْماً — من الله — حتما ، وقضاء جزماً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبَدَّلَ الذين ظلموا منهم قولاً غيرَ الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رِجْزاً مِنَ السماء[2] بما كانوا يَظْلِمون ﴾

جاء فى التفسير أنهم زادوا حرفاً فى الكلمة التى قيلت لهم فقالوا : حنطة بدل « حطّة » فلقوا من البلاء ما لقوا تعريفاً أن الزيادةَ فى الدِّين، والابتداعَ فى الشرع عظيمُ الخَطَرِ، ومجاوزةُ حدِّ الأمرِ شديدُ الضرر .

ويقال إذا كان تغييرُ كلمةٍ هى عبارة عن التوبة يوجب كل ذلك العذاب — فما الظنُّ بتغيير ما هو خبرٌ عن صفات المعبود ؟

ويقال إنَّ القولَ أنْقَصُ من العمل بكلِّ وجهٍ — فإذا كان التغيير فى القول يُوجِبُ كلَّ هذا . . فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضِرةَ البحرِ إذْ يَعْدُون فى السَّبْتِ إذ تأتيهم حِيتانُهم يومَ سبتهم شرَّعاً ويومَ لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك نَبْلُوهم بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

كان دينهم الأخذ بالتأويل ، وذلك رَوَغانٌ — فى التحقيق[3] ، وإن الحقائق تأبى

---

(١) سقطت (شاء) وقد أثبتناها قياساً على ما حدث فيما بعد .

(٢) سقطت (من السماء) من الناسخ .

(٣) تأمل مفهوم (التأويل) عند القشيرى ، وكيف يعارضه إذا كان باطلاً .

إلا الصدق ، وإنَّ التعريج في أوطان الحظوظ والجنوحَ إلى محتملات الرُّخَص فسْخٌ لأكيد مواثيق الحقيقة ، ومن شاب شوِّبَ له ، ومَن صَفَّى صفى له .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قالت أمَّةٌ منهم لِمَ تَعِظُون قوماً اللهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهم عذاباً شديداً قالوا معْذِرةً إلى ربِّكم ولعلَّهم يتَّقُون ﴾

الحقائق — وإن كانت لازمة — فليست للعبد عند لوازم الشرع عاذِرةً[1] بل الوجوبُ يُفْتَرَضُ شرعاً ، وإن كان التقدير غالباً بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به أَنْجيْنا الذين ينهوْن عن السُّوءِ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يَفْسُقُون ﴾

إذا تمادى العبد في تهتُّكه ، ولم يُبالِ بطول الإمهال والسَّتر لم تُهْمِلْ يدُ التقدير عن استئصال العين ، ومحو الأثر ، وسرعة الحساب ، وتعجيل العذاب الأدنى قبل هجوم الأكبر . ثم البرىء في فضاء السلامة ، وتحت ظلِّ الحفظ ، ودوام روْح التخصيص وبَرْدِ عيش التقريب .

قوله جل ذكره : ﴿ فلما عَتَوْا عمَّا نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين ﴾

إذا انتهت مدةُ الإمهال فليس بعده إلا حقيقة الاستئصال ، وإذا سقط العبدُ من عين الله لم ينتعشْ بعده أبداً ، فمن أسقطه حكمُ الملوك فلا قبول له بعد الردِّ ، وفي معناه أنشدوا :

إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيء لم تَكَدْ ... إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقْبِلُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ تأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَنْ يسومُهم سُوءَ

(١) أي لا ينبغي نصرة الحقيقة على حساب الشريعة بحال .

العذابِ ، إنَّ ربَّكَ لسريعُ العقابِ
وإنَّه لغفورٌ رحيم ﴾

إذا الحقُّ — سبحانه — أمضى سُنَّتَه بالإنذار وتقديم التعريف بما يستحقه كلُّ أحد على ما يحصل منه من الآثار إبداءً للعذر — وإنْ جلت[1] رتبته عن كل عذر — فإنْ يَنْجَعْ فيهم القولُ وإلا دَمَّرَ عليهم بالعذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقطعناهم فى الأرضِ أُمَمًا منهم
الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم
بالحسناتِ والسيئاتِ لعلَّهم
يَرجعون[2] ﴾

أجراهم على ما علم أنهم يكونون عليه من صلاحٍ وسداد ، ومَعَاصٍ وفساد . ثم ابتلاهم بفنون الأفعال من محنٍ أزاحها ، ومن مِنَنٍ أتاحها ، وطالبهم بالشكر على ما أسدى ، والصبرِ على ما أبلى ، ليظهر للملائكة والخلائق أجمعين جواهرَهم فى الخلاف والوفاق ، والإخلاص والنفاق ؛ فأمَّا الحسناتُ فهى ما يُشْهِدهم المُجْرِى ، ولا يُلْهِيهم عن المُبْدِى ، وأمَّا السيئاتُ فالتردد بين الإنجاز والتأخير ، والإباحة والتقصير .

ويقال الحسنة أن يُنْسِيَك نفسك ، والسيئةُ أَنْ يُشْهِدَكَ نفسك .

ويقال الحسنات بتيسير وقتٍ عن الغفلات خالٍ ، وتسهيل يومٍ عن الآفات بائن . والسيئاتُ التى ابتلاهم بها خذلانٌ حاصل وحرمانٌ متواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهم خَلْفٌ وَرِثُوا
الكتابَ يأخذون عَرَضَ هذا
الأدنى ويقولون سَيُغْفَرُ لنا ﴾

استوجبوا الذم بقوله — سبحانه : « فخلف من بعدهم خلف » لأنهم آثروا العَرَضَ[3]

---

(١) وردت (حلت) بالحاء وهى خطأ فى النسخ .
(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لعلهم يرحمون) .
(٣) وردت (الأرض) وهى خطأ فى النسخ فاللفظة (عرض) مذكورة فى الآية .

الأدنى ، وركنوا إلى عاجل الدنيا ، وجعلوا نصيبهم من الآخرة المنى فقالوا : « سيغفر لنا » .

ويقال من أمارات الاستدراج ارتكابُ الزلة ، والاغترارُ بزمان المُهْلة ، وحَمْلُ تأخيرِ العقوبة على استحقاق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يأتِهم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه ﴾

أخبر عن إصرارهم على الإغترار بالمنى ، وإيثار متابعة الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألاَّ يقولوا على اللهِ إلا الحق ﴾

استفهام فى معنى التقرير[1] ، أى أُمِروا ألا يَصِفُوا الحقَّ إلا بنعت الجلال ، واستحقاق صفات الكمال ، وألا يتحاكموا عليه بما لم يأتِ منه خبر ، ولم يشهد بصحته برهانٌ ولا نظر .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَرَسُوا ما فيه ، والدارُ الآخرِة خيرٌ للذين يتقون ، أفلا تعقلون ﴾

يعنى تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان . يعنى التعرضُ لنفحات فضله — سبحانه — خيرٌ لمن أَمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ — فى تحصيل هواه — مجهودَه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بالكتابِ وأقاموا الصلاة ﴾ .

يمسكون بالكتاب إيمانا ، وأقاموا الصلاة إحسانا ، فبالإيمان وجدوا الأَمَان ، وبالإحسان وجدوا الرضوان ، فالأَمانُ مُعَجَّل والرضوان مؤجل . ويقال « يمسكون بالكتاب » سبب النجاة ، وإقامة الصلاة تحقق المناجاة . فالنجاة فى المآل والمناجاة في الحال .

ويقال أفرد الصلاة هاهنا بالذكر عن جملة الطاعات ليُعْلَمَ أنها أفضل العبادات بعد معرفة الذات والصفات .

---

(١) وردت (التقدير) بالدال وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها ، والاستفهام التقريرى مصطلح بلاغى.

قوله جل ذكره : ﴿ إنا لا نُضِيع أجرَ المصلحين ﴾

مَنْ أمَّلَ سببَ إنعامنا لم تَخْسِرْ له صفقة ، ولم تخْفِق[1] له فى الرجاء رفقة ، ويقال من نقل (. . . .)[2] إلى بابه قَدَمَه لم يَعْدِم فى الآجل نِعَمَه ، ومَنْ رَفَعَ إلى ساحاتِ جوده هِمَمَه نالَ فى الحالِ كرمه .

ويقال مَنْ توَصَّلَ إليه بجوده نال فى الدارين شرَفَه . ومن اكتفى بجوده[3] كان اللهُ عنه خَلَفَه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ نتَقْنَا الجَبَلَ فوقهم كأنه ظُلَّة وظنوا أنه واقِعٌ بهم خُذُوا ما آتيناكم بقوةٍ ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾

ليس من يأتى طوعاً كمن يأتى جَبْراً ، فإن الذى يأتى قهراً لا يعرف للحق — سبحانه — قدراً ، وفى معناه أنشدوا :

إذا كان لا يرضيك إلا شفاعة ... فلا خير فى ود يكون لشافعِ

وأنشدوا :

إذا أنا عاتبتُ الملولَ فإنَّما ... أُخُطُّ بأقلامى على الماء أحْرُفَا

وَهَبْهُ ارْعَوَى بعد العتاب ... ألم يكن تودده طبعاً ، فصار تكلُّفا ؟

ويقال قصارى من أتى خيراً أن ينكص على عقبيه طوعاً ، كذلك لمَّا قابلوا الكتاب بالإجبار ما لبثوا حتى قابلوه بالتحريف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذ ربُّكَ مِنْ بنى آدمَ مِنْ

(١) وردت (تحقق) وهى خطأ فى النسخ لأن المعنى يرفضها .

(٢) مشتبهة وربما كانت (فى العاجل) .

(٣) الأصوب أن تكون هذه (بوجوده) أى من فنى عن نفسه وبقى بالحق كان الحق عنه خلفه .

ظهورهم ذرِّيَّتَهم وأشهدهم على
أنفسهم ألستُ بربِّكم ؟ قالوا :
بلى ، شهِدْنا أَنْ تقولوا يوم القيامة
إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين * أو تقولوا
إنما أشرك آباؤنا مِنْ قبلُ وكُنَّا
ذُرِّيةً مِنْ بَعْدِهم أفتهلكنا بما فعل
المُبْطِلُون ؟ ﴾

أخبر بهذه الآية عن سابق عهده ، وصادق وعده ، وتأكيد عناج[1] ودِّه ، بتعريف عبده ، وفى معناه أنشدوا :

سُقياً للَيْلَى والليالى التى   كُنَّا بِلَيْلَى نلتقى فيها
أفديك بل أيامُ دهرى كلها   يفدين أياماً عَرَفْتُكِ فيها

ويقال فأجابهم بتحقيق العرفان قبل أن يقع لمخلوق عليهم بَصَرٌ ، أو ظهر فى قلوبهم لمصنوع أثرٌ ، أو كان لهم من حميمٍ أو قريب أو صديق أو شفيق خبر ، وفى معناه أنشدوا :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   وصادَفَ قلبي فارغاً فتمكنَّا

ويقال جمعهم فى الخطاب ولكنه فرَّقهم فى الحال . وطائفةٌ خاطبهم بوصف القربة فعرَّفهم فى نفس ما خاطبهم ، وفِرْقةٌ أبقاهم فى أوطان الغيبة فأقصاهم عن نعت العرفان وحجبهم .

ويقال أقوام لاطَفَهم فى عين ما كاشَفَهم فأقروا بنعت التوحيد ، وآخرون أبعدهم فى نفس ما أشهدهم فأقروا عن رأس الجحود .

ويقال وَسَمَ بالجهل قوماً فألزمهم بالإشهاد ببيان الحجة فأكرمهم بالتوحيد ، وآخرين أشهدهم واضِحَ الحجة (. . . . . .)[2]

---

(١) العناج حبل يشد فى أسفل الدلو العظيمة (المنجد) .
(٢) لابد أن هنا عبارة ساقطة .

ويقال تجلىَّ لقومٍ فتولىَّ تعريفهم فقالوا : « بلى » عن حاصل يقين ، وتَعزَّزَ عن آخرين فأثبتهم فى أوطان الجحد فقالوا: « بلى » عن ظنٍ وتخمين .

ويقال جمع المؤمنين فى الأسماء ولكن غاير بينهم فى الرتب ؛ فَجَذَبَ قلوبَ قومٍ إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المَبَارِّ ، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان وكاشفهم به من الأسرار .

ويقال فرقةٌ ردَّهم إلى الهيبة فهاموا ، وفِرْقَةٌ لاطفَهم بالقربة فاستقاموا .

ويقال عرَّف الأولياء أنه مَنْ هو فتحققوا بتخليصهم ، ولَبَّسَ على الأعداء فتوقفوا لحيرة عقولهم .

ويقال أسمعهم وفى نفس ما أسمعهم أحضرهم ، ثم أخذهم عنهم فيما أحضرهم ، وقام عنهم فأنطقهم بحكم التعريف ، وحفظ عليهم — بحسن التولى — أحكامَ التكليف[1] وكان — سبحانه — لهم مُكَلِّفاً ، وعلى ما أراده مُصَرِّفاً ، وبما استخلصهم له مُعَرِّفاً ، وبما رقاهم إليه مُشَرِّفاً .

ويقال كاشف قوماً — فى حال الخطاب — بجماله فطوحهم فى هيمان حبه ، فاستمكنت محابُّهم فى كوامن أسرارهم ؛ فإذا سمعوا — اليومَ — سماعاً تجددت (تلك الأحوال ، فالانزعاجُ الذى يَظْهَرُ فيهم لِتَذَكُّرِ ما سَلَفَ لهم)[2] من العهد المتقدم[3] .

ويقال أسمع قوماً بشاهد الربوبية فأصحاهم عن عين الاستشهاد فأجابوا عن عين التحقيق ، وأسمع آخرين بشاهد الربوبية فمحاهم عن التحصيل فأجابوا بوصف الجحود .

ويقال أظهر آثارَ العناية بدءاً حين اختصّ بالأنوار التى رشت عليهم قوماً ، فَمَنْ حَرَمَهُ تلك الأنوار لم يجعله أهلاً للوصلة ، ومَنْ أصابَتْه تلك الأنوارُ أَفْصَحَ بما خُصَّ به من غير مقاساة كُلْفَة .

---

(١) لاحظ مدى إلحاح القشيرى على التزام أحكام التكليف ما سنحت له مناسبة .

(٢) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامات المميزة .

(٣) من هذا ومما تلاه يتضح كيف ارتبطت الولاية بالفطرة والاجتباء والخصوصية منذ يوم الذر ، وكذلك الشأن فى العداوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك نفصِّل الآياتِ ولعلهم يَرْجعُون ﴾

إذا سُدَّت[1] عيونُ البصائر فما ينفع وضوح الُحجَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ﴾

الحقُّ — سبحانه — يظهر الأعداء فى صدار الُخلَّة ثم يردُّهم إلى سابق القسمة ، ويُبْرِزُ الأولياء بنعتِ الخلاف والزَّلَّة ، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة .

ويقال أقامه فى محل القربة ، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدَّ له من سابق التقدير ؛ فأصبح والكلْبُ دونه رتبة ، وأمسى والكلب فوقه — مع خساسته . . وفى معناه أنشدوا :

فبينا بخيرٍ والدُّنى مطمئنة وأصبح يوماً — والزمان تَقَلَّبا

ويقال ليست العِبْرَةُ بما يلوح فى الحال ، إنما العبرة بما يئول إليه فى المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾

لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تَلْحقْه الشقاوةُ الأبدية ، ولكن من قصمته السوابق لم تنعشه اللواحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾

إذا كانت مساكنةُ آدمَ للجَنَّةِ وطَمَعُه فى الخلود فيها أوجبا خروجَه عنها ، فالركونُ إلى الدنيا — متى يوجب البقاء فيها ؟

قوله جل ذكره : ﴿ واتَّبَعَ هواه ﴾

موافقة الهوى تُنْزِلُ صاحبَها من سماءِ العِزِّ إلى تراب الذُّل ، وتلقيه فى وهدة الهوان ؛ ومن لم يُصَدِّق عِلْماً فعن قريبٍ يقاسيه وجوداً .

(١) وردت (شدت) والمعنى يرفضها ويبدو أن الناسخ قد حسب ضمة السين ثلاث نقط انظر (ولولا انسداد البصائر ص ٢٨٤ من هذا المجلد) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب ﴾

من أخلاق الكلب التعرُّضُ لِمَنْ لم يُخِفه على جهة الابتداء ، ثم الرضاء عنه بلقمة .. كذلك الذى ارتدَّ عن طريق الإرادة يصير ضيق الصدر ، سيىء الخُلُق ، يبدأ بالجفاء كُلَّ برىء ، ثم يهدأ طياشه بِنَيْل كُلِّ عَرَضٍ خسيس .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يلهث ذلك مَثَـلُ القومِ الذين كذَّبوا بآياتنا فاقصُصْ القصصَ لعلهم يتفكرون ﴾

المحجوب عن الحقيقة عنده الإساءةُ والإحسانُ (سيان)[1] ؛ فهو فى الحالين : إمَّا صاحب ضَجَر أو صاحب بَطَر ؛ لا يحمل المحنة إلا على زوال الدولة ، ولا يقابل[2] النعمة إلا بالنهمة ، فهو فى الحالين محجوبٌ عن الحقيقة .

ويقال الكلب نجاسته أصلية ، وخساسته كلية ، كذلك المردود فى الصفة ؛ له نقصان القيمة وحرمان القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ساَءَ مَثَلاً[3] القومُ الذين كذَّبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلِمون ﴾

أى صفته أدنى من نعت من بُلِىَ بالإعراضِ الأزلىِّ ، وأىُّ نعتٍ أعلى من وصف مَنْ أُكْرِمَ بالقبول الأبدىِّ ؟ وأىُّ حيلةٍ تنفع مع مَنْ يخلق الحيلة ؟[4] وكيف تَصِحُّ الوسيلةُ إلا لمن منه الوسيلة ؟

---

(١) (سيان) زيادة أضفناها ليستقيم بها المعنى ويقوى .

(٢) وردت (ولا يقال) وهى خطأ فى النسخ والمعنى يتطلب (ولا يقابل) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (مثلان) .

(٤) نعرف من مذهب القشيرى أن (الحيلة) تنصرف إلى الإنسان ، وهو هنا يقرر أن الحيلة من خلق الحق ، وبهذا يتأكد اتجاهه الكلامى نحو جعل الله خالق كل شىء حتى أكساب العباد .

قوله جل ذكره: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المهتدى
ومَنْ يُضْلِلْ فأولئك هم الخاسرون ﴾

ليست الهدايةُ من حيث السعاية، إنما الهداية من حيث البداية، وليست الهداية بفكر العبد ونَظَرِه، إنما الهداية بفضل الحق وجميل ذكره.

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ
والإِنسِ ﴾

مَنْ خَلَقَه لجهنم — متى يستوجب الجنَّاتِ؟
ومَنْ أَهَّلَه للسخطة — أنَّى يستحق الرضوان؟
ولولا انسداد البصائر وإلا فأيُّ إشكالٍ بقي بعد هذا الإيضاح؟[1]

ويقال هم — اليومَ — في جحيم الجحود، مقرَّنين في أصفاد الخذلان، مُلْبَسين ثيابَ الحرمان، طعامُهم ضريع الوحشة، وشرابهم حميم الفرقة، وغداً هُمْ في جحيم الحرقة[2].. كما فَصَّلَ في الكتاب شرحَ تلك الحالة.

قوله جل ذكره: ﴿ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعيُنٌ
لا يُبْصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون
بها أولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ
أولئك هم الغافِلون ﴾

أى لا يفقهون معانى الخطاب كما يفهم المُحَدَّثون[3]، وليس لهم تمييز بين خواطر الحق

(١) يغمز القشيرى هنا بمن يقول بحرية الإنسان فى اختطاط مصيره باختياره وارادته، ويرجع الأمر كله للقسمة.

(٢) لاحظ مفهوم الجحيم، فى تصور الصوفية، وهو جحيم الفراق — هنا فى هذه الدنيا. وبعده جحيم الاحتراق فى الدار الآخرة.

(٣) يقول السراج فى شرح « المحدَّث » التى وردت فى الحديث الشريف:
« قد كان فى الأمم محدثون ومكلمون فان يَكُ في هذه الأمة فعمر » المحدَّث أعلى درجة من درجات الصديقين، ودلائل ذلك ظهرت عليه حين صاح في خطبه: ياسارية الجبل، وكان سارية فى نهاوند فسمع سمع صوت عمر وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو (اللمع ص ١٧٣).

وبين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها شواهدَ التوحيد وعلاماتِ اليقين ؛ فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة ، ولا يسمعون إلا دواعى الفتنة ، ولا ينخرطون إلا مع من سلك ركوب الشهوة .

« أولئك كالأنعام بل هم أضل » : لأنَّ الأنْعَامَ قد رُفِعَ عنها التكاليفُ ، وإن لم يكن لها وِفاقُ الشرع فليس منها أيضاً خلاف الأمر .

والأنعامُ لا يَهُمُّها إلا الاعتلاف ، وما تدعو الحيلة من مباشرة الجنس ، فكذلك مَنْ أُقيم بشواهد نفسه وكان من المربوطين بأحكام النَّفْس ، وفى معناه أنشدوا :

نهارك يا مغرورُ سَهْوٌ وغفلةٌ ... وليلك نومٌ والرَّدى لك لازِمٌ

وسعيك فيها سوف تكره غِبَّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائمُ

قوله جل ذكره : ﴿ ولله الأسماء الحُسْنَى فادعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلْحِدون فى أسمائه سَيُجزَوْن[1] ما كانوا يعملون ﴾

سبحان مَنْ تعرَّف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرَّفهم أنه مَنْ هو ، وبأى وصفٍ هو ، وما الواجب فى وصفه ، وما الجائز فى نعته ، وما الممتنع فى حقِّه وحكمه ؛ فتجلى لقلوبهم بما يكاشفهم به من أسمائه وصفاته ، فإن العقولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها لِمَا يَصِحُّ إطلاقُه فى وصفه ، وإنْ كانت واقفةً على الواجب والجائز والممتنع فى ذاته ، فللعقل العرفان بالجملة ، وبالشرع الإطلاق والبيان فى الإخبار ، والقول فيما وَرَدَ به التوفيق يُطْلَق ، وما سَكَتَ عنه التوفيق يُمْنَع . ويقال مَنْ كان الغالب عليه وصفٌ من صفاته ذَكَره بما يقتضى هذا الوصف ؛ فمن كان مكاشَفاً بعَطائه[2] ، مربوطَ القلبِ بأفضاله فالغالبُ على قالته الثناء عليه بأنه الوهاب والبار والمُعْطِى وما جرى مجراه . ومن كان مجذوباً عن شهود الإنعام ، مكاشَفاً بنعت الرحمة

---

(١) أخطأ الناسخ إذ زاد واواً قبل (ما كانوا) والصواب بدونها .

(٢) وردت (بغطائه) بالغين والصواب أن تكون (بعطائه) بدليل (افضاله) و (الإنعام) فيما بعد فضلا عن الأسماء والصفات الإلهية المختارة (الوهاب والبار والمعطى) .

فالذى يغلب على ذكره وصفه بأنه الرحمن والرحيم والكريم وما فى معناه . ومَنْ مُحِتْ همتُه عن شهود وجوده ، واستهلك فى حقائق وجوده فالغالب على لسانه الحق . ولذلك فأكثر أقوال العلماء فى الإخبار عنه : « البارىء » لأنهم فى الترقى فى شهود الفعل إلى شهودالفاعل . وأمَّا أهل المعرفة فالغالب على لسانهم « الحق » لأنهم[1] مُخْتَطَفُون عن شهود الآثار، متحققون بحقائق الوجود .

ويقال إنَّ الله — سبحانه — وقف الخلْق بأسمائه فهم يذكرونها قالةً ، وتعزَّزَ بذاته ، والعقول — وإنْ صَفَتْ — لا تهجم على حقائق الإشراف ، إذ الإدراك لا يجوز على الحق ؛ فالعقول عند بواده الحقائق متقنعة بنقاب الحيرة عند التعرض للإحاطة ، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات ، والأبصار حسيرةً عند طلب الإدراك فى أحوال الرؤية ، والحق سبحانه عزيز ، وباستحقاق نعوت التعالى مُتَفَرِّد[2] .

قوله « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » : الإلحاد هو الميل عن القصد ، وذلك على وجهين بالزيادة والنقصان ؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا ، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ وممَّنْ خَلَقْنا أُمَّة يَهْدُون بالحقِّ وبه يعْدِلُون ﴾

أجرى الحقُّ — سبحانه — سُنَّتَه بألا يُخْلِيَ البسيطةَ من أهل لها هم الغياث وبهم دوام الحق فى الظهور ، وفى معناه قالوا :

إذا لم يكن قطبٌ فمن ذا يديرها ؟

فهدايتهم بالحق أنهم يدعون إلى الحق ، ويدلون على الحق ، ويتحركون بالحق ، ويسكنون

---

(١) وردت (إليهم) ولا معنى لها فى السياق والصواب أن تكون (لأنهم) .

(٢) يلح القشيرى على هذا المعنى دائما فيقول فى تحديد العرفان (تنزه عن الدرك والوصول ، ليس بين الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالى فى شهود أفعاله ، فاما الوقوف على حقيقة إنيته فجلت الصمدية عن إشراف عرفان عليه) اللطائف (م) ص ٣٩٨ .

(٣) (لا تمثيل ولا تعطيل) هذا أصل من أصول المذهب الكلامى عند هذا الإمام .

للحق بالحق ، وهم قائمون بالحق ؛ يصرفهم الحق بالحق أولئك هم غياث الخلْق ؛ بهم يُسْقَوْنَ إذا قحطوا ، ويُمْطَرون إذا أجدبوا ، ويُجَابُون إذا دَعَوْا [1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأُمْلى لهم إنَّ كيدى متين ﴾

الاستدراج أن يلقى فى أوهامهم أنهم من أهل الوصلة ، وفى الحقيقة : السابقُ لهم من القسمة حقائقُ الفُرقة .

ويقال الاستدراجُ انتشار الصيت بالخير فى الخلْق ، والانطواء على الشر — فى السر — مع الحق .

ويقال الاستدراج ألا يزداد فى المستقبل صحبةً إلا ازداد فى الاستحقاق نقصان رتبة .

ويقال الاستدراج الرجوع من توهم صفاء الحال إلى ركوب قبيح الأعمال ، ولو كان صادقاً فى حاله لـكان معصوماً فى أعماله .

ويقال الاستدراج دعاوى عريضة صدرت عن معانٍ مريضة .

ويقال الاستدراج إفاضة البِّر مع (. . . .) [2] الشكر .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم مِنْ جِنَّة إنْ هوَ إلا نذيرٌ مبين ﴾

أو لم يتأملوا بأنوار البصائر ليشهدوا أخلاق آثار التقريب بجملة أحواله — عليه السلام — ليعلموا أن ذلك الشاهد ليس بشاهد متخرص .

ويقال إن برود [3] الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — كانت بنسيم القربة

---

(١) هذه نظرة القشيرى الى الولاية والأولياء ومعنى القطب وأهميته .

(٢) مشتبهة .

(٣) جمع بُرْد .

معطرة [1] ، ولكن لا يُدْرِكُ ذلك النَّشْرُ إلا بِشَمِّ العرفان ، فمَنْ فَقَدَ ذلك — فأى خبر [2] له عن حقيقة حاله — صلوات الله عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَ لم ينظروا فى ملكوتِ السمواتِ والأرض وما خَلَقَ اللهُ مِنْ شىءٍ ﴾

أطلع الله — سبحانه — أقمار الآيات ، وأماط عن ضيائها سحاب الشبهات ؛ فمَنْ استضاء بها ترقَّى إلى شهود القدرة .

ويقال ألاح الله تعالى — لقلوب الناظرين بعيون الفكر — حقائقَ التحصيل ؛ فمَنْ لم يُعَرِّج فى أوطان التقصير أَنْزَلَتْه مراكبُ السِّرِّ بساحات التحقق .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَنْ عسى أن يكونَ قد اقترب أَجَلُهم فبأىِّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾

الناس فى مغاليط آمالهم ناسون لو شيك آجالهم ، فكم من ناسجٍ لأكفانه ! وكم من بانٍ لأعدائه ! وكم من زارعٍ لم يحصد زرعه !

هيهات ! الكبش يعتلف والقَصَّابُ مُسْتَعِدٌّ له !

ويقال سرعة الأَجَل تُنغِّص لذة الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يُضْلِلْ اللهُ فلا هَادِىَ له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

مَنْ حَرَمَه أنوارَ التحقيق فهو فى ضباب الجهل ، فهو يَزِلُّ يميناً ويسقط شمالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مُرساها قُلْ إنما علمُها عند ربى لا يجلِّيها لوقتِها إلا هو ، ثَقُلَتْ فى السمواتِ والأرضِ لاتأتيكم إلا بَغْتَةً ، يسألونك

(١) وردت (مطرة) بدون عين ، والسياق يتطلب (معطرة) لتناسب النسيم والشم والنشر .

(٢) وردت (خير) والمقصود فاى (خبر) أى فاى علم له عن حقيقة المصطفى (ص) .

كأنك حفيٌّ عنها قلْ إنَّما علمها عند الله ،
ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾

السائلُ عن الساعةِ رجلان ؛ منْكِرٌ يتعجبُ لفَرْطِ جهله ، وعارفٌ مشتاقٌ يستعجل لِفَرْطِ شوقه ، والمتحقق بوجوده ساكنٌ فى حاله ؛ فسيان عنده قيام القيامة ودوام السلامة .

ويقال الحق — سبحانه — استأثر بعلم الساعة ؛ فلم يُطلِعْ على وقتها نبيًّا ولا صفيًّا ، فالإيمان بها غيبيٌّ ، ويقين أهل التوحيد صادق[1] عن شوائب الرِّيَب . ثم مُعَجَّلُ قيامتهم يُوجِبُ الإيمانَ بمؤَجَّلها[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لا أملِكُ لنفسى نفعاً ولا ضَراً
إلا ماشاء اللهُ ، ولو كنتُ أعلم
الغيبَ لاستكثرتُ من الخير ،
وما مَسَّنِيَ السُّوء إنْ أنا إلا نذيرٌ
وبشيرٌ لقومٍ يؤمنون ﴾

أمَرَه بتصريح الإقرار بالتبرى عن حوله ومُنَّتِه ، وأن قيامه وأمرَه ونظامَه بطوْل ربِّه ومنَّتِه ؛ ولذلك تتجنَّسُ علىَّ الأحوال ، وتختلف الأطوار ؛ فَمِنْ عُسْرٍ[3] يَمَسُّني ، ومِنْ يسرٍ[4] يخصني ، ولو كان الأمر بمرادى ، ولم يكن بيدِ غيرى قيادى لتشابهت أحوالى فى اليسر ، ولتشاكلت أوقاتى فى البعد من العسر .

قوله جل ذكره ﴿ هو الذى خلقكم مِنْ نَفْسٍ واحدة
وجعل منها زوجها ﴾

أخرج النَّسَمة من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة ، وهممهم متباينة ؛ كما أن الشخص من

---

(١) ربما كانت (صاف) فى الأصل

(٢) القيامة المعجلة التى يشير إليها هى (التى تقوم فى اليوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) اللطائف (م) ٣٥١ ، فالمقصود من العبارة إذاً أن أهل الخصوص يؤمنون إيمان يقين بالقيامة المؤجلة لأنهم يشهدون ويذوقون القيامة المعجلة ، وقد صدق القشيرى إذ يقول فى رسالته : (فما للناس غيب فلهم ظهور) الرساله ص ١٩٨ .

(٣) وردت (عصر) . (٤) وردت (يستر) وقد صوبناها (عسر ويسر) فى ضوء ما قالاها .

نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة . فمَنْ قَدرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها فهو القادر على تنويع أخلاق الخلْق الذين أخرجهم من نَفْس واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَسْكُنَ إليها فلمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فَمَرَّتْ به فلمَّا أثقلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما لئن آتيْتَنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾

ردَّ المِثْل إلى المِثْل ، وربط الشَّكلَ بالشكل ، ليَعْلَمَ العالمون أن سكون الخلْق مع الخلق لا إلى الحق ، وكذلك أنسل الخلْق من الخلق لا من الحق ، فالحقُّ تعالى قدوس ؛ منه كل حظ للخلق خلْقا ، منزه عن رجوع شيء إلى حقيقته حقاً .

قوله جل ذكره ﴿ فلمَّا آتاهُمَا صالحاً جَعَلاَ له شركاء فيما آتاهما فتعالى اللهُ عما يُشْرِكون ﴾

شرُّ الناس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدعاء ، وشدة التضرع والبكاء ، فإذا أزيلت شكاتُه ، ودُفعت — بمِنَّته — آفاتُه ضيعَّ الوفاء ، ونَسِيَ البلاء ، وقابل الرِّفْدَ[1] بنقْضِ العهد ، وأبدل العقد برفض الود ، أولئك الذين أبعدهم الله فى سابق الحكم ، وخرطهم فى سِلْك أهل الرد[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أيُشْرِكون مالا يَخْلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقون ﴾

كما لا يجوز أن يكون الربُّ مخلوقاً لا يجوز أن يكون غير الرب خالقاً ، فمَنْ وَصفَ الحقَّ بخصائص وصف الخلْق فقد ألْحَدَ ، ومَنْ نَعَتَ الخَلْقَ بما هو من خصائص حق الحق فقد جحدَ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يستطيعون لهم نَصْراً ولا أنْفُسَهُمْ يَنْصُرون ﴾

مَنْ حَكَمَ بأنه ليس فى مقدور الحق شيء (لو فعله اسم الجاهل طوعاً إلا فعله)[3] فقد

---

(١) (الرفد) هو العطاء .

(٢) وردت (الود) وهى خطأ فى النسخ

(٣) ما بين القوسين جاء فى النسخة المصورة هكذا ، وفيه غموض ربما نشأ عن خطأ فى النسخ .

وصف بأنه لا يقدر على نصره فَمُضاَهٍ الذى يعبد الجماد ، ونعوذ بالله من الضلالة عن الرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَدْعُوهُم إلى الهُدَى لايَتَّبِعُوكم سَوَاءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾

المعبودُ هو القادر على هداية داعيه ، وعِلْمُ العبد بقدرة معبوده يوجِبُ تَبرِّيه عن حوْله وقوته ، وإفرادَ الحق — سبحانه — بالقدرة على قضاء حاجته ، وإزالة ضرورته فتتقاصر عن قَصْدِ الخلْق خطاه[1] ، وتنقطع آماله عن غير مولاه

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين تدعون مِنْ دون الله عِبادٌ أمثالُكم،فادعوهم فلْيَسْتَجِيبُوا لكم إنْ كنتم صادقين ﴾

إذا قُرِنَتْ الضرورةُ بالضرورةِ تضاعف البلاء ، وترادف العناء ؛ فالمخلوق إذا استعان بمخلوقٍ مثلِه ازداد بُعْدُ مرادِه عن النُّجح . وكيف تشكو لمن هو ذو شكاية ؟! هيهات ! إن ذلك خطأ من الظن ، وباطل من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿ ألَهُمْ أرْجُلٌ يمشون بها أمْ لهم أيدٍ يَبْطِشُون بها أمْ لهم أعينٌ يُبْصِرون بها ، أمْ لهم آذانٌ يسمعون بها ﴾

بيَّن بهذه الآيات أن الأصنام التى عبدوها دونَهم فيما اعتقدوا فيه صفة المدح ، ثم لم يعبد بعضهم بعضاً ، فكيف استجازوا عبادةَ ما فاقهم[2] فى النقص ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا شُركاءَكم ثم كيدونِ فلا تُنْظِرُونِ ﴾

---

(1) وردت (خطاؤه) والصواب أن تكون (خطاه)

(2) وردت (فوقهم) والأرجح أنها ما (فاقهم) فى النقص لأن الأصنام أقلّ قدراً من الإنسان ، حيث لا تملك يداً او عيناً أو أذناً ، ولاتعى ولا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فإذا كان الإنسان مع ذلك موصوفاً بالنقص فالصنم أشد نقصاً .

صدق التوكل على الله يوجب ترك المبالاة بغير الله ، كيف لا .. والمتفرِّدُ بالقدرة — على النفع والضرر ، والخير والشر — اللهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ وَليِّيَ اللهُ الذى نَزَّلَ الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين * والذين تدعون مِنْ دونه لا يستطيعون نصرَكم ولا أنفُسَهم يَنْصُرون ﴾

مَنْ قام بحقٍّ الله تولَّى أمورَه على وجه الكفاية ، فلا يخرجه إلى أمثاله ، ولا يَدَعُ شيئاً من أحواله إلاَّ أجراه على ما يريده بِحُسْنِ أفضاله ، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبدَ راضياً بما يفعل ، ورَوْحُ الرضا على الأسرار أتَمُّ من راحة العطاء على القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَدْعُوهم إلى الهدَى لا يسمعوا ، وتراهم يَنْظرون إليكَ وهم لا يُبْصِرون ﴾

شاهدوه بأبصارهم لكنهم حُجِبُوا عن رؤيته ببصائر أسرارهم وقلوبهم فَلَمْ يُعْتَدَّ برؤيتهم .

ويقال رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم ، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب ، وذلك على مقادير الاحترام وحصول الإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ العفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين ﴾

من خصائص سُنَّةِ الله فى الكرم أنه أمر نبيَّه — صلوات الله عليه وعلى آله — بالأخذ به ، إذ الخبر وَرَدَ بأنَّ المؤمن أخذ من الله خُلُقاً حسناً . وكلما كان الجُرْمُ أكبرَ كان العفو عنه أجزَّ وأكمل ، وعلى قَدْرِ عِظَمِ رتبة العبد فى الكرم يتوقف العفو

عن الأصاغر والخدم، قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الجراحات[1] التى أصابته فى حرب أُحُد : « اللهم اغفِرْ لقومى فإنهم لا يعلمون » .

قوله « وَأْمُرْ بالعُرْفِ » : أفضل العرف أن يكون أكمل العطاء لأكثر أهل الجفاء ، وبذلك عامل الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله ـ الناسَ .

قوله : « وأعْرِض عن الجاهلين » : الإعراض عن الأغيار بالإقبال على من[2] لم يَزَلْ ولا يزال ، وفى ذلك النجاة من الحجاب ، والتحقق بما يتقاصر عن شرحه الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ ، فاستَعِذْ باللهِ إنَّه سميعٌ عليم ﴾

إنْ سَنَح فى باطنك من الوساوس أثرٌ فاستعِذْ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وإنْ هَجَسَ فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعِذْ بالله يدركك بإزالة كل نصيب ، وإنْ لَحِقَتْكَ فى بذل الجهد فَتْرَةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه ، وإنْ اعترتْكَ فى الترقى إلى محل الوصول وقفةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التحقيق ، وإنْ تقاصر عنك شىء من خصائص القرب — صيانةً لك عن شهود المحل — فاستعِذْ بالله يُثْبِتْك له بدلاً مِنْ لَكَ بِكْ[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشيطانِ تذكَّروا فإذا هم مُبْصِرُون ﴾

إنما يمس المتقين طيفُ الشيطانِ فى ساعات غفلتهم عن ذكر الله ، ولو أنهم استداموا

---

(١) وردت (الجراهات) بالهاء وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (ما لم يزل) وقد آثرنا (من لم يزل) لأن (من) للعاقل

(٣) تصلح هذه الفقرة وصية للمريدين ، وتبين عن أسلوب القشيرى فى الوصية من الناحيتين الصوفية والأدبية .

ذكر الله بقلوبهم لما مسَّهم طائف الشيطان ، فإن الشيطانَ لا يَقرَبُ قلباً فى حال شهوده الله ، لأنه ينخنس عند ذلك . ولكل لكل صارمٍ نبوة ، ولكلِّ عالمٍ هفوة ، ولكل عابدٍ شدة ، ولكل قاصدٍ فترة ، ولكل سائر وقفة ، ولكل عارفٍ حجبة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه ليُغان على قلبي . . . . »[1] أخبر أنه يعتريه ما يعترى غيرَه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الحِدَّةُ تعترى خيار أمتى »[2] ، فأخبر أنَّ خِيارَ الأمة — وإنْ جَلَّتْ رُتْبَتهم لا يتخلصون عن حِدَّةٍ تعتريهم فى بعض أحوالهم ، فتخرِجُهم عن دوام الحِلْم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإخوانُهم يَمُدُّونَهم فى الغَيِّ ثم لا يُقْصِرون ﴾

إخوانُ الشيطانِ أربابُ دوام الغيبة ؛ فهم فى كمال الغفلة تدوم بهم الحجبة ؛ فمنهم بالزَّلَّة مَنْ لم يُلِمّ ، أو أَلَمَّ ولكن لم يُصِرّ فهم خِياره[3] ، ومنهم مَنْ غَفَلَ واغترَّ ، وعلى دوام الغيبة أَصَرَّ — فهم المحجوبون قطعاً ، والمُبْعَدُون[4] — عن محلِّ القربِ — صدًّا[5] وردًّا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لم تَأْتِهم بآيةٍ قالوا لولا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إنَّما أَتَّبِع مايوحى إلىَّ مِنْ ربى ، هـذا بصائرُ مِن

---

(١) « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة »
أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، وفى رواية لمسلم : « توبوا الى ربكم فوالله إنى لأتوب إلى ربي تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة »
ويقول صاحب اللمع : الغين الذى كان يتوب منه الرسول مثله مثل المرآة اذا تنفس فيها الناظر فينقص من ضوئها ثم تعود إلى حالة ضوئها (اللمع ص ٤٥١) .

(٢) قال (ص) (انى بشر أغضب كما يغضب البشر) الشيخان عن أبى هريرة وأحمد ومسلم عن جابر

(٣) من هذا يتضح مدى انفساح الأمل أمام العصاة ، وكيف أن باب التوبة يتسع لآمالهم .

(٤) وردت المعبودون وهى خطأ فى النسخ

(٥) وردت (صمد) وهى خطأ فى النسخ وقد تقدم معنى الصد والرد

ربِّكم وهُدًى وَرَحْمَةٌ لقومٍ
يؤمنون ﴾

مَنْ شاهَدَ الحقَّ من حيث الخَلْق سقط فى مهواة المغاليط ، فهو فى متاهات الشَّكِّ يجوب منازلَ الرِّيَب ، ولا يزداد إلا عمىً على عمىً . ومَنْ طالَعَ الخَلْق بمين تصريف القدرة إياهم تحقق بأنهم لا يظهرون إلا فى معرض اختيار الحق لهم ، فهو ينظر بنور البصيرة ، ويستديم شهود التصريف بوصف السكينة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاستَمِعُوا له
وأَنْصِتوا لعلكم تُرْحَمُون ﴾

اِسْتَمِعُوا بسمعِ الإيمان والتصديق ، وأَنْصِتوا (بصون) الخواطر عن معارضات الاعتراض ، ومطالبات الاستكشاف . ومن باشرَ التحقيقُ سِرَّه لازم التصديقُ قلبَه .

والإنصات — فى الظاهر — من آداب أهل الباب ، والإنصات — بالسرائر — من آداب أهل البِساط ، قال الله تعالى فى نعت تواصى الجنِّ بعضهم لبعض عند شهود الرسول صلى الله عليه وسلم « فلما حضروه قالوا أنصتوا »[1] ، فإذا كان الحضور إلى الواسطة عليه السلام يوجب هذه الهيبة فلزومُ الهيبة وحفظُ الأدب عند حضور القلب بشهود الربِّ أولى وأحق ، قال تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً »[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكُرْ ربك فى نفسك تضرعاً
وخِيفةً ودونَ الجهر من القول بالغُدُوِّ
والآصال ولا تكن من
الغافلين ﴾[3] .

التضرعُ إذا كوشِفَ العبدُ بوصف الجمال فى أوان البسط ، والخيفة إذا كوشف بنعت الجلال فى أحوال الهيبة ، وهذا للأكابر .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .
(٢) آية ١٠٨ سورة طه .
(٣) أخطأ الناسخ اذ كتبها (الغافلون)

فأمَّا مَنْ دونَهم فتَتَنَوَّعُ أحوالهم من حيث الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . ومن فوق الجميع فأصحاب البقاء والفناء ، والصحو والمحو ووراءهم أرباب الحقائق مُثْبَتُون فى أوطان التمكين ، فلا تَلَوُّنَ لهم ولا تجنُّسَ لقيامِهم بالحق ، وامتحائهم عن شواهدهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين عند ربِّك لا يستكبرون عن عبادته ويُسَبِّحُونه وله يسجدون ﴾ .

أثبت لهم عندية الكرامة ، وحفظ عليهم أحكام العبودية لئلا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقهم[1] ، وهذه سُنَّة الله تعالى مع خواص عباده ، يلقاهم بخصائص عين الجمع ويحفظ عليهم حقائق عين الفَرْق لئلا يُخِلُّوا بآداب العبودية فى أوان وجود الحقيقة[2] .

السورة التى تذكر فيها الأنفال

قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله إخبار عن قدرته على الإبداع والاختراع ، الرحمن الرحيم إخبار عن تصرفه بالإقناع وحُسْنِ الدِّفاع ؛ فبقدرته أوجد ما أوجد من مراده ، وبنصرته وَحَّد مَنْ وحَّد

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونَكَ عن الأنفالِ قل الأنفالُ لله والرسولِ ﴾ .

الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين ، وكان سؤالهم عن حكمها ، فقال الله تعالى : قُلْ لهم إنها لله مِلْكًا ، ولرسوله — عليه السلام — الحُكْمُ فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً .

---

(١) وردت فوقهم بالواو والصواب (فرقهم) بالراء ، فالكلام عن الجمع والفرق .

(٢) لاحظ هنا كيف يلح القشيرى دائماً على عدم الإخلال باى شرط من شروط الشريعة مهما أوغل العبد فى الفناء ، بل يعتبر حفظ الله لعبده في هذه المرحلة الحاسمة علامة صدق العبد وآية خصوصيته .

قوله جل ذكره : ﴿فاتقوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكم﴾.

أى أجيبوا لأمر الله ، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالكم ، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِّ على مراد النَّفْس ، وأصلحوا ذات بَيْنِكم ، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس ، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ :

أى فى الإجابة إلى ما يأتيكم من الإرشاد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ كنتم مؤمنين ﴾ :

أى سبيلُ المؤمنِ ألا يخالفَ هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زَادَتْهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾ .

الوَجَل شِدَّة الخوف ، ومعناه ها هنا أَنْ يُخْرِجَهم الوَجَلُ عن أوطان الغفلة ، ويزعجهم عن مساكن الغيبة . فإذا انفصلوا عن أوْدية التفرقة وفاءوا إلى مَشَاهِدِ الذكر نالوا السكون إلى الله — عز وجل ؛ فيزيدُهم مايُتْلَى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق ، وتحقيقاً على تحقيق. فإذا طالعوا جلال قَدْرِهِ ، وأيقنوا قصورَهم عن إدراكه ، توكلوا عليه فى إمدادهم بالرعاية فى نهايتهم ، كما استخلصهم بالعناية فى بدايتهم .

ويقال سُنَّة الحقِّ — سبحانه — مع أهل العرفان أن يُرَدِّدَهم بين كَشْفِ جلالٍ ولُطْفِ جمال ، فإذا كاشفهم بجلاله وَجِلَتْ قلوبُهم ، (وإذا لاطفهم بجماله سَكَنَتْ قلوبهم ، قال الله تعالى : « ولتطمئن قلوبهم بذكر الله » . ويقال وجلت قلوبهم)[1] بخوف فراقه ، ثم تطمئن وتسكن أسرارهم بروْح وصالهِ . وذكر الفراق يُفْنِيهم وذكر الوصال يُصْحِيهم ويُحْيِيهم .

(١) ما بين القوسين مذكور فى الهامش أثبتناه فى موضعه من النص حسب العلامة المميزة .

ويقال الطالبون فى نَوْحِ رهبتهم ، والواصلون فى روْح قربتهم ، والموحِّدون فى محو غيبتهم ؛ استولت عليهم الحقائق فلالهم تطلع لوقتٍ مستأنف فيستفزهم خوف أو يجرفهم طمع ، ولا لهم إحساس فتَمْلِكهم لذة ؛ إذ لمَّا[1] اصْطلِمُوا ببوادهِ ما مَلَكهُمْ فَهُمْ عنهم مَحْوٌ ، والغالبُ عليهم سواهم .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حَقّاً لهم درجاتٌ عنــد ربِّهم ومغفِرةٌ ورِزقٌ كريم ﴾

لا يرضَوْن فى أعمالهم بإخلال ، ولا يتصفون بجمْعِ مال من غير حلال ، ولا يُعَرِّجون فى أوطان التقصير بحال ، أولئك الذين صفتهم ألا يكون للشريعة عليهم نكير ، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل .

« فهم المؤمنون حقاً » أى حققوا حقاً وصدقوا صدقاً . ويقال حق لهم ذلك حقاً .

قوله : « لهم دَرَجاتٌ عند ربِّهم » على حسب ماأَهَّلَهُمْ له من الرُّتَبِ ؛ فبِسَابق قِسْمَتِه لهم استوجبوها ، ثم بصادقِ خِدْمَتِهم — حين وفَّقهم لها — بلغوها .

ولهم مغفرةٌ فى المآل ، والسَّتْرُ فى الحال لأكابرهم ؛ فالمغفرة الستر ، والحق سبحانه يستر مثالبَ العاصين ولا يفضحهم لئلا يحجبوا عن مأمول أفضالهم ، ويستر مناقبَ العارفين عليهم لئلا يُعْجَبُوا بأعمالهم وأحوالهم ، وفَرْقٌ بين سَتْرٍ وَسَتْرٍ ، وشتَّان ماهما !

وأمَّا الرزق الكريم فيحتمل أنه الذى يعطيه من حيث لا يحْتَسَبُ ، ويحتمل أنه الذى لا يَنْقُصُ بإجرامهم ، ويحتمل أنه مالا يشغلهم بوجوده عن شهود الرزاق ، ويحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالها به من المكاشفات .

قوله جل ذكره : ﴿ كما أخْرجَكَ ربُّك مِنْ بيتِكَ بالحقِّ وإنَّ فريقاً مِنَ المؤمنين لكارِهون ﴾

---

(١) وردت (لم) والسياق يقتضى (لما) .

بَيَّنَ — سبحانه — أن الجدالَ منهم عادة وسَجِيَّة ، ففى كل شىء لهم جدال واختيار ؛ فكرِهُوا خروجَه إلى بدْرٍ كما جادلوا فى حديث الغنيمة ، قال تعالى: « يسألونك عن الأنفال» وما يكون من خصال العبد غير متكرر ويكون على وجه الندرة كان أقربَ إلى الصفح عنه والتجاوز ، فأمَّا إذا صار ذلك عادةً فهو أصعب .

ويقال مالم تباشر خلاصةُ الإيمان القلبَ لا يوجد كمالُ التسليم وترك الاختيار ، وما دام يتحرك من العبد عِرْقٌ فى الاختيار فهو بعيدٌ عن راحة الإيمان .

ولقد أجرى الله سُنَّتَه مع أوليائه ، وكذلك كانت سُنَّتُه مع أنبيائه ألا يفتح لهم كمالَ النُّعمى إلا بعد مفارقة مألوفات الأوطان ، والتجرد عن مساكنة مافيه[1] حظ ونصيب مِنْ كل معهود

ويقال إن فى هجرة الأنبياء — عليهم السلام — عن أوطانهم أماناً لهم من عادية الأعادى ، وإحياءً لقلوب قومٍ تقاصرت أقدامُهم عن المسير[2] إليهم .

وكذلك هجرة الأولياء من خواصه ؛ فيها لهم خلاصٌ من البلايا ، واستخلاصٌ للكثيرين من البلايا .

قوله جل ذكره : ﴿ يجادِلونكَ فى الحقِّ بعدما تبيَّن
كأنّما يُساقون إلى الموتِ
وهم يَنظُرُون ﴾

جحودُ الحقِّ بعد وضوح برهانه عَلَمٌ[3] لاستكبار صاحبه ، وهو — فى الحال — فى وحشة غَيِّه ، مُعاقَبٌ بالصد وتَنغُّص العَيْشِ ، يَمَلُّ حياتَه ويتمنى وفاتَه ؛ « كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يَعِدُكُم اللهُ إحدى الطائفتين
أنَّها لكم وتودُّون أنَّ غيرَ ذات
الشوكةِ تكون لكم ويريد الله أن

---

(١) وردت (ما لم فيه) وربما كانت (ما لهم فيه)
(٢) وردت (المصير) والصحيح (مسير) الذين لم تتح لهم فرصة الانتقال إلى أماكن الأنبياء .
(٣) ضبطنا (علم) هكذا لكي تؤدى معنى (علامة) على الاستكبار ، فهكذا يتطلب السياق .

يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابرَ
الْـكافِرِينَ ﴾

التعريجُ فى أوطان الـكسل ، ومساكنة مألوفات الراحة من خصائص أحكام النَّفْس ، فهى بطبعها تؤثر فى كل حالٍ نصيبهَا ، وتتعجل لذَّةَ حظِّها . ولا يصل أحدٌ إلى جلائل النِّعم إلا بتجرُّع كاسات الشدائد ، والانسلاح عن معهودات النصيب . « ويريد الله أَنْ يُحَقَّ الحق بكلماته » أى إذا أراد اللهُ — سبحانه — تخصيصَ عبدٍ بولايته قضى على طوارقِ نفسه بالأُفول ، وحكم لبعض شهواته بالذبول ، وإلى طوالع الحقائق بإشراقها ، ولجوامع الموانع باستحقاقها .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ
ولو كَرِهَ المجرمون ﴾

ليحق الحقَّ بالتوفيق فيما يحصل ببذل المجهود ، والتحقيق لما يظهر من عين الجود .

ويقال لِيُحِقِ الحقَّ بنشر أعلام الوصل ، ويُبْطِلَ الباطلَ بقهر أقسام الهزل .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تستغيثون ربَّـكم فاستجابَ لـكم
أَنِّى مُمِدُّكم بألفٍ من الملائـكة
مُرْدِفِين * وما جعله الله إلا بُشْرى
ولتطمئِنَّ به قلوبُـكم وما النَّصرُ إلا مِنْ
عند اللهِ إنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

الاستغاثة على حسب شهود الفاقة وعدم المنة والطاقة . والتحقق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشـكاة تيسيرٌ للمسئول وتحقيق للمأمول . فإذا صدقت الاستغاثة بتَعَجُّلِ الإجابة حَصُلَتْ الآمالُ وقُضِيَتْ الحاجة . . بذلك جرَتْ سُنَّتُهُ الـكريمة .

ويقال بَشَّرَهم بالإمداد بالمَلَك ، ثم رقَّاهم عن هذه الحالة بإشهادهم أن الإنجاز من المَلِكِ ، ولم يَذَرْهم فى المساكنة إلى الإمداد بالمَلَك فقال : « وما النصر إلا من عند الله » ثم قال : « إن الله عزيز » فالنجاة من البلاء حاصلة ، وفنون الإنجاز والإمداد بالطاقة متواصلة ، والدعوات مسموعة ، والإجابة غير ممنوعة ، وزوائد الإحسان مُتَاحة ، ولـكن الله عزيز .

الطالبُ واجدٌ ولكن بعطائه، والراغب واصل ولكن إلى مبارّه . والسبيلُ سهلٌ ولكن إلى وجدان لطفه، فأمّا الحقُّ فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقُرْبٍ وبُعْد، وما وَصلَ أحدٌ إلا إلى نصيبه، وما بقى أحدٌ إلا عن حظه، وفى معناه أنشدوا :

وقُلْنَ لنـا نحن الأهِلَّةُ إنما نضىء لمن يسرى بليلٍ ولا نُقْرِى

فلا بَذْلَ إلا ما تزوَّدَ ناظرٌ ولا وصلَ إلا بالجمال الذى يسرى

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يغشِّيكُم النُّعَاسَ أَمَنَةً منه ويُنَزِّلُ عليكم مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكم به ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطانِ ولِيَرْبِطَ على قلوبكم ﴾

غَشِيَهم النُّعاسُ تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم(١) ونفوسهم كَدَّ الأغيار والكلال، وأنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لزمتهم الطهارة الكبرى بسبب الاحتلام، واشتدت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدام فى رَملها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشياطين توسوس به إليهم أنه سيصيبهم العناء بسلوك رَمْلِها وبالانتفاء عن الغُسْل، فلمّا (. . . . .)(٢) الإحساس، واستمكن منهم النُّعاس، وتداركتهم الكفاية والنصرة استيقنوا بأن الإعانة من قِبَل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأشهدهم صرف التأييد وإتمام الكفاية

وكما طَهَّرَ ظواهرهم بماء السماء طهَّر سرائرهم بماء التحقيق عن شهود كلِّ غير وكلِّ عِلَّة، وصان أسرارهم عن الإصغاء إلى الوساوس، وربط على قلوبهم بشهودهم جريان التقدير على حسب ما يجرى الحقُّ من فنون التصريف .

قوله جل ذكره : ﴿ ويُثَبِّتَ به الأقدامَ ﴾ .

---

(١) وردت (زواهرهم) والصواب أن تكون (ظواهرهم) لتتلاءم مع (نفوسهم)
(٢) مشتبهة وربما كانت (زايلهم)

أقدامَ الظاهر فى مَشاهِدِ القتـال ، وأقدامَ السرائر على نهج الاستقامة بشهود مجارى التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ يُوحِى ربُّكَ إلى الملائـكةِ أنِّى مَعَـكُمْ فَثَبِّتُوا[1] الذين آمَنُوا سأُلْقِى فى قلوبِ الذين كفروا الرُّعْبَ ﴾ .

عَرَّفَنَا أنَّ الملائـكة محتاجون إلى تعريف الحق إياهم قضايا التوحيد . وتثبيتُ الملائـكة للمؤمنين : قيل كانوا يَظْهَرُون للمسلمين فى صور الرجال يخاطبونهم بالإخبار عن قلة عدد المشركين واستيلاء المسلمين عليهم ، وهم لا يعرفون أنهم ملائـكة .

وقيل تثبيتهم إياهم بأن كانوا يلقون فى قلوبهم ذلك مِنْ جهة الخواطر ، ثم إن الله يخلق لهم فيها ذلك ، فـكما يُوَصِّلُ الحق سبحانه — وساوسَ الشيطان إلى القلوب يوصل خواطرَ المَلَكِ ، وأَيَّدَهم بإلقاء الخوف والرعب فى قلوب الـكفار .

قوله جل ذكره : ﴿ فاضرِبوا فوقَ الأعناق واضربوا منهم كلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه ﴾ .

وذلك بأمر الله وتعزيفه من جهة الوحى والـكتاب ، ويكون معناه إباحة ضربهم ونيلهم على أى وجه كان كيفما أصابوا أسافلهم وأعاليهم . ويحتمل فاضربوا فوق الأعناق ضرباً يوجِبُ قتلَهم ؛ لأنه لا حياةَ بعد ضَرْبِ العُنُقِ ، ولفظُ فوق يكون صلة .

« واضربوا منهم كُلَّ بنان » أى ضرباً يُعْجِزهم عن الضرب ومُقَاتَلَةِ المسلمين ؛ لأنه لا مقاتلةَ تحصل بعد فوات الأطراف .

« ذلك بِأَنَّهُمْ شاقوا الله ورسوله » بَيَّنَ أنهم فى مَغاليط حسبانهم وأكاذيب ظنونهم . والمُنْشِىء — بكلِّ وجهٍ — اللهُ ؛ لانفراده بقدرة الإيجاد .

---

(١) أخطأ الناسخ فـكتبها (فثبت)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يشاقِقْ اللهَ ورسولَه فإنَّ اللهَ شديدُ العقاب ﴾ .

يُمْهِلُ المجرمَ[1] أياماً ثم لا يهمله ، بل يُذِيقه بأْسَ فعله ، ويزيل عنه شُبْهَةَ ظَنِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذابَ النار[2] ﴾ .

ذلكم العذاب فذوقوه — أيها المشركون — مُعَجَّلاً ، واعلموا أن للكافرين عذاباً مُؤَجَّلاً ، فللعاصين عقوبتان مُحَصَّلٌ بنقد ومؤخَّرٌ بوعد .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا[3] إذا لقيتُم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ ومَنْ يُوَلِّهِم يومئذ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغَضَبٍ مِنَ اللهِ ومأواه جهنَّمُ وبئس المصير ﴾ .

يقول إذا لقيتم الكفار فى المعركة زحفاً مجتمعين فاثبتوا لقتالهم ، ولا تنهزموا فالشجاعة ثبات القلوب ، وكما قيل الشجاعة صبر على الطاعة وفى الجهاد مع العدو ، فالواجب الثبات عند الصولة — هذا فى الظاهر ، وفى الباطن جهاد مع الشيطان ، والواجب فيه الوقوف عن دواعيه إلى الزَّلة ، فَمَنْ وقَفَ على حدِّ الإمساك عن إجابته ، بلا إنجازٍ لما يدعوه بوساوسه فَقَدْ وفَّى الجهاد حقَّه .

وكذلك فى مجاهدة النَّفس ، فإذا وقف العبدُ عن إجابة النَّفْس فيما تدعوه بهواجسها ،

---

(١) وردت (المحرم) بالحاء وهى خطأ فى النسخ
(٢) أخطأ الناسخ إذ جعلها (عذاباً أليما) .
(٣) سقطت (آمنوا) من الناسخ فأثبتناها

ولم يُطِع[1] شهوتَه فيما تحمله النفسُ عليه من البلاء إلى ابتغاء حظِّه فقد وفَّى الجهادَ حقَّه .

والإشارة فى قوله : « إلا متحرِّفاً لقتال » بإيثار بعض الرُّخص ليتقوَّى على ما هو أشد ؛ كأكْله مثلاً ما يقيم صُلْبَه ليقوى على السَّهر ، وكترفقه بنفسه بإيثار بعض الراحة من إزالة عطش ، أو نفى مقاساة جوع أو بَرْدٍ أو غيره لئلا يبقى عن مراعاة قلبه ، ولاستدامة اتصال قلبه به ، فإنْ تَرْكَ بعضَ أورادِ الظاهر لئلا يبقى به عن الاستقامة فى أحكام واردات السرائر أَخذَ فى حقِّ الجهاد بحزمٍ .

والإشارة فى قوله : «أو متحيزاً إلى فئة» إلى اعتضاد المريد بصحبة أقرانه فيما يساعدونه فى المجاهدة ، ويُبْقِى شهودُ ماهم فيه من المكابدة من إقامته على مجاهدته . ثم باستمداده من همم الشيوخ،فإن المريدَ ربيبُ همَّةِ شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهم من نعمهم ، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هِمَمِهم ؛ يجبرون[2] كَسْرَهم ، ويتوبون منهم ، ويساعدونهم بحسن إرشادهم . ومَنْ أهمل مريداً وهو يعرف صِدْقه ، أوخالَفَ شيخاً وهو يعرف فضلَه وحَقَّه فقد باَء من الله بسخطٍ ، واللهُ تعالى حسيبُه فى مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ فلم تقتلوهم ولـكنَّ اللهَ قَتَلَهم ﴾

الذى نَفَى عنهم من القتل هو إماتة الروح وإثبات الموت ، وهو من خصائص قدرته — سبحانه ، والذى يُوصَفُ به الخلْق من القتل هو ما يفعلونه فى أنفسهم ، ويحصل ذهاب الروح عقيبه .

وفائدة الآية قطع دعاواهم فى قول كل واحد على جهة التفاخر قتلتُ فلاناً ، فقال : « فلم تقتلوهم » أى لم تـكن أفعالـكم مما انفردتم بإيجادها بل المنشىء والمبدىء[3] هو الله عزَّ وجل . وصانَهم بهذه الآية وصان نبيَّه — عليه السلام — عن ملاحظة أفعالهم وأحوالهم .

---

(١) وردت (لم يطلع) وهى خطأ فى النسخ

(٢) وردت (يخبرون) والمناسب للكسر (يجبرون)

(٣) وردت (المهدى) بالهاء وقد جعلناها (المبدى) لأن الـكلام متجه إلى الإنشاء والإيجاد والإبداع والخلق .

وكذلك قال جل ذكره : ﴿ وما رمَيْتَ إذ رمَيْتَ ولـكنَّ الله رمى ﴾

أى ما رَمَيْتَ بنفسك ولـكنك رمَيْت بنا ، فـكان منه (صلوات الله عليه)[1] قبضُ التراب وإرساله من يده ولـكن من حيث الـكسب ، وكَسْبُه مُوجَدٌ من الله بقدرته ، وكان التبليغ والإصابة مِن قِبَل الله خَلْقًا وإبداعًا ، وليس الذى أثبت ما نفى ولا نفى ما أثبت إلا هو ، والفعلُ فِعْلُ واحدٍ ولـكن التغاير فى جهة الفعل لا فى عينه .

فقوله : « إذ رميت » فَرْقٌ ، وقوله : « ولـكن الله رمى » جمع . والفرق صفة العبودية ، والجمع نعت الربوبية ، وكلُّ فرقٍ لم يكن مُضَمَّناً بجمعٍ وكلُّ جمع لم يكن — فى صفة العبد — مُؤَيَّداً بفرق فصاحبُه غير سديد الوتيرة .

وإن الحقَّ — سبحانه — يَكِلُ الأغيار إلى ظنونهم ، فيتيهون فى أودية الحسبان ، ويتوهمون أنهم منفردون بإجراءِ ما منهم ، وذلك منه مكرٌ بهم .

قال الله تعالى : « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »[2] وأما أرباب التوحيد فَيُشْهِدهم مطالِعَ التقدير ، ويعرِّفهم جريان الُحكْم ، ويُريهم أنفُسَهم فى أَسْرِ التصريف، وقهر الحـكْم . وأمَّا الخواص من الأولياء وأصحاب العرفان فيُجرِى عليهم ما يُجْرِى و (ما)[3] لهم إحساس بذلك ، مأخوذون يثبتهم بشواهد النظر والتقدير ، ويتولَّى حفظهم عن مخالفة الشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَنًا ﴾

البلاء الاختبار[4] ، فيختبرهم مرة[5] بالنعم ليظهر شكرهم أو كفرانهم ، ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم ، أو ذِكْرَهم أو نسيانهم.

---

(١) أضفنا (صلوات الله عليه) ليتضح اتجاه المعنى .

(٢) آية ١٠٤ سورة الـكهف .

(٣) سقطت (ما) من الناسخ والمعنى يتطلبها إذ هم لا إحساس لهم بما يجرى عليهم من حكم وتصريف .

(٤) وردت (الاختيار) بالياء وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت (مر) بدون تاء مربوطة والصواب أن تكون بها .

« البلاء الحسن » : توفيق الشكر فى المِنْحة ، وتحقيق الصبر فى المحنة ، وكل ما يفعله الحقُّ فهو حَسَنٌ من الحقِّ لأنَّ له أنْ يفعلَه . وهذه حقيقة الحَسَن : وهو ما للفاعل أن يفعله[1] .

ويقال حَسُنَ البلاء لأنه منه و (. . . .)[2] البلاء لأنه فيه .

ويقال البلاء الحسن أن تَشْهَدَ المُبْلِى فى عين البلاء .

ويقال البلاء الحسن ما لا دعوى لصاحبه إنْ كان نعمة ، ولا شكوى إن كان محنة .

ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر إنْ كان عُسْراً ، ولا بطر إن كان يسراً .

ويقال بلاء كلِّ أحدٍ على حسبِ حاله ومقامه ؛ فأصفاهم ولاءً أوفاهم بلاءً ، قال عليه السلام: « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل »[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ اللهَ سميع عليم ﴾

تنفيسٌ لقومٍ وتهديدٌ لقومٍ ؛ أصحابُ الرِّفق يقول لهم إن الله « سميعٌ » لأنينكم ؛ فَيُرَوِّح عليهم بهذا وَقْتَهم ، ويحمل عنهم ولاءهم[4] ، وأنشدوا :

إذا ما تمنَّى الناسُ روْحاً وراحةً تمنيتُ أنْ أشكو إليك فتسمعاً

وقالوا :

قُلْ لى بألسنة التَّنفُّس كيف أنت وكيف حالك ؟

وأمَّا الأكابر فلا يُؤْذَنُ لهم فى التَّنَفُّس ، وتكون المطالبةُ متوجِّهةً عليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير إظهارٍ ولا شكوى ، فيقول : لو ترشح منك ما كُلِّفْتَ بِشُرْبِه تَوَجَّهتْ عليك الملامةُ ، فإن لم يكن منك بيانٌ فإنِّى سميعٌ لقالتك ،عليمٌ بحالتك.

---

(١) لاحظ الفرق بين (وهو ما للفاعل أن يفعله) في مسألة الحَسَن فقد جعل فعل الحَسَن حقاً لله ، وبين (عليه أن يفعله) عند المعتزلة إذ جعلوه واجباً عليه .

(٢) مشتبهة .

(٣) رواه الترمذى ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجه ، والحاكم عن سعد بن أبى وقاص . والإمام أحمد والنسائى وابن ماجه والدارمى من حديث عاصم . والطبرانى من حديث فاطمة .

(٤) ربما كانت فى الأصل (بلاءهم) فذلك يناسب التنفيس والترويح والرفق .

ويقال فى قوله « عليم » تسلية لأرباب البلاء ؛ لأنَّ من عَلِم أنَّ مقصودَه يعلم حالَه سَهُل عليه ما يقاسيه فيه ، قال — سبحانه — لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكُم وأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين ﴾ .

موهن كيدهم : بتقوية قلوب المؤمنين بنور اليقين ، والثبات على انتظار الفضل من قِبَلِ الله ، وموهن كيدهم : بأن يأخذَ الكافرين من حيث لا يشعرون ، ويظفر جندُ المسلمين عليهم.

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُم الفتحُ ﴾ .

قال المشركون — يومَ بدر — اللهم انصرْ أَحَبَّ الفئتين إليك ، فاستجابَ دعاءهم ونصر أحبَّ الفئتين إليه . . وهم المسلمون ، فسألوا بألسنتهم هلاكَ أنفسهم ، وذلك لانجرارهم فى مغاليط ما يُعَلِّقون من ظنونهم ، فهم توهَّموا استحقاق القربة ، وكانوا فى عين الفرقة وحُكْمِ الشِّقْوَةِ ، موسومين باستيجاب اللعنة بدعائهم ، والوقوع فى شقائهم ؛ فباختيارهم مُنُوا ببوارهم.

ويقال ظنوا أنهم من أهل الرحمة فَزَلُّوا ، فلما كُشِفَ السترُ خابوا وذَلُّوا ، فعند ذلك علموا أنهم زاغوا فى ظنهم وضلوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإِنْ تنتهوا فهو خيرٌ لكم[2] ﴾ .

فيغفر لكم ما قد سَلَفَ من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم .

« فهو خير لكم » ليس المراد منه المبالغة ؛ لأنه يقال هذا خير لك من هذا إذا كان الثانى ليس فيه شر ، وترك موافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم — بكل وجهٍ — هو شرٌ لهم ، ولكنه أراد به فى الأحوال الدنيوية ، وعلى موجب ظنِّهم .

---

(١) آية ٩٧ سورة الحجر .

(٢) أخطا الناسخ فى كتابة الآية إذ جاءت هكذا « وإن تنتهوا يغفر لهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تعودوا نَعدْ ﴾ .

يعنى إنْ عُدْتُم إلى الجميل من السيرة عُدْنا عليكم بجميل المِنَّة ، وإنْ عاودتم الإقدام على الشَّرِّ أعَدْنا عليكم ما أذقناكم من الضُّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئاً ولو كثُرَتْ وأنَّ اللهَ مع المؤمنين ﴾

مَنْ غَلَبَتْه قدْرةُ الأحد لم تغنِ عنه كثرة العدد .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ ورسولَه ﴾ .

الناس فى طاعة الله على أقسام : فمطيعٌ لخوفِ عقوبتِه ، ومطيعٌ طمعاً فى مثوبته ، وآخر تحققاً بعبوديته ، وآخر تشرفاً بربوبيته .

وكم بين مطيعٍ ومطيعٍ ! وأنشدوا :

أحبك يا شمسَ النهارِ وبَدْرَه ... وإنْ لامنى فيك السُّها والفراقدُ

وذاك لأنَّ الفضلَ عندك زاخرٌ ... وذاك لأنَّ العَيْشَ عندك باردُ

قال تعالى : « أطيعوا الله ورسوله » ولم يقل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وفى ذلك نوع تخصيص ، وحزب تفضيل يَلْطُفُ عن العبارة ويَبْعُد عن الإشارة[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا[2] تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون ﴾ .

أى تسمعون دعاءه إياكم ، وتسمعون ما أُنْزِلَ عليه من دعائى إياكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سَمِعْنا وهم لا يَسْمَعُون ﴾ .

لا تكونوا ممن يشهد جهراً ، ويجحد سِرّاً .

---

(١) هذا من المواضع التى يشعر فيها القارئ أن القشيرى يريد أن يقول شيئاً ولكنه يترك لفطنة القارىء يستشف ما وراء السطور .

(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (ولو تولوا) .

ويقال لا تقِرُّوا بلسانكم ، وتصِرُّوا على كفرانكم .

ويقال مَنْ نطق بتلبيسه تشهد الخبرة بتكذيبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون ﴾ .

دواعى الحق بحسن البيان ناطقة ، وألسنة البرهان فيما ورد به التكليف صادقة ، وخواطر الغيب بكشف ظُلَمِ الريْبِ مُفْصِحة ، وزواجر التحقيق عن متابعة التمويه للقلوب ملازمة . فمَنْ صُمَّ عن إدراك ماخوطب به سرُّه ، وعمِيَ عن شهود ما كوشف به قلبه ، وخَرِسَ — عن إجابة ما أُرْشِدَ إليه من حجة — فَهْمُه وعقله فدُونَ رُتبةِ البهائم قَدْرُه ، وفوق كل (. . . .) [1] من حكم الله ذُلُّه وصغره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأَسْمَعَهم ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم مُعْرِضون ﴾ .

مَنْ أقصَتْه سوابقُ القسمة لم تُدْنِه لواحقُ الخدمة ، ومنْ عَلِمه اللهُ بنعت الشِّقوة حرَمَه مايوجبُ عَفْوَه .

ويقال لو كانوا فى متناولات الرحمة لألبسهم صدارَ العصمة ، ولكن سبَق بالحرمان حكمُهم ، فخُتِم بالضلالةِ أمرُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذا دعاكم ﴾ .

أجاب واستجاب بمعنىً مثل أوقد واستوقد ، وقيل للاستجابة مزية وخصوصية [2] بأنها تكون طوعاً لا كرهاً ، وفَرْقٌ بين من يجيب لخوفٍ أو طمعٍ وبين من يستجيب لا بِعِوَضٍ ولا على ملاحظة غَرَضٍ . وحقُّ الاستجابة أن تجيب بالكلية من غير أنْ تذَرَ من المستطاع بقية .

---

(١) مشتبهة .

(٢) لاحظ كيف يتفق مذهب القشيرى فى المصطلح مع القاعدة اللغوية : زيادة المبنى فيها زيادة المعنى .

والمستجيبُ لربه محوٌ عن كلّه باستيلاء الحقيقة، والمستجيب للرسول — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — قائم بشريعته من غير إخلال بشيء من أحكامها . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستجابة له — سبحانه، وبالاستجابة للرسول ؛ فالعبدُ المستجيبُ — على الحقيقة — من قام بالله سرّاً ، واتصف بالشرع جهراً ، فيُفْرِده الحقُّ — سبحانه — بحقائق الجمع و (. . . .)[1] في مشاهدة الفرق ، فلا يكون للحدثان في مشرب حقائقه تكدير ، ولا لمطالبات الشرع على أحواله نكير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ .

إذْ لمَّا أفناهم عنهم أحياهم به .

ويقال العابدون أحياهم بطاعته بعد ما أفناهم عن مخالفته، وأما العالمون فأحياهم بدلائل ربوبيته، بعد ما أفناهم عن الجهل وظُلْمته . وأمَّا المؤمنون فأحياهم بنور موافقته بعد ما أفناهم بسيوف مجاهدتهم . وأمَّا المُوَحِّدون فأحياهم بنور توحيده بعد ما أفناهم عن الإحساس بكل غيره، والملاحظة لكل حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أن الله يحولُ بين المرءِ وقلبِهِ وأنَّه إليه تُحْشَرُون ﴾ .

يصون القلوب عن تقليب أربابها فيُقَلِّبها كما يشاء هو، من بيان هداية وضلال، وغَيبةٍ ووصالٍ، وحُجْبةٍ وقُرْبة، ويقينٍ ومرية، وأُنْسٍ ووحشة .

ويقال صان قلوب العُبَّادِ عن الجنوح إلى الكسل، فجدُّوا في معاملاتهم، وصان قلوب المريدين عن التعريج في أوطان الفشل فصدقوا في منازلاتهم ، وصان قلوب العارفين — على حدِّ الاستقامة — عن المَيْل فتحققوا بدوام مواصلاتهم .

ويقال حال بينهم وبين قلوبهم لئلا يكون لهم رجوعٌ إلا إلى الله ، فإذا سنح لهم أمر فليس لهم إلى الأغيار سبيل، ولا على قلوبهم تعويل . وكم بين من يرجع عند سوانحه إلى قلبه وبين من لا يهتدي إلى شيء إلا إلى ربِّه ! كما قيل :

---

(١) مشتبهة ، ولكن حسبما نعلم في مواضع سبقت أن المقصود أن الحق (يتولى) العبد أثناء الفرق الثاني - حيث يعود بالعبد المأخوذ ليقوم بفرائض الشرع ، حتى لا يكون في تحققه مقصراً في شيء من مطالبات الشريعة ، ولذا نرجح أن الكلمة الناقصة هي : (ولا يتركه) أو ما في معناها .

لا يهتدى قلبي إلى غيركم   لأنه سُدَّ عليه الطريق

ويقال العلماء هم الذين وجدوا قلوبهم ، قال تعالى : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب» . والعارفون هم الذين فقدوا قلوبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاتُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصةً واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقاب ﴾ .

احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعمُّ شؤمُها من تعاطاها ومن لم يتعاطها .

وغير المجرم لا يُؤْخَذ بجُرْم من أذنب ، ولكن قد ينفرِد أحدٌ بجرمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْم ، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بحكم ذلك الجرم فبعد أن لم يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم ؛ فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالماً فى الحال بل إنها تصيب أيضاً ظالماً فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ومطابقته معه ، ورضاه به ، وهذا معنى التفسير من حيث الظاهر . فأمَّا من جهة الإشارة : فإن العبدَ إذا باشر زَلَّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة وهى العقوبة المعجلة ، وتصيب النَّفْس منها العقوبة المؤجلة ، والقلبُ إذا حصلت منه فتنة الزلة — عندما يهم بما لا يجوز — تَعَدَّتْ فتنته إلى السِّر وهى الحُجْبَةُ .

والمُقَدَّمُ فى شأنه إذا فعل ما لا يجوز انقطعت البركاتُ التى كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعيه وتلامذته ، وكان لهم نصيبهم من الفتنة وهم لم يعملوا ذنباً . ويقال إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر عند تَرْكِهم الأذكار أصابتهم فتنةُ ما فعلوه ؛ فلقد قيل إنَّ السفيهَ[1] إذا لم يُنْهَ مأمورٌ . فعلى هذا تصيب فتنةُ الزَّلةِ مرتكبَها ومَنْ تَرَكَ النَّهى عن المنكر — مثل مَنْ ترك الأمر بالمعروف — يؤخذ بجُرْمه .[2]

---

(١) وردت (السفينة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وردت هذه العبارة حافلة بالكثير من الأخطاء التى سببت فى غموض المعنى فقومناها حسبما يقتضى السياق — دون أن يكون اقتحامنا خطيراً على النص .

ويقال إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا مما فوق الكفاية — وإن كان من وجهٍ حلال — تؤدى فترته إلى من يخرج به من المبتدئين ، فبجملة ما أبدى من الرغبة فى الدنيا ، وتَرْكِ التقلل يؤدى إلى الانهماك فى أودية الغفلة والأشغال الدنيوية .

والعابد إذا جَنَحَ عن الأَشَقِّ وتَرَكَ الأَوْلى[1] تعدَّى ذلك إلى من كان ينشط فى المجاهدة ؛ فيستوطنون الكسل ، ثم يحملهم الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصيرون كما قيل:

إن الشبابَ والفراغ والجدة ... مَفْسَدَةٌ للمرء أى مفسدة

وهكذا يكون نصيبهم من الفتنة .

والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظٌّ له ، نَظَرَ إليه المريدُ ، فتتداخله فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، ويكون ذلك نصيبه من فتنة العارف .

وفى الجملة إذا غفل المَلِكُ ، وتَشَاغَل عن سياسة رعيته تَعَطَّلَ الجندُ والرعية ، وعَظُمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّة ، وفى معناه أنشدوا :

رُعَاتُك ضَيَّعوا — بالجهل منهم — ... غُنَيْماتٍ فَسَاسَتْها ذِئابُ

« والله شديد العقاب » بتعجيله ذلك ، ومن شدة عقوبته أنه إذا أخذ عبداً ليُعَاقِبَه لايُمَكِّنه من تلافى موجب تلك العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مُسْتَضْعَفُون فى الأرضِ تخافون أنْ يتخطَّفَكم الناسُ فآواكم وأيَّدَكُم بِنَصْرِه ﴾

يُذَكِّرهم ما كانوا فيه من القِلَّة والذِّلَّة وصنوف (...)[2] ثم ما نَقَلَهم إليه من الإمكان والبَسْطَة ، ووجوه الأمان والحيطة ، وقرَّبهم إلى إقامة الشكر على جزيل تلك القِسَم ،

---

(١) وردت (الأولاد) وهى خطأ فى النسخ ، والجنوح عن الأشق وترك الأولى تعبيران مألوفان عندما يتحدث القشيرى عن ايثار الصوفى للرخص .

(٢) مشتبهة وربما كانت (الحِطّة) أى نقصان المنزلة ، فإنها قريبة السياق ، ومنسجمة مع الموسيقى اللفظية .

وإدامة الحمد على جميل تلك النِّعم ، فمهّدَ لهم فى ظل أبوابه مقيلا ، ولم يجعل للعدوِّ إليهم — بيُمْنِ رعايته — سبيلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ ورزقكم من الطيبات لعلكم تَشْكُرون ﴾

رَزَقَ الأشباحَ والظواهرَ من طيبات الغذاء ، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء . وحقيقة الشكر على هذه النعم الغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المُنْعِم .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ﴾

الخيانة الاستبطان بخلاف ما يُؤَمِّلُ منك بحقِ التعويل ، فخيانةُ اللهِ بتضييع ما ائتمنك عليه ، وذلك بمخالفة النُّصح فى دينه ، وخيانة الرسولِ بالاتصاف بمخالفة ما تبدى من مشايعته .

والخيانة فى الأمانات بترك الإنصاف ، والاتصاف بغير الصدق .

وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة ، فمن اؤتمِنَ فى مالٍ فتصرَّفَ فيه بغير إذن صاحبه — خيانة ، ومن اؤتمن على الحُرَم فملاحظته إياهن — خيانة . فعلى هذا : الخيانةُ فى الأعمال الدعوى فيها بأنها من قِبَلك دون التحقيق بأنَّ مُنْشِئها اللهُ .

والخيانة فى الأحوال ملاحظتُك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك فى شهود الحق ، إن لم يكن استهلاكك فى وجود الحق . وإذا أَخَلْتَ بِسُنَّةٍ من السُّنَنِ أو أدبٍ من آداب الشَّرع فتلك خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والخيانة فى الأمانات — بينك وبين الخلق — تكون بإيثار نصيب نفسك على نصيب المسلمين ، بإرادة القلب فضلاً عن المعاملة بالفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ وأنَّ اللهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾

أموالكم وأولادكم سبب فتنتكم لأن المرء — لأجل جمع ماله ولأجل أولاده — يرتكب ماهو خلاف الأمر ، فيورثه فتنة العقوبة .

ويقال الفتنةُ الاختبارُ ، فيختبرك بالأموال .. هل تؤثرها على حقِّ الله ؟

وبالأولاد .. هل تتركُ لأجلهم مافيه رضاء الله ؟

فإنْ آثرتم حقَّه على حقِّكم ظهرت به فضيلتُكم ، وإنْ اتصفتم بضدِّه عوملتم بما يوجبه العكس من محبوبكم .

ويقال المالُ فتنةٌ إذا كان عن اللهِ يشغلكم ، والأولادُ فتنةٌ إذا لأَجْلِهم قَصَّرْتُم فى حقِّ الله أو فَرَّطْتُم .

ويقال المال — ما للكفافِ والعفافِ[1] — نِعْمَةٌ ، وما للتقاصرِ والتفاخرِ فتنةٌ ، وفى الجملة ما يشغلكَ عن اللهِ فهو فتنة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنْ تتقوا اللهَ يجعلْ لكم فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم ويغفِرْ لكم واللهُ ذو الفضل العظيم[2] ﴾ .

الفرقان مابه يفرق بين الحق والباطل مِنْ عِلْمٍ وافر وإلهامٍ قاهر ، فالعلماء فرقانُهم مجلوبُ برهانِهم ، والعارفون فرقانهم موهوب[3] عرفانهم ؛ فأولئك مع مجهود أنفسهم ، وهؤلاء بمقتضى جُودِ ربِّهم .

العرفانُ تعريفٌ من الله ، والتكفير[4] تخفيفٌ من الله ، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله .

---

(١) وردت (والعقاب) وهى خطأ من الناسخ إذ لا تؤدى المراد ، ونظن أن (العفاف) تنسجم مع السياق ، ومع التركيب الداخلى للأسلوب .

(٢) أخطأ الناسخ إذ جعل خاتمة الآية (والله سميع عليم) .

(٣) وردت (موهوم) وهى خطأ من الناسخ ، والصواب أن تكون (موهوب) فهكذا يتطلب السياق .

(٤) (التكفير) هنا تشير الى ما ورد فى الآية : « ويكفر عنكم سيئاتكم » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يَمْكُرُ بِكَ الذين كفروا
لِيُثْبِتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك
ويمكرون ويمكر اللهُ واللهُ
خير الماكرين ﴾

ذكره عظيم مِنَّتِه عليه حيث خَلَّصه من أعدائه حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وهمُّوا بقتله ، وحاولوا أن يمكروا به في السِّر ، فأعلمه الله ذلك .

والمكرُ إظهارُ الإحسانِ مع قَصْدِ الإساءةِ في السِّر ، والمكرُ من الله الجزاء على المكر ، ويكون المكرُ بهم أنْ يُلْقِيَ في قلوبهم أنه مُحْسِنٌ إليهم ثم — في التحقيق — يُعذِّبهم ، وإذا شَغَلَ قوماً بالدنيا صَرَفَ همومَهم إليها حتى يَنْسَوْا أمر الآخرة ، وذلك مكرٌ بهم ، إذ يُوطِّنُون نفوسهم عليها ، فيتيح لهم من مأمنِهم سوءاً ، ويأخذهم بغتةً .

ومن جملة مكره اغترارُ قومٍ بما يرزقهم من الصيت الجميل بين الناس ، وإجراءِ كثير من الطاعات عليهم ، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطةً ، وهم عن الله غافلون ، وعند الناس أنهم مُكْرَمون ، وفي معناه قيل :

وقد حسدوني في قرب داري منكم ... وكم من قريب الدار وهو بعيد

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا
لو نشاء لقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا
إلا أساطيرُ الأولين ﴾

فَرْطُ جهلهم ، وشؤم جحدهم سَتَرَ على عقولهم قُبْحَ دعاويهم في القدرة على معارضة القرآن فافتضحوا عند الامتحان بعدم البرهان ، والعجز عما وصفوا به أنفسهم من الفصاحة والبيان ، وقديماً قيل :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه ... فَضَحَ الامتحان[1] ما يدَّعيه

---

(١) وردت (الامتهان) بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

ويقال لمَّا لاحظوا القرآن بعين الاستصغار حُرِموا بركات الفهم فعدُّوه من جملة أساطير الأولين ، وكذلك مَنْ لا يراعي حرمة الأولياء ، يعاقَبُ بأنْ تُسْتَرَ عليه أحوالُهم ، فيظنهم مثله في استحقاق مثالبه ، فيطلق فيهم لسان الوقيعة ، وهو بذلك أحقُّ ، كما قيل :

« رَمَتْني بدائِها وانْسَلَّتْ »

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ
مِنْ عندِك فأَمْطِرْ علينا حجارةً
من السماء أو ائتِنا بعذابٍ أليم﴾

دَلَّ سؤالهم العذابَ على تصميم عقدهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستيقنوا عند أنفسهم بأنه لا يُسْتجاَبُ فيهم ما يدعونه على أنفسهم .

وفي هذا أظهر دليل على أن سكون النفس إلى الشيء ليس بعلم ؛ لأنه كما يوجد مع العلم يوجد مع الجهل .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان الله ليُعَذِّبَهم وأنت فيهم﴾

ما كان الله معذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله ليعذِّبَ أسلافهم وأنت في أصلابهم ، وليس يعذبهم اليوم وأنت فيما بينهم إجلالاً لقَدْرِك ، وإكراماً لمحلِّك ، وإذا خرجتَ من بينهم فلا يعذبهم وفيهم خدمك الذين يستغفرون ، فالآية تدل على تشريف قَدْر الرسول — صلى الله عليه وسلم .

ويقال للجِوَارِ حُرْمةٌ ، فَجَارُ الكرام في ظل إنعامهم ؛ فالكفار إن لم يَنْعَمُوا[1] بقرب الرسول — صلى الله عليه وسلم — منهم فقد اندفع العذاب — بمجاورته — عنهم :

وأُحِبُّها وأُحِبُّ منزلَها الذي   نَزَلَتْ به وأُحِبُّ أهلَ المنزلِ

---

(١) وردت (ينعموا) والملائم للمعنى (ينعموا) لترتبط بالإنعام الذي جاء ذكره في الجملة السابقة ، ويؤكد اختيارنا أيضاً وجود (الباء) في (بقرب الرسول) إذ يقال (نعم بكذا) ولا يقال (منع بكذا) .

ويقال إذا كان كون الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الكفار يمنع العذاب عنهم فكون المعرفة فى القلوب أَوْلى بدفع العذاب عنها .

ويقال إن العذاب — وإنْ تأخَّر عنهم مدة مقامهم فى الدنيا مادام هو عليه السلام فيهم — فلا محالة يصيبهم العذابُ فى الآخرة ، إذ الاعتبار بالعواقب لا بالأوقات والطوارق .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان اللهُ معذِّبَهم وهم يستغفرون ﴾

علم أنه — عليه السلام — لا يتأبَّد مُكْثُه فى أمته إذ قال له : « وما جعلنا لبَشَرٍ مِنْ قبلِك الخُلْد »[1] ، فقال إنى لا أضيع أُمَّتَه وإن قضى فيهم مُدَّتَه ، فما دامت ألسنتُهم بالاستغفار مُتَطَلِّعةً فصنوف العذاب عنهم مرتفعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لَهُم ألاَّ يُعَذِّبهم اللهُ
وهم يَصُدُّونَ عن المسجدِ الحرامِ
وما كانوا أولياءه ﴾

نَفَى العذابَ عنهم فى آية ، وأثْبتَه فى آية ، فالمنفىُّ فى الدنيا والمثْبَتُ فى الآخرة .

ثم بيَّنَ إيصالَ العذاب إليهم فى الآخرة بقوله تعالى . « وهم يصدون عن المسجد الحرام » دليل الخطاب أن إعانة المسلمين على ما فيه قيام بحق الدين يوجب استحقاق القربة والثواب

وفى الآية دليلٌ على أنه لا يعذِّب أولياءه بقوله : « وما كانوا أولياءه » فاذا عذَّبَ مَنْ لم يكونوا أولياءه دلَّ على أنه لا يعذِّب من كان من جملة أوليائه . والمؤمنون كلُّهم أولياء الله لأنه قال : الله وليُّ الذين آمنوا »[2] . والمؤمِنَ — وإنْ عذِّب بمقدار جُرْمه زماناً فإنه لا يُخَلَّد فى دار العقوبة ، فما يُقاسون بالإضافة إلى تأبيد الخَلاصِ جَلَلٌ ، وقيل :

إذا سَلِمَ العهدُ الذى كان بيننا فوُدِّى وإنْ شطَّ المزار سليمُ

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكنَّ
أكثرَهم لا يعلمون ﴾

---

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

(٢) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

وليس أولياؤه إلا المتقون ، وهم الذين اتقوا الشِّرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان صلاتُهم عند البيتِ
إلا مُكاءً وتصديةً ﴾ .

تجردت أعمالهم بظواهرهم عن خلوص عقائدهم ، فلم يوجدْ — سبحانه وتعالى — لها احتساباً ؛ فزكاة القالة لا يكون إلا مع صفاء الحالة ، وعناء الظاهر لا يُقْبَلُ إلا مع ضياء السرائر .

قوله جل ذكره : « فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون »
كان العذابُ مُعَجَّلا وهو حسبانهم أنهم على شيء ، قال الله تعالى :
« وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً » ، ومؤجَّلاً وهو كما قال الله تعالى : ﴿ ولَعَذابُ الآخرة أشق ﴾[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا يُنْفِقون أموالَهم
لِيَصُدُّوا عن سبيلِ الله فسينفقونها
ثم تكونُ عليهم حسرةً ثُمَّ يغلَبون
والذين كفروا إلى جهنَّمَ يُحْشَرون ﴾

يرومون بإنفاقهم صنوفَ أموالهم صلاحاً ونظاماً لأحوالهم ، ثم لا يَحْظَوْن إلا بخسران ، ولا يحصلون إلا على نقصان . خَسِروا وهم لا يشعرون ، وخابوا وسوف يعلمون :

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفَرَسٌ تحتك أم حِمارُ ؟

قوله : « والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » إنهم وإن ألْهَتْهُم أموالُهم فإلى الهوان والذِّلة مآلُهم ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ، ولم تنفعهم أعمالُهم ، بل خُتِمَتْ بالشقاوة أحوالُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ليَمِيزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطيِّب
ويجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ
فيركُمَه جميعاً فيجعلَه في جَهَنَّم
أولئك هم الخاسرون ﴾ .

---

(١) آية ٣٤ سورة الرعد .

الخبيث ما لا يصلح لله ، والطيب ما يصلح لله .

الخبيث ما حكم الشرعُ بقبحه وفساده ، والطيب ما شهد العلم بحسنه وصلاحه .

ويقال الخبيث الكافرُ ، والطيِّبُ المؤمنُ .

الخبيثُ ما شغَلَ صاحبَه عن الله ، والطيِّبُ ما أوصل صاحبه إلى الله .

الخبيثُ ما يأخذه المرء وينفقه لحظِّ نفسه ، والطيب ما ينفقه بأمر ربه .

الخبيث عملُ الكافرِ يُصَوَّر له ويُعَذَّبُ بإلقائه عليه ، والطيِّبُ عملُ المؤمن يُصَوَّرُ له في صورةٍ جميلة فيحمل المؤمن عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ للذين كفروا إنْ يَنْتَهوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قد سَلَفَ وإنْ يعودوا فقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ .

إنْ كبحوا لجام التمرد ، وأقلعوا عن الركض في ميدان العناد والتَّجبُّر أزَلْنا عنهم صَغارَ الهوان ، وأوْجَبْنا لهم رَوْحَ الأمان .

ويقال إن حلُّوا نطاق العناد أطلقنا عنهم عقال البعاد .

ويقال إن أبصروا قُبْحَ فِعالهم جُدْنا عليهم بإصلاح أحوالهم .

ويقال إنْ جنحوا للاعتذار ألقينا عليهم حالة الاغتفار .

ويقال إن عادوا إلى التَّنَصُّل[1] أبحنا لهم حُسْنَ التَّفضُّل :

أنـاسٌ أعرضوا عنّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
أساءوا ظَنَّهم فينـا فهـلاَّ أحسنوا الظنَّا
فإن كانوا لنا — كُنَّا ، وإنْ عادوا لنـا عُدْنا
وإن كانوا قد استَغْنَوْا فإنَّا عنهمُ أغـنى

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتِلوهم حَتَّى لا تـكونَ فتنةٌ ويكونَ

---

(١) تنصَّل من ذنبه أي تبرَّأ

الدينُ كُـلُّه لله فإن انتهوْا فإنَّ اللهَ

بما يعملون بصير ﴾

أمرهم بمقاتلة الـكفار والإبلاغ فيها حتى تُستأصل شأفتُهم بحيث يأمَن المسلمون مَضَرَّتهم ، ويكْـفَوْن بالـكلية فتنتهم . . وحَيَّةُ الوادى لا تُؤْمَنُ ما دامت تبقى فيها حركة ؛ كذلك العدو إذا قُهِر فحقُّه أن تُقْتلعَ جميعُ عروقه ، وتُنَقَّى رِباعُ الإسلام من كل شكيرة[1] تنبت من الشرك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ تَوَلَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم

نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير ﴾

فإن أبَوْا إلاَّ عُتُوًّا ، وعن الإيمان إلا نُبُوًّا ، فَلاَ على قلوبكم ظِلٌّ مخافةٍ منهم ؛ فإن اللهَ — سبحانه — وليُّ نصرتـكم ، ومتولِّى كفايتـكم ؛ إنْ لم تـكونوا بحيث نِعْمَ العبيد فهو نِعْمَ المولى لـكم ونِعْمَ الناصر لـكم .

ويقال نِعمَ المولى لـكم يوم قسمة العرفان ، ونِعْم الناصرُ لـكم يوم نعمة الغفران .

ويقال نِعْم المولى لك حين لم تـكن ، ونِعْمَ الناصر لك حين كنتَ .

ويقال نعم المولى بالتعريف قَبْلَ التـكليف ، ونِعْم الناصر لـكم بالتخفيف والتضعيف ؛ يُخَفِّفُ عنـكم السيئات ويضاعف الحسنات :

وهواكِ أولُ ما عرَفْتُ مِنَ الهوى والقلبُ لا ينسى الحبيبَ الأوّلا

قوله جل ذكره : ﴿ واعلموا أنَّ ما غَنِمْتُم مِن شىءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرسولِ ولذى القُرْبى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل إنْ كنتم آمَنْتُم باللهِ وما أنزلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرْقانِ يومَ التقى الجَمْعَانِ ، والله على كل شىءٍ قدير ﴾

---

(١) شكرت الشجرة أى خرجت منها الشكيرة وهى ما ينبت حولها من أصلها .

الغنيمةُ ما أخذه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظَفِروا عند المجاهدة والقتال معهم . فإذا لم يكن قتال — أو ما فى معناه — فهو فَىْءٌ .

والجهاد قسمان : جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النَّفْس والشيطان وهو الجهاد الأكبر — كما فى الخبر[1] .

وكما أن فى الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظَّفَرِ ، ففى الجهاد الأكبر غنيمة ، وهو أن يملك العبدُ نَفْسَه التى كانت فى يد العدو : الهوى والشيطان . فبعد ما كانت ظواهرُه مَقَرًّا للأعمال الذميمة ، وباطنُه مستقراً للأحوال الدَّنِيَّة يصير محلُّ الهوى مَسْكَنَ الرِّضا ، ومَقَرُّ الشهواتِ والمُنَى مُسَلَّماً لِمَا يَرِدُ عليه من مطالبات المولى ، وتصير النَّفْسُ مُسْتَلَبةً مِنْ أَسْرِ[2] الشهوات ، والقلبُ مُخْتَطَفاً من وصف الغفلات ، والرُّوحُ مُنْتَزَعَةً من أيدى العلاقات ، والسِّرُّ مَصُوناً عن الملاحظات . وتصبح غاغةُ النَّفْسِ مُنْهَزِمةً ، ورياسةُ الحقوقِ بالاستجابة لله خافقةً .

وكما أن من جملة الغنيمة سَهْماً لله وللرسول ، وهو الخُمْسُ فمما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهمٌ خالِصٌ لله ؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب ، لا من كرائم العُقْبى ، ولا من ثمرات التقريب ، ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبدُ عند ذلك مُحَرَّراً عن رِقِّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله ، كما قيل :

مَنْ لم يكن بِكَ فانياً عن حظِّه   وعن الهوى والإنْسِ والأحبابِ
فكأنه ـ بين المراتب ـ واقِفٌ   لمنَالِ حظٍّ أو لِحُسْنِ ثوابِ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ أنتم بالعُدْوةِ الدُّنيا وهم بالعُدْوةِ القُصْوَى والرَّكْبُ أسْفَلَ مِنْكم ، ولو تواعدْتم لاختلفتم

---

(١) إشارة الى ما قاله الرسول بعد إحدى الغزوات : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » .

(٢) وردت (أسرار) وهى خطأ في النسخ .

فى الميعادِ ، ولـكِنْ ليَقْضِىَ اللهُ
أمراً كان مفعولاً ﴾

يخبر — سبحانه — أنَّ ما جرى يَومَ بدرٍ من القتال ، وما حَصَلَ من فنون الأحوال كان بحكم التقدير ، لا بما يحصل من الخَلْق من التدبير ، أو بحكمٍ تقتضيه رَوِيَّةُ التفكير . بل لو كان ذلك على اختيار وتَوَاعُد ، كنتم عن تلك الجملة على استكراه وتَبَاعُد ، فجرى على ما جرى ليقضِىَ الله أمراً كان مقضيًّا ، وحصل من الأمور ما سَبَقَ به التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنة
وَيَحْيَى مَن حَىَّ عَنْ بَيِّنة وإنَّ اللهَ
لسميعٌ عليم ﴾

أى لِيُضِلَّ مَنْ زاغ عن الحقِّ بعد لزومه الحجبة ، ويهتدىَ مَنْ أقام على الحقِّ بعد وضوح الحُجَّة .

ويقال الحقُّ أَوْضَحَ السبيلَ ونَصَبَ الدليلَ ، ولـكن سَدَّ بصائرَ قومٍ عن شهود الرشد ، وفَتَح بصائرَ آخرين لإدراك طرق الحق .

الهالك من وقع فى أودية التفرقة ، والحىُّ مَنْ حَيِيَ بنور التعريف .

ويقال الهـالك من كان بحظِّه مربوطاً ، والحىُّ من كان من أَسْرِ كلِّ نصيبٍ مُسْتَلَبًا مجذوباً[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يُرِيكَهُمُ اللهُ فى منامِكَ قليلا
ولو أَرَاكَهُم كثيراً لَفَشِلْتُم
ولتَنَازَعْتُم فى الأمرِ ، ولـكِنَّ اللهَ
سَلَّمَ إنه عليمٌ بذات الصدور *
وإذ يُرِيكمُوهُم إذِ التقيتم فى أعيُنِكم
قليلاً وَيقلِّلُكم فى أعْيُنِهم ليقضِىَ

(١) كلمة (مجذوب) بهذا الاستعمال قد تؤدى المعنى الذى تطلق به فى أوساط الصوفية اليوم .

اللهُ أمْراً كان مفعولاً وإلى اللهِ
تُرْجَعُ الأمور ﴾

قيل أراه إياهم فى نومه — صلى الله عليه وسلم — بوصف القِلّة ، وأخبر أصحابه بذلك فازدادوا جسارة عليهم .

وقيل أراه فى منامه أى فى محل نومه أى فى عينيه ، فمعناه قلَّلهم فى عينيه ؛ لأنهم لو استكثروهم لفشلوا فى قتالهم ، ولانكسرت بذلك قلوبُ المسلمين .

وفى الجملة أراد اللهُ جريانَ ما حصل بينهم من القتال يومَ بدر ، وإنَّ اللهَ إذا أراد أمراً هَيَّأ أسبابَه ، فقلَّلَ الكفارَ فى أعين المسلمين فزادوا جسارةً ، وقلَّلَ المسلمين فى أعين الكفار فازدادوا — عند نشاطهم إلى القتال — صغراً فى حكم الله وخسارةً .

« والله عليم بذات الصدور » : وكيف لا ؟ ومنه تَصدُرُ المقاديرُ ، وإليه تُرْجَعُ الأمور .

ويقال إذا أراد الله نصرة عبدٍ فلو كَادَ له جميعُ البشر ، وأراده الكافةُ بكل ضَرَرٍ ، لا ينفع مَنْ شاء مَضَرَّتَه كَدٌّ ، ويحصل بينه(1) وبين متاح لطفه به سَدٌّ .

وإذا أراد بعبدٍ سوءاً فليس له رَدٌّ ، ولا ينفعه كَدٌّ ، ولا ينعشه بعد ما سقط فى حكمه جَهْدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فِئةً
فاثْبُتُوا واذكروا الله كثيراً
لعلكم تُفْلِحون ﴾

أراد إذا لقيتم فئةً من المشركين فاثبتوا . والثباتُ إنما يكون بقوة القلب وشدة اليقين ، ولا يكون ذلك إلا لنفاذ البصيرة ، والتحقق بالله ، وشهود الحادثات كلها منهُ ، فعند ذلك يستسلم لله ، ويرضى بحكمه ، ويتوقع منه حُسْنَ الإعانة ، ولهذا أحالَهم على الذكر فقال : « واذكروا الله كثيراً » .

ويقال إنَّ جميعَ الخيراتِ فى ثبات القلب ، وبه تَبِينُ أقدارُ الرجالِ ، فإذا وَرَدَ على الإنسان خاطرٌ يزعجه أو هاجِسٌ فى نفسه يهيجه .. فَمَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ توَقفَ ريثما

---

(1) الضمير فى (بينه) يعود على الضرر أو من شاء الضرر ، والضمير في (به) يعود على العبد المنصور .

تَتَبَيَّنُ له حقيقةُ الوارد ، فيثبُتُ لكونه رابطَ الجأش ، ساكنَ القلب ، صافىَ اللُّب . . وهذا نعت الأكابر .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا اللهَ ورسُولَه ولا تنازَعوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ ريحُكم واصبِروا إنَّ اللهَ مع الصابرين ﴾

الموافقة بين المسلمين أصلُ الدِّين . وأولُ الفساد ورأسُ الزَّلَلِ الاختلافُ . وكما تجب الموافقة فى الدين والعقيدة تجب الموافقة فى الرأى والعزيمة[1] .

قال تعالى فى صفة الكفَّار : « تحسبهم جميعاً وقلوبُهم شتَّى » ، وإنما تتحد عزائمُ المسلمين لأنهم كلَّهم يجمعهم التبرِّى مِنْ حوْلِهم وقُوَّتِهم ، ويتمحضون فى رجوعهم إلى الله ، وشهودهم التقدير ، فيتحدون فى هذه الحالة الواحدة .

وأمَّا الذين تَوَهَّمُوا الحادثاتِ من أنفسهم فَضَلُّوا فى ساحات حسبانهم ، وأجْرَوْا الأمور على ما يسنح لرأيهم ، فكلٌّ يبنى على ما يقع له ويختار ، فإذا تنازعوا تَشَعَّبَتْ بهم الآراء ، وافترقت بهم الطرقُ ، فيضعفون ، وتختلف طُرُقُهم . وكما تجب فى الدين طاعةُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تجب طاعة أولى الأمر ، ولهذا يجب فى كل وقت نَصْبُ إمامٍ للمسلمين ، ثم لا تجوز مخالفته ، قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أطيعوه ولو كان عبداً مجدعا »[2] وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إذا بعث سَرِيَّةً أمَّرَ[3] عليهم أميراً وقال : « عليكم بالسواد الأعظم » .

وإجماعُ المسلمين حُجَّةٌ ، وصلاة الجماعة سُنَّةٌ مؤكَّدة ، والاتِّباعُ محمودٌ والابتداع ضلالة .

قوله « واصْبِروا » الصبر حَبْسُ النَّفْس على الشيء ، والمأمور به من الصبر ما يكون على خلاف هواك .

---

(١) وردت (العظيمة) والملائم للرأى ولما جاء بعد قليل تتحد : (عزائم المسلمين) كلمة (العزيمة)

(٢) فى رواية مسلم وابن ماجه عن ام الحصين : « إن أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا » ص ١٤٦ حـ ٢ من منتخب كنز العمال .

(٣) وردت (اثر) والصواب (أمَّر) اميراً ، وربما اشتبهت علامة التضعيف على الناسخ فحسبها نقطاً لثاء .

« إن الله مع الصابرين » يتولى بالكفاية إذا حصل منهم الثباتُ وحَسُنَ التفويضُ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا مِنْ
ديارهم بَطَراً ورِئاءَ الناسِ ويَصُدُّون
عن سبيل اللهِ واللهُ بما يعملون
محيط ﴾

يريد أنَّ أهل مكة لما خرجوا من مكة عام بدر لنصرة العير ملَكَتْهم العِزَّةُ ، واستمكن منهم البَطَرُ ، وداخلَهم رياء الناس ، فارتبكوا فى شِبَاكِ غَلَطِهم ، وحصلوا على مالم يحتسبوه . وأمَّا المؤمنون فنَصَرهم نَصْراً عزيزاً ، وأزال عن نبيِّه — عليه السلام — ما أظلَّه من الخوف وبصِدْقِ تبريه عن حوله ومُنَّته — حين قال : (لا تكلنى إلى نفسى)[1] — كفاه بحسن التولِّى فقال (وَمارميت إذ رميت ولكن الله رمى) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال
لا غالِبَ لكم اليومَ مِنَ الناسِ
وإنى جارٌ لكم فلمَّا تراءتْ الْفِئَتَانِ
نَكَصَ على عَقِبَيْه وقال إنى برىءٌ
منكم إنِّى أرى مالا تَرَوْنَ إنِّى أخافُ
اللهَ واللهُ شديدُ العِقاب ﴾ .

الشيطان إذا زيَّن للانسان بوساوسه أمراً ، والنَّفْسُ إذا سوَّلت له شيئاً عَمِيَتْ بصائرُ أرباب الغفلة عن شهود صواب الرُّشد ، فيبقى الغافل[2] فى قِياد وساوسه ، ثم تلحقه هواجمُ

(١) « لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين »
الحاكم من حديث أنس قال صحيح على شرط الشيخين ، وهو فى اليوم والليل ، وعلمه صلى الله عليه وسلم لابنته الزهراء رضى الله عنها .
(٢) وردت (العاقل) وهى خطأ فى النسخ فالكلام عن أرباب الغفلة .

التقدير من كوامن المكر[1] من حيث لايرتقب ، فلا الشيطان يفى[2] بما يَعِدُه ، ولا النفس شيئاً مما تتمنَّاه تجده ، وكما قال القائل :

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتى به القَدَرُ

وسالمتكَ الليالى فاغتَرَرْتَ بها وعند صفوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

قوله جل ذكره : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ غَرَّ هؤلاءِ دينُهم ومَنْ يتوكل على اللهِ فَإنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم ﴾ .

إن أصحابَ الغفلة وأرباب الغِرَّة إذا هبَّتَ رياحُ صَوْلَتِهم فى زمان غفلتهم يلاحظون أهلَ الحقيقة بعين الاستحقار، ويحكُمون عليهم بضعف الحال ، وينسبونهم إلى الضلال ، ويعدونهم من جملة الجهَّال ، وذلك فى زمان الفترة ومدة مُهْلةِ أهل الغيبة .

والذين لهم قوة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم ، يَرَوْن الغائبات عن الحواس بعيون البصيرة من وراء ستر رقيق ؛ فلا الطوارقُ تهزمهم ، [و]لا هواجم[3] الوقت تستفزهم[4] ، وعن قريب يلوح عَلَمُ اليُسْرِ ، وتنجلى سحائبُ العُسْر ، ويمحق اللهُ كيد الكائدين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَو ترى إذ يَتَوفَّ الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم وذوقوا عذابَ الحريق ﴾ .

يُسَلِّيهم[5] عندما يُقَاسُون من اختبارات التقدير بما يُذَكِّرهم زوالَ المحنة ، ووَشْكَ رَوْحِ

---

(١) هكذا فى المتن ، وفى الهامش (كوامن المنكر) ولكن الصواب ماجاء بالمتن إذ المقصود ما يهجم على الغافل من (مكر) الله — سبحانه .

(٢) وردت (يغنى) والملائم لما (يعده) كلمة (يفى) .

(٣) وردت (هوام) .

(٤) وردت (تستقرم) ويكون معنى الجملة بعد هذين التصويبين هو ماجاء فى الرسالة (ص ٤٤) [الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت ، وسادات الوقت لا تصرفهم الهواجم] .

(٥) وردت (إيسلبهم) والمقصود (تسليته) المؤمنين فى أوقات الاختبار .

اليسر ، وسرعةَ حصولِ النصر ، وحلولَ النِّقَمِ بمرتكبي الظلم . والمؤمنُ كثيرُ الظَّفَرِ ، فإذا شاهد بأرباب الجرائم حلولَ الانتقامِ رقَّ قلبُهِ لهم ، فلا ينخرط فى سِلْكِ الشماتة ؛ إذ يخلو قلبه من شهوة الانتقام ، بل يجب أن يكون كل أحد بحُسْنِ الصفة ، وكما قيل .

قومٌ إذا ظَفِروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكم وأن الله ليس بظَلَّامٍ للعبيد ﴾ .

يُعرِّفهم أَنَّ ما أصابهم مِنْ شِدَّةِ الوَطْأَةِ جزاءٌ لهم على ما أسلفوه من قبيح الزَّلَّة ، كما قيل :

سَنَنْتَ فينا سننا قذف البلايا عُقْبَهُ
يصبر على أهوالها مَنْ برَّ يوماً ربَّه[1]

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » أى كيفما يعاملهم فى السَّراء والضرَّاء فذلك منه حَسَنٌ وعَدْلٌ ، إذ المُلْكُ مُلْكُه ، والخلْقُ خَلْقُه ، والحُكْمُ حُكْمُه .

قوله جل ذكره : ﴿ كدأبِ آلِ فِرعون والذين مِنْ قَبْلِهم كفروا بآيات اللهِ فأخذهم اللهُ بذنوبهم إنَّ الله قوىٌّ شديدُ العِقاب ﴾

لمَّا سلكوا مسلكَ أهلِ فرعون فى الضلال، سَلَكْنا بهم مسلكهم فيما أذقناهم من العذاب وسوء الحال ، وسُنَّةُ الله ألا تغيير فى الإنعام ، وعادته ألا تبديلَ فى الانتقام ، ومَنْ لم يَعْتَبِرْ بما يشهد[2] اعْتَبَرَ بما يصنعه به .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنَّ اللهَ لم يكُ مغيِّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم وأنَّ اللهَ سميعٌ عليم ﴾

---

(١) فى الشعر اضطراب ، ونرجح أن هناك خطأ فى النقل .

(٢) أى بما يشهده يحدث لغيره .

إذا أَنْعَمَ الحقُّ — سبحانه — على قومٍ نِعمةً وأراد إمهالهم أكرمهم بتوفيق الشكر ، فإذا شكروا نعمته فبقدر الشكر دامت فيهم .

وإذا أراد — سبحانه — إزالةَ نعمةٍ عن عبدٍ أذَلَّه بخذلان الكفر ، فإذا حَالَ[1] عن طريقِ الشكر عرَّض النِّعمة للزوال . فما دام العبدُ يشكر النعمة مقيماً كان الحقُّ فى إنعامه عليه مُديماً ، فإذا قابل النعمة بالكفرانِ انتثر سِلْكُ نظامه ، فبقدر مايزيد فى إصراره يزول الأمر عن قراره .

قوله جل ذكره : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين مِنْ قبلهم كذَّبوا بآياتِ ربِّهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آلَ فِرعون وكُلٌّ كانوا ظالمين ﴾

تنوَّعَتْ من آل فرعون الذنوب فَنَوَّعَ لهم العقوبة ، وكذلك هؤلاء : عُوقِبوا بأنواعٍ من العقوبة لَمَّا ارتكبوا أنواعاً من الزَّلة .

وفائدةُ تكرارِ ذِكْرِهم تأكيدٌ فى التعريف أنه لا يهمل المُكَلَّفَ أصلاً ، وإنْ أمهله حيناً ودهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ شَرَّ الدوابِّ عند الله الذين كفروا فَهُمْ لا يؤمنون ﴾

« عند الله » : فى سابق علمه وصادق حكمه ؛ فإذا كانوا فى عِلْمِهِ شَرَّ الخلائق فكيف يسعدون باختلاف السعايات وصنوف الطوارق ؟

هيهات أن تتبدل الحقائق !

وإذا قال : « فهم لا يؤمنون » — وكلامُه صِدقٌ وقولُه حَقٌّ — فلم يبقَ للرجاء فيهم مساغ ، ولا ينجع فيهم نُصْحٌ وإبلاغ .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين عَاهَدْتَ منهم ثم يَنْقُضون عَهْدَهم فى كلِّ مرة وهُم لا يتقون ﴾

---

(١) (حال) اى تغير مقبولة فى المعنى ، ولكن لا نستبعد أنها (حاد) فى الأصل .

أى الذين صار نقضُ العهد لهم سجيةً ، فلم يَذَروا من استفراغ الوسع فى جهلهم بقية .

وإن من الكبائر التى لا غفران لها فى هذه الطريق أن ينقض العبدُ عهداً ، أو يترك عقداً التزمه بقلبه مع الله . أولئك الذين سقطوا عن (....)[1] الله ، فرفع عنهم ظلَّ العناية والعصمة .

قوله جل ذكرُه : ﴿ فإمَّا تَثْقَفَنَّهم فى الحرب فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهم يَذَّكَّرُون ﴾

يريد إنْ صَادَفْتَ واحداً من هؤلاء الذين دأبُهم نقضُ العهد فاجعلهم عِبْرَةً لمن يأتى بعدهم لئلا يسلكوا طريقَهم فيستوجبوا عقُوبَتَهُم .

كذلك مَنْ فَسَخَ عقده مع[2] الله بقلبه برجوعه إلى رُخَصِ التأويلات ، ونزوله إلى السكون مع العادات[3] يجعله الله نكالا لمن بعده ، بحرمانه ما كان خوَّلَه ، وتنغيصه عليه مامن حظوظه أَمَّلَه ، فيفوته حق الله ، ولا يكون له امتناع عما آثره على حق الله :

تبدَّلت وتبدَّلنا واحسرتا لمن ابتغى عِوضاً لليلى فلم يجد

قوله جل ذكره : ﴿ وإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانبِذْ إلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لا يحب الخائنين ﴾

يريد إذا تحقَّقْتَ بخيانة قومٍ منهم فَصَرِّح بأنه لا عهدَ بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانةُ زال تَمتُ الأمانة ، وخيانةُ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، ومَنْ ضَنَّ[4] بميسورٍ له فقد خانَ فى عهده ، وزاغ عن جده ، وعقوبته معجَّلة ، فهو لا يحبُّه الله ، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته .

---

(١) مشتبهة .
(٢) وردت (من) والصواب عقده (مع) الله .
(٣) وردت (المدالات) والصواب (العادات)
(٤) وردت (ظن) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا سَبَقُوا إنَّهم لا يُعْجِزُون ﴾

كيف يعارِضُ الحقَّ أو ينازعه مَنْ فى قَبْضَتِه تَقَلُّبُه ، وبقدرته تَصَرُّفه ، وبتصريفه إياه عَدَمه وثبوتُه .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قوةٍ ومِنْ رِباط الخيل ﴾

أعدوا لقتالِ الأعداءِ ما يبلغ وسعكم ذلك من قوة ، وأَتَمُّهَا قوةُ القلبِ باللهِ ، والناسُ فيها مختلفون : فواحِدٌ يَقْوَى قلبُه بموعود نَصْرِه ، وآخرُ يَقْوى قَلْبُه بأَنَّ الحقَّ عالِمٌ بحاله ، وآخر يقوى قلبه لتحققه بأن يشهد من ربه ، قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »[1] ، وآخر يقوى قلبُه بإيثار رضاء الله تعالى على مراد نفسه ، وآخر يقوى قلبه برضاه بما يفعله مولاه به .

ويقال أقوى محبة للعبد فى مجاهدة العبد وتبرِّيه عن حَوْله وقوَّتِه .

قوله جل ذكره : ﴿ تُرْهِبُون به عدوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم وآخَرِين مِنْ دونهم لا تعلمونَهم ، اللهُ يعلمهم ، وما تُنْفِقُوا مِن شىءٍ فى سبيلِ اللهِ يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمون ﴾

الإشارة فيه أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو لاشتفاء صدره من قضية حقد ، بل قصده أن تكون كلمةُ الله هى العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على اللهِ إنه هو السَّميعُ العليم ﴾

---

(١) آية ٤٨ سورة الطور .

بعث الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — بالرحمة والشفقة على الخَلْق، وبمسالمة[1] الكفار رَجاءَ أن يُؤمِنوا فى المُسْتَأنف فإنْ أَبَوْا فليس يخرج أحدٌ عن قبضة العِزَّة.

ويقال العبودية الوقوفُ حيثما وقفت ؛ إنْ أُمِرْتَ بالقتال فلا تُقَصِّرْ، وإنْ أُمِرْتَ بالمواعَدةِ فمرحباً بالمُسالَمةِ، «وتوكّلْ على الله» فى الحالين فإنه يختار لك ما فيه الخيرة، فيوفِّقُك لِمَا فيه الأَوْلَى، ويختار لك ما فيه من قِسمى الأمرِ — فى الحربِ وفى الصُّلحِ — ما هو الأعلى.

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يُرِيدوا أَنْ يَخْدعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ هو الذى أيَّدك بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين * وأَلَّفَ بين قلوبِهم لو أنفَقْتَ ما فى الأرضِ جميعاً مَاَ أَلَّفْتَ بين قلوبِهم ولكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيم ﴾

أى إنْ لَبَّسُوا عليك، وراموا خِداعَك بطلب الصُّلح منك — وهم يستبطنون لك بخلاف ما يظهرونه — فإنَّ اللهَ كافِيكَ، فلا تَشْغَلْ قلبَك بغفلتك عن شرٍّ ما يكيدونك ؛ فإنى أَعْلَمُ ما لا تعلم، وأَقْدِر على ما لا تقدر.

هو الذى بنصره أفرَدَكَ، وبلطفِه أيَّدَكَ، وعن كل سوءٍ ونصيبٍ طَهَّرَك، وعن رقِّ الأشياء جَرَّدَكَ[2]، وفى جميع الأحوال كان لك.

هو الذى أيَّدك بمن آمن بك من المؤمنين، وهو الذى ألَّف بين قلوبهم المختلفة فجمَعَها على الدِّينِ، وإيثارِ رضاء الحق. ولو كان ذلك بِحِيَلِ[3] الخَلْق ما انتظَمَتْ هذه الجملة، ولو أبلغتَ بكلِّ ميسورٍ من الأفعال، وبذلتَ كُلَّ مُستطاعٍ من المال — لَماَ وَصَلْتَ إليه.

---

(١) وردت (بمسامله) وهى خطأ فى النسخ.
(٢) وردت (حررك) بالحاء وهى خطأ فى النسخ والصواب أن تكون بالجيم.
(٣) وردت (بحيل) بياءين وهى خطأ فى النسخ فهى (حيل) جمع حيلة.

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبي حَسْبُكَ اللهُ ومَنْ اتَّبعَكَ من المؤمنين ﴾

أحسنُ التأويلات فى هذه الآية أن تكون « مَنْ » فى محل النَّصب ؛ أى ومَنْ اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله .

ومن التأويلات فى العربية أن تكون « مَنْ » فى محل الرفع أى حسبُك مَنْ اتبعك من المؤمنين .

وقد عُلِمَ أن استقلال الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان بالله لا بمن سوى الله ، وكلُّ مَنْ هو سوى الله فمحتاجٌ إلى نصرة الله ، كما أن رسول الله محتاج إلى نصرة الله[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ حَرِّضْ المؤمنين على القتال ﴾

المؤمن لا يزداد بنفسه ضعفاً إلاَّ ازداد بقلبه قوةً ، لأن الاستقلالَ بقوة النَّفس نتيجةُ الغفلة ، وقوةُ القلب بالله — سبحانه — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ يَكُنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإنْ يكُنْ منكم مائة يَغْلبوا ألفاً مِنَ الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون * الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً فإنْ يَكُنْ منكم مائةٌ صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله ، واللهُ مع الصابرين ﴾

هذا لهم ، فأمَّا النبي — صلى الله عليه وسلم — فهو بتوحيده كان مؤمَّلاً بأنْ يَثْبُتَ لجميع الكفار لكمال قوَّته بالله تعالى ، قال عليه السلام : « بِكَ أصول »[2] ، وفى تحريضه للمؤمنين

---

(١) لاحظ كيف تؤثر النزعة الصوفية فى اختيار الفكرة النحوية .

(٢) « اللهم بك أصول وبك أحول وبك أسير » .
كان هذا من دعائه صلوات الله عليه — إذا أراد سفراً (الإمام أحمد والبزاز عن على كرم الله وجهه ، وقال الحافظ البيهقى : رجاله ثقات) .

على القتال كانت لهم قوة ، وبأمر الله كانت لهم قوة ؛ فقوة الصحابة كانت بالنبي — عليه الصلاة والسلام ، وتحريضه إياهم وقوتهم بذلك كانت بالله وبأمره إياه . . وشتّان ما هما !

قوله : « الآن خففَّ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً » : والضَّعْفُ الذى علم فيهم كان ضَعْفَ الأشباح فخفَّفَ عنهم ، أما القلوبُ فلم يتداخلها الضعف فحُمِلَ من ممارسة القتال بالعذر المذكور فى الكتاب .

والعوام يحملون المشاقَّ بنفوسهم وجسومهم ، والخواص بقلوبهم وهممهم ، وقالوا : « والقلبُ يحْمِل مالا يَحْمِلُ البَدَنُ » وقال آخر .

وإنْ تَرَوْنى أُعاديها فلا عَجَبٌ   على النفوسِ جناياتٌ من الهِمَمِ

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لِنَبِيٍّ أنْ يكونَ له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ فى الأرضِ تريدون عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرة والله عزيزٌ حكيم ﴾

أى لا ينبغى لنبى من الأنبياء — عليهم السلام — أن يأخذ أسارى من أعدائه ثم يرضى بأن يأخذ منهم الفِداء ، بل الواجب عليه أن يُثْخِنَ فى الأرض أى يبالغ فى قتل أعدائه — إذ يُقال أثخنه المرضُ إذا اشتدَّ عليه . وقد أخذ النبي — صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ منهم الفِداء ، وكان ذلك جائزاً لوجوب القول بعصمته ، ولكن لو قاتلتم كان أَوْلى . وأراد « بعَرَضِ الدنيا » أخذ الفداء ، والله جعل الفداء ، والله جعل رضاه فى أن يقاتلوهم ، وحرمة[1] الشرع خلاف رحمة الطبع ؛ فشرطُ العبودية أن يؤثر العبدُ اللهَ ، وإذا كان الأمر بالغِلظة فكما قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله »[2] .

---

(١) وردت (ورحمة) الشرع والصواب (وحرمة الشرع) والمعنى إن إتباع الأمر أولى من تحكيم عاطفة الرحمة بهم .

(٢) آية ٢ سورة النور .

« والله عزيزٌ » : بالانتقام من أعدائه ، « حكيمٌ » : فى جميع ما يصنع من التمليك والإملاك ، والتيسير والتدبير .

قوله جل ذكره : ﴿ لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُم عذابٌ عظيم ﴾

لولا أن الله حكم فى آزاله بإحلال الغنيمة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته لَمَسَّكُم — لأجْلِ ما أخذتُم من الفداء منهم يومَ بدر — عذابٌ عظيم ، ولكن الله أباح لكم الغنيمة فأزال عنكم العقوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ فكلوا مما غَنِمْتُم حَلالاً طيباً واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيم ﴾

الحلال ما كان مأذوناً فيه ، والحلالُ الطيِّبُ أنْ تعلم أن ذلك مِنْ قِبَلِ الله فضلاً ، وليس لَكَ مِنْ قِبَلِكَ استحقاقاً .

ويقال الحلال الصافى مالم يَنْسَ صاحبُه فيه معبودَه .

ويقال هو الذى لا يكون صاحبُه عن شهود ربِّه — عند أخذه — غافلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها النبيُّ قُلْ لِمَنْ فى أيديكم من الأسرى إنْ يعلمْ اللهُ في قلوبِكم خيراً يُؤْتِكُم خيراً مما أُخِذَ منكم ويغفِرْ لكم واللهُ غفورٌ رحيم ﴾

الذى يعطَوْنه خيرٌ مما أُخِذَ منهم . ويحتمل أن يكون ما فى الآخرة من حسن الثواب ، ويحتمل أن يكون ما فى الدنيا من جميل العِوَض . ويقال هو ما يوصلهم إليه من توفيق الطاعات ، وحلاوة الإيمان ، وهو خيرٌ مما أُخِذَ منهم .

ويقال ما أعطاهم من الرضاء بما هم فيه من الفقر ، بعدما كانوا أغنياء فى حال الشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ يريدوا خيانَتَك فقد خانوا اللهَ

مِنْ قبلُ فأَمْكَنَ منهم واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾

يريد إنْ عادوا إلى قتالك بعدما مَنَنْتَ عليهم بالإطلاق وخانوا عَهْدَكَ ، فالخيانة لهم دأب وطريقة ، ثم إنَّا نُمَكِّنُكَ منهم ثانياً كما أمْكَنَّاكَ من أسْرِهم أولاً ، وقيل :

إنْ عَادَتْ العَقْربُ عُدْنا لها وكانت النَّعْلُ لها حاضرة

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم فى سبيلِ اللهِ والذين آوَوْا و نصروا أُولئك بعضُهم أولياء بعضٍ والذين آمنوا ولم يهاجِروا ما لَكُم مِن وَلايتِهم من شيءٍ حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدِّينِ فعليكم النَّصْرُ إلاَّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ ، واللهُ بما تعملون بصير ﴾

ذَكَرَ صفةَ المهاجرين مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصفهم أنهم آمنوا ثم هاجروا مع الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ثم « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » هؤلاء هم المهاجرون .

أما الذين آووا فهم الأنصار ؛ آووا الرسول — عليه السلام — والمؤمنين .

فهذان الفريقان بعضهم أولياء بعض فى النصرة والدين .

وأما الذين آمنوا ولكن لم يهاجروا فليست لهم هذه الموالاة إلى أن يهاجروا ، وإنْ استعانوا بكم فعليكم نصرهم .

« إلا على قومٍ » وهم المُعاهِدون معكم .

وكمالُ الهجرةِ مفارقَةُ الأخلاق الذميمة ، وهجران النَّفْس فى تَرْكِ إجابتها إلى ما تدعو

إليه من شهواتها . ومن ذلك هجران إخوان السوء ، والتباعد عن الأوطان التى باشر العبدُ فيها الزَّلة ، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضاء الحق .[1]

وأما قوله « والذين آووا ونصروا » فهم الذين يؤثِرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، عوامُّ هؤلاء فى الأمور الدنيوية ، وخواصُّهم فى الكرائم فى الآخرة ، وخاصُّ الخاصِّ فى كل ما يصحُّ به الإثبات من سنىِّ الأحوال إلى ما لا يدرك الوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا بعضُهم أولياء بعضٍ إلاَّ تفعلوه تكُنْ فتنةٌ فى الأرضِ وفسادٌ كبير * والذين آمنوا وهاَجَرُوا وَجاَهدُوا فى سَبِيل اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا ونصروا أولئك هُمُ المؤمِنون حقاًلهم مغفرةٌ ورِزْقٌ كريم ﴾

قطَعَ العصمةَ بينهم وبين المؤمنين ، فالمؤمن للأجانبِ مُجاَنِبٌ ، وللأقارب مقارِبٌ . والكفّارُ بعضهم لبعضهم ، كما قيل : « طيرُ السماءِ على أُلاَّفِها تقعُ »

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا مِنْ بَعْدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحامِ بعضُهم أَوْلى ببعضٍ فى كتابِ اللهِ إنَّ اللهَ بكلِّ شىءٍ عليم ﴾

يريد مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهم فى الحال ، ومَنْ سيلحق بهم فى الاستقبال وآتى الأحوال فالألفةُ تجمعهم ، والولاية تشملهم ، فلهم من الله فى العقبى جزيلُ الثواب ، والنجاةُ من العذاب. ولهم فى الدنيا الولايةُ والتناصُر ، والمودة والتقارب ، والله أعلم .

---

(١) القشيرى من الشيوخ القائلين بأهمية السفر إذا دعت الضرورة يشرط أن يصحب السفر عن المكان سَفَرٌ عن النفس (انظر الرسالة ص ٢٠٠) .

فهـــرس

تم المجلد الثانى ويليه المجلد الثالث

وأوله سورة التوبة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقـــاهــرة
فرع التوفيقية